عبد الله كنون

أحاديث
عن الأدب المغربي الحديث



40,00

أحاديث
عن الادب المغربى الحديث

عبد الله كنون

أحاديث
عن الأدب المغربي الحديث



32 – 34 شارع فكتور هيكو
الهاتف 30.23.75 / 30.76.44
ص ب 4038 الدار البيضاء المغرب

بين يدي الكتاب

نفحات زكية من المغرب العربي

الاستاذ الدكتور اسحق موسى الحسينى

أراد الله للامة العربية أن تلتحم أجزاؤها التحام أعضاء الجسم الواحد ، علاوة على الملحمة الوجدانية والروحية التى وكدتها احداث التاريخ فى قديمه وحديثه .

وتبدو لنا هذه الأمة بصورة طائر قلبه فى ارض الكنانة ، وجناحه الايمن يصل الى العراق والخليج العربى ، وجناحه الأيسر يرف فوق المغرب العربى حتى يمس ماء المحيط الاطلسى .

هذا هو الوضع الطبيعى الذى باركته مشيئة الله . واذا كانت بعض الشعوب تلتقى بآدابها ولغاتها ، أو تقاليدها واديانها ، أو قوانينها وسلطانها ، فان الامة العربية التقت فى جميع هذه الميادين . وجاءت وحدة الرقعة الجغرافية فمكنت لها وزادتها رسوخا . فالبحر الابيض المتوسط يطوق شمالى افريقيا العربى ، ويرتفع شمالا كى يربطه بالمشرق العربى . وتلف الجزيرة العربية بحار صافية ابتداء من البحر الأحمر حتى أعالى الخليج العربى .

هذه الرقعة التى خلقها الله متحدة وموحدة جاءت يد الانسان الظالم الباغى فعبثت بها ، ونشرت حولها الأراجيف ، ورسمت الحدود والقيود ، حتى كاد أن ينقطع ماوصله الله ، وينهار ما اقامته الارادة الالهية . ولكن ما يحدث خلاف الطبيعة والارادة بفعل مئات السنين ينهار امام العزيمة فى بضع سنوات .

وهذا ما حدث بالفعل . فبعد ان قطع المغرب العربى والمشرق العربى

اجزاء لتبتلعها الافواه الكبيرة الشرهة ، وبعد ان اقيمت الحدود والسدود ، ورسمت الخرط ، ودقت الاوتاد ، وعاثت الايدى فسادا زاد على مائة عام ، هبت العاصفة ومحت تلك الرسوم ، كما تمحو رياح الصحراء آثار الطريق فى ساعة من الزمن

وقد توسل الباغى بوسائل شتى من حديد ونار الى حبر وورق . وكانت احدى الوسائل **التجهيل** . فما كان العربى فى المشرق يعرف عن اخيه فى المغرب الا ما تتناقله الالسنة وكان الباغى يستعمل كل وسائل الاعلام فى قومه حتى اصبح التاريخ الشامل الوافى مدونا باللغات الاجنبية .

وما كادت الادارة العربية تقتلع البغى من جذورها حتى راحت الايدى تمتد من وراء الصحارى والبحار تتصافح وتتعارف

وصدرت كتب تكشف ولاول مرة عما فى ضمير الامة العربية من احاديث ظلت مكتومة عشرات السنين .

وحرص الشباب المستنير أن الالتقاء بعد طول الفراق لابد من ان يتم طال الزمن أو قصر ، ولكن ثمت حواجز واباطيل لابد من ازالتها من دروب الاحبة . والمعرفة هى المنجل الحاد الذى يجتث الشوك .

وصدرت كتب تعرف بالأخوة من هم ، واين هم ، وماذا كانوا ، وماذا اصبحوا ، وماذا حل بهم فى اثناء تلك الحقبة البغيضة السوداء من تاريخهم .

ومن هذه الكتب سلسلة من افيد ما اصدرته المطابع ، تعرض تاريخ البلاد العربية من النواحى المختلفة تمهيدا للتعرف بحياتها الادبية ، التى هى حياة وجدانها فى اصدق مظاهره .

ومن الكتب كتاب الاستاذ الفاضل ابن عاشور عن تونس ، وعبد الله عبد الجبار عن الجزيرة العربية ، وناصر الدين الاسد عن فلسطين والاردن ، وجميل صليبا عن الشام ، وصلاح لبكى عن لبنان ، واخيرا عبد الله كنون عن المغرب العربى .

وهذه الكتب وضعت على وفق منهج مرسوم للتعريف بالامة العربية فى جميع اقطارها . وهى اشبه بمدخل لاغنى عنه للوصول الى حديقة الأدب الواسعة . ومتى تمت هذه السلسلة الذهبية — وهى تامة باذن الله — فسيكون بأيدى القراء تاريخ واف للامة العربية وادبها المعاصر ، يبنى عليه تاريخ موحد ينتظم الوجدان العربى فى جميع البلدان العربية .

وكتاب الاستاذ عبد الله كنون اسمه « أحاديث عن الأدب المغربى الحديث » وهو محاضراته التى ألقاها على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية فى معهد الدراسات العربية العالية لجامعة الدول العربية ، اسوة بسائر الكتب التى ذكرت سابقا .

ويكشف الكتاب عن حقائق كنا ندركها بقلوبنا ومشاعرنا ، دون الاسانيد والنصوص حتى جاء المؤلف فاردف كل ظاهرة ادبية ، وحقيقة تاريخية بما يجلوها عن بيان مشرق وسند قوى .

وأولى الحقائق الجديرة بالذكر ان الصلة الثقافية بين مصر والمغرب العربى لم تنتطع حتى فى الفترات المظلمة من التاريخ الحديث وان نفرا من المغاربة نهل من علم الكنانة وادبها ، وعاد الى بلده ينشر الوعى ، وقد ذكر المؤلف اثنين من امهر المتخرجين فى المعاهد المصرية ايام السلطان محمد الرابع — فى القرن التاسع عشر — هما الطبيب عبد السلام العلمى ، والجغرافى احمد شهبون ، « وكلاهما ممن أسهم فى الحياة العلمية بالتعليم والتأليف ويعدان من الطلائع الاولى للنهضة الحديثة ، لان تعليمهما كان بالعربية » ص 17 .

وذكر المؤلف ان الطباعة دخلت المغرب العربى لاول مرة عن طريق مصر « فان السيد الطيب الرودانى قاضى تارودانت رآها فاعجبته وكان ذهب الى الحج ، فاقتنى آلتها وتعاقد مع فنى مصرى للعمل فيها ، فصحبه الى المغرب ، ولما راى ان الدولة احق بها اهداهما الى السلطان محمد الرابع فقبلها منه واكرمه بان ولاه عليها ، وشرع فى طبع الكتب المهمة وخاصة الكتب الدراسية مما يستعمل فى القرويين وفروعها . . وانتشر فن الطباعة بعد ذلك وصار من عمل الافراد ، وكثرت المطبوعات

المغربية المعروفة بالفاسية ، لان المطابع التي تصدرها كان مقرها في فاس .. » ص 14

وذكر المؤلف أن اثار النهضة الشرقية من علمية وأدبية وفنية كانت تصل الى المغرب العربي بوساطة الكتب والمجلات والصحف فتتلقفها الأيدي بتلهف عظيم . ومنها آثار الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا وأستاذهما جمال الدين الافغاني في العلم والاصلاح والمنافحة عن الاسلام ، وآثار الكاتب مصطفى لطفي المنفلوطي ومحمد فريد وجدي وأثار الشعراء شوقي وحافظ والزهاوي والرصافي وغيرهم من أعلام الفكر والسياسة كمصطفى كامل وسعد زغلول . « انها كانت مدرسة تخرج فيها الجيل الاول من رجال العلم والادب والوطنية الصحيحة ، الذين بثوا افكارهم في النشء الجديد ومهدوا السبيل للنهضة المغربية العتيدة ، فكانوا صلة الوصل بين الماضي الغابر والحاضر الزاهر . وعن طريق هذه المدرسة عرف المغرب اتجاهات الفكر الحديث في الفلسفة والادب واطلع على تاريخ الحضارة وتقدم العلوم في اوربا . فانها كانت تخاطبه بلغته ، وفي الوقت نفسه تقدم اليه احسن آثار المفكرين والادباء الغربيين مترجمة الى العربية فيطلع منها على ما لم يتح الاطلاع عليه لانصاف المثقفين باللغة الفرنسية الذين كان الاستعمار يحرص على ان يجعل منهم موظفين صغارا وحسب » ص 34

ورد المؤلف كذلك نشأة التمثيل في المغرب الى الفرق التمثيلية التي كانت تفد اليه من مصر وتونس ، ص 122 .

وهكذا ظلت التيارات الفكرية والادبية تجوب البلدان العربية ذهابا وايابا فوق الحدود والسدود ، والظالم غافل عنها

والحقيقة الثانية : التي يبرزها المؤلف هي تشابه العوامل والأسباب التي ادت الى قيام النهضة الحديثة ، فقد كانت نفوس الأدباء تخضع لمؤثرات متشابهة لأن وجدان الامة العربية الذي صنعه التاريخ الطويل وتشرب المثل العربية العليا اصبح ينفعل للمؤثرات حيثما وجدت ، فالظلم والبغي والعدوان منفرة حيثما كانت والحجر على الحرية واضطهاد العقيدة والدس بين طبقات الامة تثير الحفيظة في كل زمان . ولذا لا يكون تشابه

الظواهر الأدبية دليلا على التقليد بل هو دليل على وجود حساسية متشابهة فى أعماق النفس العربية « ومن الخطأ ان نميز عمل اى بلد عربى فى هذا الصدد ، سواء اكان سابقا أم لاحقا ، لأن طابع العروبة لا يوجبه الا حيث تلتقى جهود العرب كافة . . ولم يتحقق للنظرية الاقليمية فى الادب العربى مدلول خارجى برغم ما قيل فى توجيهها وللتنويه بآثارها . **والذى يتحقق يوميا هو أن الأدب العربى يتلاقى على صعيد الفكرة الجامعة والاتجاه الموحد ، وأن انصار الاقليمية ينهزمون دائما فى ميدان الأدب والسياسة على السواء** ، لان امر العرب الى وحدة وكلمتهم الى جمع والفوارق الطفيفة التى توجد بين مجتمعاتهم المحلية لاتبلغ من القوة ما يجعلها تغير وجه الادب فى اى قطر عربى عما هو عليه فى قطر آخر شقيق ، كما ان الحدود المصطنعة التى فرضت على بلاد العرب لم تستطع أن تحول بين الشعوب العربية والاتجاه نحو الوحدة السياسية الكاملة . ان الأدب العربى وحدة لا تتجزا ، وان ما يجد فيه من مذاهب واتجاهات هى فى نظرنا وليدة تفاعل افكار الادباء العرب والتيارات الفكرية الحديثة التى طرات على الادب العربى . . وليس شىء منها متولدا عن طبيعة الاقليم والسكان وخصائص الجنس والوراثة كما يحلو لبعضهم ان يعلل ذلك » ص 84

والحقيقة الثالثة : التى يكشفها الكتاب هى أن المغرب العربى ، مع ما تعرض له من « فرنسة » مدة تزيد على ربع قرن ، عرف جميع الانواع الأدبية التى عرفها المشرق العربى من مقال ادبى ، وقصة واقصوصة ومسرحية وشعر « وبتصفح هذه الآثار نجد ان الحصاد الأدبى لهذا الجيل اصبح من الغنى والتنوع بحيث يمكن القول انه استتم العناصر الاولية للأدب الحى ، وانه شق الطريق للحاق بقافلة البعث الادبى فى العالم العربى . **ففى النثر زيادة على نمو المقالة السياسية والاجتماعية والأدبية ظهرت البحوث المنوعة فى الفلسفة والفن والنقد** وبلغت الخطابة السياسية اوج الكمال . وبدات المحاولات الناجحة فى كتابة الرواية التمثيلية والاقصوصة والقصة وذلك فضلا عن نشاط حركة التاليف فى الموضوعات السياسية والتاريخية والعلمية . **وفى الشعر استعمل النظم فى موضوع الوطنية** تبعا لاستعمال حركتها ، فكاد الشعر كله يكون ثورة على الاستعمار ودعوة الى مقاومة النفوذ الأجنبى وتذكيره بمجده وتاريخه العظيمين ، وتحول

الظواهر الأدبية دليلا على التقليد بل هو دليل على وجود حساسية متشابهة فى أعماق النفس العربية « ومن الخطأ ان نميز عمل اى بلد عربى فى هذا الصدد ، سواء اكان سابقا ام لاحقا ، لأن طابع العروبة لا يوجبه الا حيث تلتقى جهود العرب كافة .. ولم يتحقق للنظرية الاقليمية فى الادب العربى مدلول خارجى برغم ما قيل فى توجيهها وللتنويه بآثارها . **والذى يتحقق يوميا هو أن الأدب العربى يتلاقى على صعيد الفكرة الجامعة والاتجاه الموحد ، وأن انصار الاقليمية ينهزمون دائما فى ميدان الأدب والسياسة على السواء** ، لان امر العرب الى وحدة وكلمتهم الى جمع والفوارق الطفيفة التى توجد بين مجتمعاتهم المحلية لاتبلغ من القوة ما يجعلها تغير وجه الادب فى اى قطر عربى عما هو عليه فى قطر آخر شقيق ، كما أن الحدود المصطنعة التى فرضت على بلاد العرب لم تستطع أن تحول بين الشعوب العربية والاتجاه نحو الوحدة السياسية الكاملة . ان الأدب العربى وحدة لا تتجزأ ، وان ما يجد فيه من مذاهب واتجاهات هى فى نظرنا وليدة تفاعل افكار الأدباء العرب والتيارات الفكرية الحديثة التى طرات على الادب العربى .. وليس شىء منها متولدا عن طبيعة الاقليم والسكان وخصائص الجنس والوراثة كما يحلو لبعضهم ان يعلل ذلك » ص 84

والحقيقة الثالثة : التى يكشفها الكتاب هى أن المغرب العربى ، مع ما تعرض له من « فرنسة » مدة تزيد على ربع قرن ، عرف جميع الانواع الأدبية التى عرفها المشرق العربى من مقال أدبى ، وقصة واقصوصة ومسرحية وشعر « وبتصفح هذه الآثار نجد ان الحصاد الادبى لهذا الجيل اصبح من الفنى والتنوع بحيث يمكن القول انه استتم العناصر الأولية للأدب الحى ، وانه شق الطريق للحاق بقافلة البعث الادبى فى العالم العربى . **ففى النثر زيادة على نمو المقالة السياسية والاجتماعية والأدبية ظهرت البحوث المنوعة فى الفلسفة والفن والنقد** وبلغت الخطابة السياسية اوج الكمال . وبدات المحاولات الناجحة فى كتابة الرواية التمثيلية والأقصوصة والقصة وذلك فضلا عن نشاط حركة التاليف فى الموضوعات السياسية والتاريخية والعلمية . **وفى الشعر استعمل النظم فى موضوع الوطنية** تبعا لاستعمال حركتها ، فكاد الشعر كله يكون ثورة على الاستعمار ودعوة الى مقاومة النفوذ الأجنبى وتذكيره بمجده وتاريخه العظيمين ، وتحول

الشعر العاطفى من تفاهة العبارات الجوفاء الى تجارب ذاتية وانسانيه صادقة ، وجال الشعراء فى ميدان الطبيعة ، وحلقوا فى مجال الفكر ، وظهر الشعر التمثيلى فى مسرحيات صغيرة تعتبر نواة لهذا اللون الجديد من الشعر العربى ، الى غير ذلك من مظاهر التفنن والابداع التـــى اكسبت الادب المغربى ، منثورة ومنظومة بسطة فى الشكل والمضمون لم يعرفهما مـــن قبل » ص 83

والحقيقة الرابعة : التى تبين بوضوح ان المغاربة لم يقلوا عن المشارقة متانة اسلوب وعذوبة لفظ وسموا فى الخيال ورقة فى العاطفة . وقد ابدعوا فى النثر ابداعهم فى الشعر . واكسبت حرارة العاطفة الوطنية شعرهـم توهجا . « والادب العربى ان كان قد سجل فى تاريخه الحفيل صرخـات شوقى وحافظ وبطران والرصافى والزهاوى وشكيب ارسلان واضرابهم من رواد الشعر الوطنى فى القطاع الشرقى للوطن العربى فقد بقى عليـه ان يسجل الصرخات المماثلة التى اطلقها زملاؤهم فى القطاع الغربـى » ص 148

ويقول البحث بالاستشهاد من الشعر العربى الجميل ، وحسبنا ان نحيل القارىء الى الكتاب ليمتع نفسه بنماذج من الادب العربى الحى النابع من الاعماق ، وليستمع الى صوت اخيه فى المغرب يشدو شدو الورق وبعصف عصف الاعاصير

ان صوت الامة العربية فى مشرقها ومغربها فى عهود الحماية والاستعمار ينبع من نفس واحدة ويعبر عن آمال وآلام متشابهة ، ومتى توحد الوجدان توحد المضمون ، ومتى توحد الاثنان جاءت الكلمة الواحدة تتردد تردد الصدى فى اعماق الوادى .

وطالما كرر القائد المظفر معيد شباب الامة العربية وناصرها ان وحدة الكلمة ترمى الى وحدة الوجدان وان وحدة الوجدان من صنع التاريخ الطويل الذى طبع العقل والوجدان بسمات لن تزول . وقد جاء كتاب الاستاذ كنون مصداقا لهذا القول بكامل ما فيه من قوة .

لقد تردد المؤلف كثيرا فى القاء محاضراته التى تكون منها هـــذا الكتاب . ولو كان يعرف اى كسب حصل عليه اخوانه المشارقة وايـــة خدمة اسداها الى الأمة العربية والتاريخ العربى لما تردد . انه نفحات زكية هبت من المغرب الى المشرق لتزيده قوة فى كفاحه وايمانا برسالته ، وثقة بالأخوة العربية ووحدة الضمائر والعقول .

وتحية مباركة الى عبد الله كنون الذى وضع لبنة جديدة فى تاريخ الامة الأدبى الى جانب ما وضعه زملاؤه ابن عاشور وناصر الاســد وعبد الجبار ولبكى وغيرهم (1)

(1) نشر هذا المقال فى العدد الممتاز من مجلة منبر الاسلام القاهرية الصادر بتاريخ ربيع الاول 1384 = 10 يوليو 1964

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان اول من فاتحنى فى امر هذه الاحاديث هو الاستاذ الدكتور اسحاق موسى الحسينى عند تعرفى به فى مؤتمر ادباء العرب الذى عقد بالقاهرة فى نهاية سنة 1957 . وهو من الرجال العاملين بمعهد الدراسات العربية العالية كما لا احتاج ان اقول . وقد اعتذرت اذ ذاك لسيادته بانى لا اعنى بالادب الحديث واحلته على غيرى . ثم بعد ذلك بنحو سنتين تلقيت رسالة من العلامة المؤرخ محمد شفيق غربال ، وهو مدير المعهد ، يدعونى فيها الى القاء محاضرات عن ادب المغرب العربى على طلبة قسم الدراسات الادبية واللغوية ، ويرغبنى فى ذلك بما كبر على ان ارفض الدعوة . فكتبت اليه استفهمه عن بعض النقط ، وقلت له ، وانا احاول التملص من هذه المهمة : ان الامر اذا كان يتعلق بالمغرب العربى كله فليس فى استطاعتى القيام به . وتوفى رحمه الله ولم اتلق منه جوابا .

ولما سافرت الى القاهرة لحضور المؤتمر الثامن والعشرين لمجمع اللغة العربية ، فى مارس سنة 1962 وجدتهم ينتظروننى فى المعهد لالقاء هذه المحاضرات . واستغربت الامر لانى لم ارتبط معهم بموعد ، بل لم اعرف ما يقصدون بالذات من ادب المغرب العربى ، ولقد استفسرت عن ذلك ولم احصل على جواب . ولكنهم اطلعونى على الملف الذى يحتوى على جواب من العميد الدكتور طه حسين الذى تولى ادارة المعهد بعد وفاة الاستاذ غربال ، وفيه بيان ان المقصود هو المغرب الاقصى ، وهذا الجواب ارسل

بطريق رسمية فلذلك لم يصل . وعلى كل حال فقد وجدت انه لم يعين الادب الحديث مع انه المراد . فقلت انه حتى لو كان الجواب وصل لبقيت فى حيرة من امرى لانه لم يوضح جميع النقط التى استفهمت عنها .

وتواعدنا على العام المقبل : انهم لم يجدوا فى الملف جوابا منى بالقبول، فسلموا . وانا خجلت من كثرة التملص فقبلت على ما فى الامر من صعوبة وما يقتضينى من مجهود .

لقد بينت للصديق الدكتور عبد الرحمن البزاز وهو المدير الجديد للمعهد بعد تخلى الدكتور طه حسين عنه . ان الادب المغربى الحديث غير مدون ، وغير مدروس . فالذى يريد ان يتحدث عنه ، عليه ان يقوم بعمليتين اثنتين : عملية التدوين اولا وهى جد شاقة ، لان عليه ان يكاتب الادباء ويسافر الى لقائهم ويتصفح آلاف الجرائد والمجلات التى نشرت شيئا من هذا الادب فى فترة تزيد على نصف قرن ، وعملية الدرس ثانيا ، وهى لا تقل عن الاولى مشقة مع ما فيها من المسؤولية المعنوية التى تعرض متحملها لكثير من القيل والقال . وانه ليس كالادب فى اى قطر آخر من الاقطار العربية الذى نشرت فيه عشرات المجموعات والمنتخبات فضلا عن الدواوين الشعرية والقصص التى تعد بالمئات ، واخرجت فيه دراسات وبحوث نقدية كثيرة باقلام مختلف الكتاب ، فاصبح مناله سهلا بخلاف ادبنا الذى ما زال خاما لم يخدم من ناحية الجمع ولا من ناحية التقييم . ثم قلت له ان اهتمامى بالادب المغربى كان دائما منصبا على القديم منه ، وقد وفقت بفضل الله الى وضع كتاب فيه يقف الى جنب كتب تاريخ الادب العربى للزيات والاسكندرى وغيرهما التى لم يجىء فيها سطر واحد عنه . . وانى اعمل على تعزيزه بكتاب فى تراجم المغاربة الذين يمنون كالادب المغربى بتجاهل كبير . لذلك لا اريد ان اصرف وجهتى عما انتطعت اليه لئلا ينخرم هذا العمل الذى أعده من قبيل الاحياء للتراث العربى فى بلاد المغرب .

وكان جوابه وجواب الاصدقاء الذين سمعوا منى هذا الكلام هو الالحاح على وجوب الاعتناء بالادب الحديث ايضا ، والا وقع له من الاهمال ما وقع للادب القديم .

والآن ، وقد قبلت القيام بالمهمة ، ولم يسعنى الا النزول عند رغبة هؤلاء الافاضل ، ها هى ذى الاحاديث او المحاضرات المطلوبة عن الادب المغربى الحديث ، لم آل فيها جهدا ان اوضح العوامل التى اثرت فى تكوين هـــذا الادب والاتجاهات الجديدة التى اتخذها . ولم احد قيد شعرة عن نهج الانصاف فيما حكمت او علقت فلا تبجح ولا دعوى يكذبها الواقع : ولا بخس ولا اجحاف بحق من الحقوق . وقد آثرت ان ادرس الادب — او اقدمه على الاصح — فى آثار اعلامه ، بدلا من ان ادرس الادباء فى آثارهم ، ولذلك فأنا لم اذكر من الاسماء الا ما اقتضاه الموضوع او تطلبه الشاهد . ولو ذهبت اقدم الادباء بشخصياتهم لما وفيت بواحد منهم ، ولطال الامر جدا من غير ان يمكننى الالمام الا بعدد محدود منهم . فهذه الطريقة التى جعلتنى اتصرف بحسب الموضوعات المدروسة لا بحسب الاسماء المقدمة ، لم تدع لى اختيارا فى الادباء الذين اذكرهم ، وامدتنى فى الوقت نفسه بأكبر عدد من الاسماء ما كان لى ان استوعبها لو تبعت الطريقة الاخرى .

ولا اخفى اننى من اول وهلة اعتزمت ان لا اتصل بأحَد لا بالكتابة ولا بالشخص ، تخففا من المتاعب وتجنبا لضياع الوقت الذى غالبا ما يكون بغير طائل ، وان اكتفى بما عندى من مواد ومراجع اكثرها من الجرائد والمجلات التى صدرت فى المغرب منذ بداية هذا القرن . وفعلا فقد نفضت ما لا يقل عن عشر آلاف صحيفة وانتقيت منها ما يلزمنى لهذا العمل ثم صنفته كما يجب ، وراعيت الاكثار من النصوص والنماذج لانى رايت بعضها اذا طالت المدة سوف يدخل فى خبر كان . ولانى ايضا اردت ان اقول بالحجة واحكم بالـــدليـــل .

وفى خصوص النشاط الفكرى والكلام على حركة التاليف والبحث لم اشر الا الى ما صدر بالطبع ، ونشر اما استقلالا على شكل كتب ونشرات واما بشكل مقالات وابحاث متتابعة فى الصحف الدورية ، لانى وان كنت اعرف لبعض الكتاب والمؤلفين موضوعات وبحوثا شتى فان مالا اعرفه من ذلك اكثر ، ولا معنى لتخصيص البعض بالذكر دون البعض . على ان هناك كثيرا من الاعمال انما هـــى اسمـــاء بـــدون مسميـــات ، ومشروعـــات ما زالت لم تدخل لحيز التنفيذ ، فلم اشأ ان اتورط فى الحديث عن الغيب ،

واخترت الاقتصار على ما هو موجود ومشاهد وواقع بين يدى كل واحد من غير ان يحتاج الى من يوقفه عليه . وهذا الموجود نفسه لا ادعى انـى استوفيته . فقد يكون فاتنى منه شىء وان يكن فى ظنى شيئا قليلا . وواضح ان ما كان من قبيل الكتب المدرسية والفقهية والحديثية الخاصة بتحقيق بعض المسائل الجزئية ، لم يكن من مشمول ما ذكرته فى الحديث عن هذا النشاط فانه شىء كثير ، وهو بطبيعته بعيد عن مجال هذه الاحاديث .

واملى ان اكون وضعت مخطط هذا البحث ، ولم يعدنى التوفيق فى بناء هيكله على الاقل . فعلى الباحثين الذين هم اكثر اطلاعا واوسع ثقافة ان يعملوا على سد هذه الثغرة ويؤدوا للحركة الادبية فى المغرب الخدمة التى تستحقها فى مجال التعريف والتاريخ . وكل يعمل على شاكلته ، وما على من بذل جهده من ملام .

والشكر لمعهد الدراسات العربية العالية على ما اتاح لى من هذه الفرصة الثمينة التى لولاها لما كانت هذه الاحاديث ، والدال على الخير كفاعله .

عبد الله كنـون

على عتبة العصر الحديث

بقى المغرب خلال النصف الثانى من القرن الماضى واوائل القرن الحالى . يتمثل الثقافة القديمة بعيدا عن كل تيار فكرى جديد . فى حين ان غيره من البلاد العربية ولا سيما الشرقية كمصر والشام والعراق كانت تشهد قيام حركة علمية وادبية نشيطة ، قدح زندها اولا محمد على فى مصر وثانيا البعثات العلمية الاجنبية التى امت هذه البلاد ، واسست فيهـا مدارس عصرية من مختلف المستويات .

فاذا كان تاريخ نهضة الادب العربى فى الشرق يبدا من منتصف القرن التاسع عشر فانه فى المغرب قد تاخر الى ما قبل نشوب الحرب العالمية الاولى بقليـل .

ذلك ان المغرب كان فى عزلة تامة ، فى تلك الفترة ، عن الشرق والغرب. اما الشرق فمعلوم ان تبعيته للدولة العثمانية ، ولو بصفة اسمية كما كانت عليه الحال فى مصر اخيرا ، جعلت منه وحدة اقليمية متماسكة الاجزاء يتاثر بعضها ببعض . وتتلاقى فيها الحوادث بما يكون لها من صدى فى جميـع الاوسـاط .

والمغرب حتى لما كانت السيادة العثمانية تمد رواقها علـى تونس والجزائر ، كان خارجا عن هذه الوحدة له كيانه الخاص ، ودولته المستقلة ، فبينه وبين ما يجد فيها من احوال حجاب كثيف . وزاد هذا الحجاب كثافة بعد سقوط الجزائر فى قبضة فرنسا سنة 1830 ثم تونس سنة 1881 فاصبح المغرب فى غيبة عما يجرى فى العالم من تطورات ، برغم ما يربطه بـه مـن روابط متينـة .

واما الغرب فان سياسته الاستعمارية التى كشف عنها النقاب فى الجزائر وفى اقطار اخرى ، جعلت المغرب يقدم الحذر فى علاقاته به ويبتعد عن طريق اللقاء معه ما امكن ، ولم تكن هذه خطة عملية ، فانها انما منعت الاستفادة من علومه ومعارفه ، ولم تقف فى وجه مطامعه وشروره . وقد كان المفروض ان البلاد التى تتاخم أوربا شمالا وتعد الحد الشرقى لاميركا لا بد ان تجارى هذه فى النهوض ، وتقتبس من تلك ما تلقح به تراثها الفكرى والحضارى ، بل ان تكون سباقة فى ذلك فلا تتقدمها البلاد البعيدة عن مراكز التمدن هذه كاليابان مثلا ، ولكن مبدأ الحيطة الذى درج عليه المغرب فى اتصاله بالغرب واسرف فيه ، هو الذى اضر به وضرب عليه هذه الانطوائية فى التفكير والعمل .

وهكذا نجد المغرب فى هذا التاريخ منعزلا عن العالم القديم والجديد ، عن اصدقائه فى الشرق وجيرانه فى الغرب ، ولو انه بقى فى عزلته من غير ان تبدأ الدسائس الاستعمارية تنصب حبالها للايقاع به ، لكان دبر امره فى الاتصال باخوانه العرب والمسلمين ، لتبادل الرأى ووضع خطة العمل للنهوض واللحاق بركب الحضارة ، او لكان نظم علاقاته بجيرانه الغربيين على اساس الاخذ والعطاء والمصلحة العامة . فلم يكن الشعب المغربى ولا حكومته فى يوم ما ، على غير رغبة فى العمل باخلاص مع العاملين لرفع مستوى الحياة الانسانية . وحمل مشعل المعرفة ، ولكن تدخل الاستعمار الغربى فى شؤونه الخاصة وتحرشه به فى غير ما موقف ، لم يفتحا امامه سبيل المفاهمة مع هذا الغرب الماكر ، ولا اتاحا له فرصة التعاون مع الشرق الناهض على ما فيه خير الجميع .

فقد كان هبوب المغرب لنجدة شقيقته الجزائر فى محنتها القاسية ، سببا فى اغارة جنود الاستعمار الفرنسى على حدوده الشرقية واشتباكها مع القوات المغربية فى معركة ايسلى سنة 1260 هـ الموافقة لسنة 1844 م وهى المعركة التى دشنت بها فرنسا سياستها العدوانية ضد المغرب . وكانت ايذانا بفتح باب التنافس الدولى على مصراعيه للحظوة بهذه البلاد الطيبة .

وما لبثت اسبانيا ان اشهرت الحرب على المغرب سنة 1276 هـ — 1860 م متذرعة بحادث نزاع على حدود سبتة ، وبادرت فاحتلت مدينة تطوان ، فلم تخرج منها برغم ايقاف القتال الا بعد سنتين وثلاثة اشهر ، وكانت هذه الحرب اسوا اثرا مما قبلها فى تعزيز النفوذ الاستعمارى فى البلاد وارهاق الخزينة الوطنية بالديون الاجنبية .

وتلاحقت الحوادث بين مؤتمرات دولية لتحديد الامتيازات الاجنبية ، واتفاقيات سرية لاطلاق يد فرنسا فى المغرب الى اقتطــاع بعض المناطــق الصحراوية من جسم البلاد ، واحتلال بعض المدن الكبرى بالقوة حتى ارغم رئيس الدولة على توقيع عقد الحماية فى 30 مارس سنة 1912 .

ان شريط الحوادث التى الجات المغرب الى هذا المصير المفجع اطول من هذا بكثير ، ولكن يكفى من القلادة ما احاط بالعنق كما يقول المثل ، ولعل حق القلادة هنا ان تكون ربقة لينسجم المثل مع الموضوع . فهى ربقة منعته من التصرف فى شؤونه كما يريد ، حجرت عليه ان يحيا حرا وان كان بلاد احرار ، لان الذى وضعها فى عنقه اراد ان يستاثر بخيراته دونه ، اراد ان يستعبده*، وهو الذى لم يعرف العبودية قط لم يخضع لروما فى جاهليته وبربريته فكيف يخضع لربيبتها فرنسا فى اسلامه وعروبته ؟ ولما لم تجده وسائل القوة والعنف ، عاد الى الخداع والملاينة فزعم انه يحمل اليه رسالته المدنية ، وانه سيلقنه علوم الحياة باجمعها ، ولم يكن ما حمله اليه الا عهرا وفسادا ، وما لقنه الا تجديفا والحادا ، اتراها بقية حرب صليبية ؟ انها كذلك كان آباؤنا فى هذا العهد يرونها ، ولقد صدق ظنهم الظهير البربرى المعروف الذى اصدرته بنت الكنيسة البكر ، اعنى فرنسا (اللايبكية) سنة 1930 وسنتكلم عليه فى حينــه .

لكن هل استكان المغرب لهذه المؤامرات الاستعمارية ؟ وهل انهزم امام قوى الشر التى تكالبت عليه من كل جهة ؟

كلا ، انه قاوم جهد المقاومة ، وعمل ما فى استطاعته ، وهو معزول عن كل صديق وحليف ، ليتفادى الوقوع فى الفخاخ التى كانت تعد له قصد اصطياده ، وصارت المكائد والشدائد بمثابة موقظ لشعوره وحافز لهمته ،

وما لبثت اسبانيا ان اشهرت الحرب على المغرب سنة 1276 هـ — 1860 م متذرعة بحادث نزاع على حدود سبتة ، وبادرت فاحتلت مدينة تطوان ، فلم تخرج منها برغم ايقاف القتال الا بعد سنتين وثلاثة اشهر ، وكانت هذه الحرب اسوا اثرا مما قبلها فى تعزيز النفوذ الاستعمارى فى البلاد وارهاق الخزينة الوطنية بالديون الاجنبية .

وتلاحقت الحوادث بين مؤتمرات دولية لتحديد الامتيازات الاجنبية ، واتفاقيات سرية لاطلاق يد فرنسا فى المغرب الى اقتطـاع بعض المناطـق الصحراوية من جسم البلاد ، واحتلال بعض المدن الكبرى بالقوة حتى ارغم رئيس الدولة على توقيع عقد الحماية فى 30 مارس سنة 1912 .

ان شريط الحوادث التى الجات المغرب الى هذا المصير المفجع اطول من هذا بكثير ، ولكن يكفى من القلادة ما احاط بالعنق كما يقول المثل ، ولعل حق القلادة هنا ان تكون ربقة لينسجم المثل مع الموضوع . فهى ربقة منعته من التصرف فى شؤونه كما يريد ، حجرت عليه ان يحيا حرا وان كان بلاد احرار ، لان الذى وضعها فى عنقه اراد ان يستاثر بخيراته دونه ، اراد ان يستعبده ، وهو الذى لم يعرف العبودية قط لم يخضع لروما فى جاهليته وبربريته فكيف يخضع لربيبتها فرنسا فى اسلامه وعروبته ؟ ولما لم تجده وسائل القوة والعنف ، عاد الى الخداع والملاينة فزعم انه يحمل اليه رسالته المدنية ، وانه سيلقنه علوم الحياة باجمعها ، ولم يكن ما حمله اليه الا عهرا وفسادا ، وما لقنه الا تجديفا والحادا ، اتراها بقية حرب صليبية ؟ انها كذلك كان آباؤنا فى هذا العهد يرونها ، ولقد صدق ظنهم الظهير البربرى المعروف الذى اصدرته بنت الكنيسة البكر ، اعنى فرنسا (اللاييكية) سنة 1930 وسنتكلم عليه فى حينــه .

لكن هل استكان المغرب لهذه المؤامرات الاستعمارية ؟ وهل انهزم امام قوى الشر التى تكالبت عليه من كل جهة ؟

كلا ، انه قاوم جهد المقاومة ، وعمل ما فى استطاعته ، وهو معزول عن كل صديق وحليف ، ليتفادى الوقوع فى الفخاخ التى كانت تعد له قصد اصطياده ، وصارت المكائد والشدائد بمثابة موقظ لشعوره وحافز لهمته ،

فكلما قويت كان رد الفعل عنده اقوى ولا نتكلم عن أعماله فى الميدان السياسى والحربى فانها من اختصاص التاريخ العام ولكن لا بد من الاشارة الى اعماله فى الميدان الاجتماعى كالتعليم والادارة والتجهيز الحضارى الحديث مما له تاثير على الحياة العسكرية والنهضة الادبية المؤرخة .

ففى التعليم كان مما اسفر عنه الاحتكاك المتواصل بالغربيين سواء فى المداولات السياسية او المعاملات التجارية انه لا بد من الاقتباس والنقل عن القوم ، اذ تبين تفوقهم فى العلوم الكونية والفنون والصنائع وذلك كما فعل اجدادنا فى نقل علوم اليونان والاقتباس من حضارة الفرس والهند وكما فعل الغربيون انفسهم فى الاقتباس والنقل عنا اول عصر الانبعاث فى اوربا .

وكان اول ما توجهت اليه عناية الدولة الفنون العسكرية والطب والهندسة واللغات ، واختير لذلك من اول وهلة ، نظام البعوث ، فكان الشبان يكونون تكوينا سريعا يتلقون فيه على الخصوص دروسا فى مبادىء العلوم الرياضية والتاريخ ولغة البلد الذى سيتوجهون اليه ، باستثناء من كانوا يوجهون الى الشرق ، فقد كانت هناك بعض البعوث وجهت الى مصر اول الامر ، ايام السلطان محمد الرابع وفى مدة الخديوى سعيد باشا وولده اسماعيل ومن اشهر المتخرجين فى هذا العهد من مصر الطبيب عبد السلام العلمى والجغرافى احمد شهبون وكلاهما ممن اسهم فى الحياة العلمية بالتعليم والتأليف ، ويعدان من الطلائع الاولى للنهضة الحديثة ، لان تعليمهما كان بالعربية .

اما البعوث الاخرى فقد وجهت الى اوربا ، وكانت البلاد التى اختيرت لها هى انكلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا وبلجيكا واسبانيا ، فضلا عن جبل طارق الذى كان المبعوثون اليه يتلقون فيه تدريبات عسكرية بالخصوص وتكررت هذه البعوث فكان كلما قفلت جماعة خلفتها جماعة اخرى . واتصلت ايام السلطان مولاى الحسن وولده مولاى عبد العزيز (1) ولم يمنع من

(1) يقتصر المؤرخون على ذكر البعوث التى توجهت فى ايام السلطان مولاى الحسن كانها توقفت بعده لكننا نعلم ان افرادا آخرين توجهوا فى ايام ولده مولاى عبد العزيز ولا سيما من طنجة .

استمرارها الا ما نشب بعد ذلك من الفتن الداخلية والاصطدام بقوة الاحتلال الفرنسى وبلغ عدد افرادها فى الجملة بضع مآت انتفع بهم فى الادارة والجيش والديبلوماسية ، وكان من بينهم من ارتقى الى اعلى منصب فى الدولة كالوزير الصدر محمد الجباص .

واذا كان مما يلاحظ ان هذه البعوث لم تقم بنشاط مهم فى ميدان التعليم بعد رجوعها وان الانتفاع بها كان قاصرا على الميادين التى ذكرنا ، فان ذلك لسببين مانعين : احدهما ان التعليم الذى كان يتلقاه غالب افرادها لم يكن تعليما كاملا وانما كان تدريبا او تكوينا عاما ، واكثره مما يتعلق بالفنون العسكرية . وثانيهما انه لم يقع التفكير على ما يظهر فى فتح مدارس لهؤلاء المتعلمين ليعلموا فيها ما حصلوا عليه من المعارف الجديدة لغيرهم من المواطنين حتى تعم الفائدة بذلك وينتشر العلم على اوسع نطاق كما كان يقع فى مصر وفى غيرها من البلاد الناهضة كاليابان التى يقال ان حركة ارسال البعوث العلمية الى اوربا فيها كانت مقارنة لحركة المغرب ، ولكنها جنت ثمار هذه الحركة فى اقرب مدة ، وبقى المغرب محروما من نتائج حركته لهذا السبب .

ولا ننسى الظروف العصيبة التى كان المغرب يمر بها ، فانها لم تدع له مجالا للعمل بحرية فى هذا الصدد ، ولم تزل به حتى شلت حركته فأوقف هذه البعوث فى النهاية .

وفى الادارة اهتم كل من السلطان محمد الرابع ومولاى الحسن بتنظيم الحكومة وتحديد اختصاصات الوزراء فأحدثت وزارة الخارجية والمالية والحربية والعدل ، وبقى الوزير الصدر يترأس الحكومة ويلى وزارة الداخلية وكان من هم وزارة الخارجية ان تنظم علاقات المغرب بغيره من الدول ، وتوجه التنافس الدولى القائم حول المغرب لصالح البلاد والحد من الامتيازات الاجنبية . اما وزارة المالية فقد كان اهتمامها منصبا على تنمية موارد الدولة التى كانت تنحصر فى الاعشار ومعاليم الجمرك ، لان الشعب كان يمتنع من اداء اية ضريبة ، ولاقى المغرب فى هذا العهد صعوبات جمة فى تنظيم ماليته وموازنة الدخل مع الخرج تجنبا لعقد اى سلف خارجى وان

لم يجد بدا من ذلك فى الاخير ، حيث انشىء مصرف للدولة فواجه الازمة بما يقتضيه الحال ، واهتمت وزارة الحربية بتنظيم الجيش وامداده بالمعدات الحربية ، فزيادة على التدريب العسكرى الذى كان يتلقاه افواج المتعلمين فى الخارج استقدمت الوزارة بعض الضباط الاجانب للمعاونة فى هذا التنظيم، ولم تكتف بما تقتنيه من السلاح والعتاد الحربى من الخارج ، بل انشأت معملا حديثا لتزويد الجيش بما يلزمه من ذلك فى كل الظروف وعملت على تكوين قوة بحرية جديدة تعيد بها ماضى القوة البحرية المغربيــه التــى اضمحلت بسبب الاهمال ، فأوصت على صنع بعض المراكب الحربية فى معامل اوربا ، واشترت غيرها مما كون لديها نواة لاسطول مغربى حديث .

وكذلك كانت الاصلاحات الجوهرية تتناول جهاز الدولة شيئا فشيئا فتحوله من جهاز قديم فقد فعاليته بتأثير الحوادث ، الى جهاز جديد اكثر ما يكون انسجاما مع تطورات العصر . وكانت مظاهر الحضارة الحديثة تستهوى افئدة الناس وتغزو المجتمع المغربى بكل الوسائل فيصطنع الكبراء والمترفون منها كل ما له لمعان وبريق ، ويغفلون عما له تأثير فى تطوير الحالة المادية والمعنوية للشعب ، على ان بادرتين عظيمتى الاثر فى البعث الادبى والاصلاح السياسى كانتا من اهم ما انبثقت عنه حركة التجديد والمقاومة فى هذا العهد ، وهما الطباعة والدستور .

فالطباعة دخلت للمغرب فى اول هذا العهد ، وقصة دخولها شيقة ، فان السيد الطيب الرودانى قاضى تارودانت رآها بمصر فأعجبته ، وكان ذهب الى الحج ، فاقتنى آلتها وتعاقد مع فنى مصرى للعمل فيها ، فصحبه الى المغرب ، ولما راى ان الدولة احق بها اهداها للسلطان محمد الرابع فتقبلها منه واكرمه بأن ولاه عليها ، وشرع فى طبع الكتب المهمة وخاصة الكتب الدراسية مما يستعمل فى القرويين وفروعها . وكان يعتنى بالتصحيح وينتقى الخطوط الجميلة ، اذ كانت مطبعة حجرية فاكتسبت مطبوعاتــه سمعة طيبة ، واشتهرت باسم السلطان ، فكان يقال لها مطبوعات المطبعة المحمدية ، وانتشر فن الطباعة بعد ذلك ، وصار من عمل الافراد وكثرت المطبوعات المغربية المعروفة بالفاسية ، لان المطابع التى تصدرها كان مقرها فاس واشتملت على جميع الفنون من عربية وفقه وادب وتاريخ

وعلوم ، وكانت حافزا لكثير من اهل العلم على التأليف والنشر فزخرت المكتبة العربية فى كل مكان بنتاج هذه المطابع .

على ان مطابع اخرى من ذوات الحروف المركبة ما لبثت ان عززت المطابع الحجرية فى فاس وغيرها . واهم ما يلفت الانظار فى نتاجها هو ظهور اول جريدة عربية تحمل اسم المغرب ، وكان ذلك فى طنجة سنة 1889 وهى جريدة اسبوعية حرة اصدرها بعض اللبنانيين ولم تعمر طويلا ، ثم صدرت بعدها فى طنجة ايضا جريدة المغرب الاقصى سنة 1900 فجريدة السعادة سنة 1905 فمجلة الصباح سنة 1906 فجريدة لسان المغرب سنة 1907 وكلها لصحفيين لبنانيين نزحوا الى المغرب فى هذا العهد ولم يبق منها الا السعادة التى اصبحت فيما بعد لسان حكومة الحماية .

وكان حدث الدستور حريا ان يقلب الاوضاع فى المغرب راسا على عقب ، لولا انه اتى متأخرا جدا ، على اثر مبايعة السلطان مولاى عبد الحفيظ 1325 هـ — 1908 م ، وكانت مبايعته ثورة على الفساد والاستغلال وامتداد النفوذ الاجنبى فى ايام اخيه مولاى عبد العزيز ، ومع ما يمكن ان يقال فى اصالة هذه الحركة وتعبيرها عن الراى العام المغربى الذى لم يفتا السلاطين يعيرونه كل اهتمامهم ، ويصدرون عنه فى جميع المواقف الحرجة التى يرون انه لا بد من الاخذ باشارته فيها ، فان صدى الحركة الدستورية التى كانت قائمة فى المملكة العثمانية ، فى هذا الوقت بالذات ، لا بد ان يكون بلغ الى المغرب ، وان يكون هو المحرك القوى للمطالبة بالدستور .

يدلنا على ذلك هذه الفقرات (1) التى جاءت فى مقال لجريدة لسان المغرب التى كانت تصدر بطنجة آنذاك والتى تقول :

« بما ان الوقت قد دعا الى الاصلاح ، والشبيبة العصرية قد هللت قلوبها وانشرحت صدورها له وجلالة سلطاننا الجديد يعرف لزومه ، فنحن لا نالوا جهدا فى المناداة بطلبه على صفحات الجرائد من جلالته وهو يعلم اننا ما قلدناه بيعتنا واخترناه لامتنا وخطبنا وده رغبة منا وطوعا من غير

(1) ننقلها عن مجلة المغرب الجديد العدد 6 السنة الاولى .

ان يجلب علينا بخيل ولا رجال ، الا املا ان ينقذنا من هوة السقوط التى اوصلنا اليها الجهل والاستبداد ، فعلى جلالته ان يحقق رجاءنا وان يبرهن للكل عن اهليته ومقدرته على ترقية شعبه ، وعلى رغبته فى الاصلاح وجدارته بادارة ما قلدته امته ، والذى نرجوه منه اولا قبل كل شىء هو فتح المدارس ونشر المعارف ، وان يكون التعليم الابتدائى اجباريا ، وان يولى ذوى الكفاءة والاستحقاق والاهلية ، ويقرب اليه ذوى العقول الراجحة والافكار الحرة الراقية ، وليتحرز من الوشاة والجواسيس الذين يشوهون له رعاياه ويحولون بينهم وبينه ، وفى بلاطه الشريف من هذه المكروبات القتالة جيش كبير ، فان لم يحترز منها ويقاومها نقلت اليه جراثيم موبئة معدية ، وبما ان يدا واحدة لا تقدر على انهاض شعب من وهدة سقوطه ولا على اصلاح ادارة مختلة كادارة حكومتنا ، فيجب ان تكون الايدى المتصرفة والعقول المفكرة ، والافكار المدبرة كثيرة متكاتفة على العمل ، وعليه فلا مناص ولا محيد لجلالته ان يمنح امته نعمة الدستور ومجلس النواب ، وان يعطيها حرية العمل والفكر لتقوم باصلاح بلادها اقتداء بدول الدنيا الحاضرة المسلمة والمسيحية ، والدول الحاضرة يوم كانت مستبدة وسلطتها مطلقة لم تكن لها كلمة مسموعة ولا ما يدل على انها قديرة . وحيث خلص الله تلك الارواح من شبكة الاستبداد والرق نهضت تلك الدول من وهدة سقوطها وتنقلت فى اطوار الكمالات حتى وصلت اليوم الى ما وصلت اليه ، وكفى حجة على هذا امة اليابان تلك الشمس فى آفاق آسيا التى كانت فى مؤخرة الدول قبل الاربعين سنة واصبحت اليوم فى مصاف الدول العظيمة وانتصرت ذلك الانتصار العجيب على دولة من اعظم دول العالم (روسيا).

وغير بعيد عنا الانقلاب العجيب الذى حصل فى دولة تركيا العلية اثر منح جلالة امير المؤمنين لشعبه الدستور وامره بجمع مجلس المبعوثان ، فعسى ان نقتدى بهم ونقوم بخدمة بلادنا ونسعى جهدنا فى اصلاح حالتنا ».

هذه صيحة مدوية تنذر بما كان يتهدد المغرب من اخطار ، وتعلن عن راى النخبة المفكرة والطبقة الواعية فى الاصلاح الذى يتركز فى وضع دستور للبلاد يكفل لها حياة العزة والكرامة والحرية والتقدم ، وهى كما نرى تعكس الاحداث التى كانت تجرى فى البلاد العثمانية من اجل الدستور

والحصول عليه فى نفس سنة 1908 .

وقد وضع الدستور المغربى بالفعل وكان يحتوى على قانون الحريات العامة ونظام مجلس النواب والانتخابات العمومية الخ ، ولكن مصيره كان الى الاهمال لان تتابع الاحداث التى ادت الى فرض الحماية الفرنسية على المغرب شغل السلطان وعقل الشعب عن كل عمل يهدف الى الاصلاح المنشـــود .

تلك هى حالة المغرب العامة أثناء النصف الثانى من القرن الماضى واوائل القرن الحالى ، وهى حالة مهما قلنا بخضوعها للتطور الحديث ، فانها نظرا لبطء هذا التطور واقتصاره فى الغالب على الشؤون المادية دون الامور المعنوية ، لم تكن لتخلق جوا ادبيا يختلف عما عهده الناس ولا لتحدث تحولا فكريا يصب فى غير المجرى المألوف . ومن ثم فان الحياة الفكريـــة والادبية بقيت على حالها من تمثل الماضى واحتذاء حذوه سواء فى المادة او القالب ، فى المعنى او الاسلوب ، المؤلفون يضعون تآليفهم على غرار الذين من قبلهم ، والادباء يصوغون ادبهم نفس الصياغة التى توارثوها عمن تقدمهم ، والانتاج فى الواقع كثير ، والمطبعة تخرج من الآثار القديمة والجديدة فى العلم والادب ما يدل على نفاق سوق المعرفة ، ولكن عنصر التجديد وروح الابتكار كانا يعوزان هذه الاعمال ، فميزانها بالنسبة الـــى النهضة الفكرية الحديثة ميزان خفيف وان كانت فى حد ذاتها ذات قيمـــة لا تنكر . . نعم كان هناك مؤلفون وادباء ولكن صلتهم باهل العصور الخالية اقوى من صلتهم باهل العصر الذى يعيشون فيه ، فنتاجهم يعد من صميم النتاج القديم لا فرق بينه وبين ما وضع قبل ثلاثة قرون وان كان منه مـــا وضع فى اواخر العهد الذى نحن بصدده ، ولا نقول انه لا يمثل عهده هذا ، فالواقع انه اصدق ممثل له ، لانه وقفنا على مناحى التفكير ومناهج التثقيف التى كانت سائدة اذ ذاك ، وهى كما نعلم منحصرة فى ضروب المعـــارف الاسلامية وعلوم العربية واثارة من فلسفة وحساب وفلك ، اى ما كان يدرس فى جامعة القرويين بفاس وفروعها المنتشرة فى انحاء المغرب ، ولا زائد ، من غير ان تمسه يد اصلاح او تدخل عليه مادة تلقيح .

ولئن كان العصر قد خطا خطوات عظيمة حتى فى البلاد العربية بالنظر الى تقدم العلوم واتساع دائرتها فان المغرب الذى كان فى عزلة ، لم يستشعر شيئا من ذلك فى نشاطه الفكرى اطلاقا ، وبذلك قلنا ان نتاج هذا العهد يمثله أصدق تمثيل ، فالعبرة بما وقع لا بما كان ينبغى أن يقع .

ومع ذلك فان حركة التأليف والنشر التى كانت نشيطة جدا فى هذا العهد ان لم تدل على بعث فكرى ، فهى تدل على حيوية عظيمة فى اهل العلم الذين تركوا لنا تراثا حافلا لم تخرج المطبعة بعده الى الآن ولا مقدار ربعه ، ناهيك بمؤلفات المهدى بن سودة (ت 1294) ومحمد كنون (ت 1302) وعلى الدمناتى (ت 1309) واحمد بن الحاج (ت 1310) وابراهيم التادلى (ت 1311) وعبد السلام العلمى (ت 1313) واحمد ابن خالد الناصرى (ت 1315) وماء العينين الشنقيطى (ت 1328) ومحمد ابن قاسم القادرى (ت 1331) والمهدى الوزانى (ت 1342) واحمد بن الخياط (ت 1343) ومحمد بن جعفر الكتانى (ت 1345) واحمد بن المامون البلغيثى (ت 1348) والمكى البطاورى (ت 1354) وغيرهم ممن يطول تعدادهم . ان هؤلاء كانوا حملة مشعل المعرفة وقادة الفكر فى البلاد والآثار التى خلفوها من ورائهم ما زالت تنير السبيل امام الباحثين فى تاريخ الحياة الفكرية بالمغرب . ولعل هذه الآثار على تشبعها بروح القدم كانت ارهاصا بين يدى النهضة الادبية الحديثة ، لانها لا تعدو ان تكون بحثا عن الحقيقة ، وتطلعا لمستقبل زاهر .

ومهما عممنا فى الحكم على هذه الآثار بأنها خالية من التجديد والابتكار، فاننا لا نغفل منها بالخصوص آثار الفقيه محمد كنون والطبيب عبد السلام العلمى والمؤرخ احمد بن خالد الناصرى . ان الفقيه كنون قام بدعوة اصلاحية تردد صداها فى المغرب من اقصاه الى ادناه ، دعوة تتركز فى محاربة البدع التى شوهت جمال الدين والرد على اهل الطرق الصوفية اصحاب الدعاوى الباطلة ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا يحجم فى ذلك أن يتعرض لاحوال الولاة وما يرتكبونه من المخالفة لاحكام الدين وظلم الرعية حتى نالته بسبب ذلك اذاية السلطان ولكنه لم يتأثر ولم يضعف بل زاد قوة وثباتا ، وكان الى ذلك دؤوبا على نشر العلم ، وبذل النصح للخاصة

والعامة من غير تكلف ولا تصنع ، بل تعتريه فى ذلك حال ربانية فنفع الله به من لا يحصى عددا من الطلاب وجمهور الناس وبذلك انتشر تلامذه فى جميع انحاء البلاد داخل المغرب وخارجه ، وانتشرت دعوته معهم ، وكانت كتبه التى تحمل طابع الجد فى العلم والعمل مما يقوى نفــوس اتباعــه ويحملهم على التمسك بدعوته وزيادة التبصر فى الدين .

واما الطبيب العلمى فانه كان اول طبيب مغربى تعاطى الطب على الطريقة الحديثة ، والف فيه تآليف نافعة تشتمل على تعريف المواطنين بنهضة الطب فى هذا العهد ، فى اوربا والشرق ، وتحتوى على مصطلحات طبية جديدة باللغة العربية بسبب كونه درس الطب فى مصر كما تقدمنا ، وذلك ما لم يكن فى استطاعة الاطباء الآخرين الذين درسوا فى اوربا .

والناصرى كان مؤرخا متفتح الذهن ، اكسبته خدمته للسلطان خبرة بأحوال عصره ، فكتب أحسن تاريخ جامع للمغرب لا يقتصر علــى سرد الحوادث فقط ، بل يتضمن اجكاما وآراء اصلاحية سديدة ، وينتقد سياسة الدولة وما آل اليه امر المغرب من الضياع . وكان هو المؤرخ المغربى الاول الذى لم يستنكف من النقل عن المؤرخين الاجانب لبيان وجهة نظرهم فــى الامور ، واستتمام المعلومات عن بعض المسائل التاريخية ، مما كــان موضع تندر عند بعض المحافظين ، وزاد فى قيمة تاريخه أنه كان عالما اديبا متمرسا بصناعة النظم والنثر فحرره بلغة سليمة واسلوب متين .

ان هذه الآثار تفتح اعيننا على بصيص من النور كان ينبعث من خلال هذا العهد فى مجال الاصلاح الدينى والتطور الفكرى ، وهناك آثار اخرى تكتسى صبغة الصحافة السياسية كان نخبة من الشبان المتحمسين للنهضة الوطنية فى اواخر هذا العهد والعلماء الواعين وعلى راسهم الشيخ محمد الكتانى (ت 1327) يصدرونها بشكل رسائل صغيرة يبينون فيها تدهور سياسة الحكومة ودسائس الدول الاجنبية ولا سيما فرنسا التى فغرت فاها لابتلاع المغرب ويفضحون مناورات العملاء وصنائع الاستعمار الذين كانوا يمهدون له بمختلف الاقوال والاعمال ، مما يدل على وعى هــذه النخبــة ويقظتهــا .

على ان الصحف التى كانت تصدر بطنجة ، وان يكن اصحابها لبنانيين، لم تكن تخلو من اسهام المغاربة فيها فالفقرات التى نقلناها آنفا من مقال لجريدة لسان المغرب تكاد تنطق بأن كاتبها مغربى ، وهى تعطينــا فكرة واضحة عما كان يطالب به هؤلاء الشبان والعلماء من اصلاحات ، ومــا كانوا يوجهونه للجهاز الحكومى من انتقادات .

هذه لمحة عن جانب من الانتاج الفكرى فى هذا العهد ، نتعرف منها حالة الكتابة العلمية والكتابة السياسية التى تعتبر نواة للكتابة الصحافية الناشئة فيما بعد . ونتخلص منها للكلام عن الانتاج الادبى الخالص الذى هو فى الحقيقة المقصود بالبحث ، ربطا للنتائج بالمقدمات .

ونبادر فنقول : اننا وقد عرفنا ان اى تطور فعال لم يطرا على الحياة الفكرية عموما فى العهد المؤرخ ، فلا ننتظر ان نجد عند الادباء غير ما وجدناه عند العلماء من تغلغل روح المحافظة على الماضى والاتباع لآثار القدمــاء فالاعمال الادبية تتمثل فى الرسالة والمقامة والخطبة والتاليف بطريقة الكتابة الفنية نثرا ، وفى موضوعات الشعر العربى المعروفة نظما ، والمعانــى والافكار هى ما يوحى به التراث الادبى المشاع بين العرب كلهم ، لانــه الرصيد الذى ينفق منه الجميع ، فلا عنصر جديد فى الشكل ولا فى المضون ، وان كان هناك من ميزة تسجل لادب هذا العهد فهى انه ادب متين الاسلوب قوى التعبير ، برىء من التكلف ، بعيد عن الضعف الذى يشيع فى عهــود الانحطاط ، لان العهد وان كان كذلك بالقياس الى النهضة الحديثة ، فهو فى الثقافة العربية لم يكن متخلفا ولا قاصرا . ولكن هذا الادب بكل اعتبار لا يعدو أن يكون صفحة متممة لتاريخ الادب المغربى القديم .

ولناخذ باب الرسالة ، سلطانية او اخوانية ، فانا نجدها لا تخرج عن الطريقة المالوفة فى التزام السجع وتضمين الامثال السائرة ، والاقول المأثورة ، واعتماد المجاز والاستعارة والكناية فى اداء المعنى المراد فضلا عن ارتكاب وجوه التحسين اللفظى المتعددة التى تدخل فى نطاق الصناعية البديعية . اما المقامة فهى هى . من عهد الحريرى الى اليازجى ، انما يراد منها اظهار البراعة الادبية والتمكن من ناحية اللغة ، لــذلك فان

اسلوبها المعهود يعد من عناصر تصميمها ، والتحوير الذى ادخله عليهـا المويلحى من كتاب مصر فى هذا العهد ، فى كتابه حديث عيسى ابن هشام ، لم نر من اقتفى اثره فى الشرق العربى ولا فى المغرب .

ولا نقول فى الخطبة شيئا لانها كانت مقصورة على الخطابة الدينية وسبيلها معروف وكذا التاليف بطريقة الكتابة الفنية فانه بقى ينهج الفتح ابن خاقان فى قلائده والعماد الاصفهانى فى خريدته وما الى ذلك المنحى ، فى غير فسولة ولا ضعف ومن غير تطور ولا تحرر ايضا .

والنتيجة التى نخلص بها انه لم تكن هناك اية محاولة للخروج بالنثر عن دائرة الموضوعات التقليدية فيما عدا بعض البوادر الملمع اليها فـى الاصلاح الدينى والسياسى ، وان طرق التعبير المتبعة هى الطرق المتعارفة قديما وخاصة فى الانتاج الادبى البحت .

ولعل هذا الحكم لا يكون تاما الا بايراد بعض النماذج لهذا الانتاج ولو فى بعض الابواب ، لنرى كيف سار فن الكتابة على الوتيرة التـى ذكرنا ، ولئلا يخلو الكلام على هذا العهد من اعطاء صورة للنثر توضع فى مكانها من الاطار الجامع لادب المغرب .

فمن رسالة ادبية لمحمد الفاطمى الصقلى (ت 1311) يعرض بشعراء وقته : (انه لما رخص الشعر ، بعد ان كان غالى السعر ، ودخل الكساد سوقه . تعاطاه بعد ذهاب اعيان ملوكه سوقه ، فمنهم قاطع فى سبله وسارق ، ومنهم مدع انه فرد ، وهو لعمرى منه مارق ، ومنهم من يؤلف بين المفردات فقط ، ومنهم من على تدبيح الالفاظ سقط ، وكل هؤلاء لم تحل لهم عرائس المعنى ، بمغنى ، ومن دون هؤلاء بيادق تطاول الفرازين ، بكونها تحسن الموازين ، بيد انها على غير القسطاس ، وآخرون غايـة مقدورهم تسويد القرطاس ، ومن هذه الفرقة شعبة تتمشدق ، وتدين بثلب الاعراض وتتزندق ، والكل اخطات استه الحفرة ، ولم يجد محزا للشفرة) .

ومنها فى وصف روض : (بروض طوق جيده بالنهر ، ورصع بساطه بالزهر ، واختالت اشجاره ، وانهارت أنهاره ، وتفتح سوسنه وشقيقه ،

وتطلع من خد الورد عقيقه ، وغض النرجس من الحياء طرفه ، ومد المنثور اصابعا اذ فتح النسرين كفه ، وابتسم ثغر اقحوانه ، وانصت الريحان بآذانه ، وابدى الجلنار صبغ ارجوانه ، والبنفسج أحد سنانه ، والخابور ارخى عنانه ، والياسمين ترمى بالدراهم على الروابى ، والبطاح مفروشة من ديباج الربيع بزرابى ، والغمام يدير الراح ، والحمام تثير الافراح ، والنسيم لاعطاف الغصون ثاني . والاطيار تنقر وتغنى على العود فتزرى بربات المثانى ، وبه منتزه يفوق الخورنق والسدير والزاهى ، والابلق وقصر الرصافة والباهى ، والثمانينى والبديع والايوان · تكاد ابراجه تزاحم كيوان ، لولا ان بانيه امسك العنان ، لطاول راسه العنان) .

ومن مقامة لعبد السلام المحب (ت 1323) ، حكى الضحاك بن بشير قال ضمنتى يد الرفقة والعشرة ، مع اصحاب بفاس كالنجوم عشرة ، بلوت شجرهم مرا وحلوا ، وخطبت صحبتهم فوجدتها من الموانع خلوا ، رضعوا من الادب الاخلاق والافواق ، وفطموا عن ضرعها الخلاف بالوثاق ، طالما حنكتهم التجارب رغبة ورهبة ، وساقتهم الايام فرقة وغربة ، حتى التقتهم الاسنمة والغوارب ، واختصمت فيهم المشارق والمغارب ، وصارت جميع البلاد لهم اوطانا ، والمنازل كلها اعطانا ، وكان لى فيهم صاحب هو واسطة عقودهم ، وحبة عنقودهم ، امتزجت روحى بروحه امتزاجا ، واعتدل طبعى بطبعه مزاجا ، اخلص كلانا لصاحبه جهره وسره ، ووثقنا بخير مودتنا فلم يتق شرى ولم اتق شره ، وحينما القينا عصا الترحال بفاس، وتخلصت الرحال بوضع ثقلها من معرة النفاس ، اصبحت الطرق بالقطاع شاغرة ، وعوادى الفساد لافواه الفتن فاغرة ، وامست السهول وهى وعرة ، واعثرت الخيول بعرة ، واستنسرت بغاث الطير ، وانتشرت بغاة الضير ، وذلك بشغب شيطان زعم انه من الملائكة ، واشداته لحنظل الباطل لائكة ، فاعوزتنا السيوف ففزعنا للاقلام ، وارهفنا بصحائف الكلام صفائح الكلام ، فاذا نحن جعنا ، لاقراص الاوراق رجعنا ، واذا نظما ، نظمنا نظما، وترانا نثرى ، اذا نثرنا نثراً) .

ومن كتاب فواصل الجمان فى انباء وزراء وكتاب الزمان لمحمد غريط (1364) وهو وان تاخر عهده حرى أن يعد من ادباء هذا الجيل — بصف

الحالة الاجتماعية فى المغرب قبيل اعلان الحماية : « وحسنت الاحوال ، بعد زوال تلك الاهوال ، فالوى الناس الى خضراء الدمن ، ومكثوا فى هدنة على دخن وامن من تقلبات الزمن .. وذهب بعضهم فى اللهو والبطالة كل مذهب ، وركب فى ميدان خلاعته الكميت والاصهب ، وتواخوا على الفحشاء وبيس ذلك الاخاء ، وسخوا ولكن فيما يحرم فيه السخاء ، وربما افسد النفوس الرخاء ، وصاروا فى يوم الجمعة كما كان اهل الاندلس يـــوم السبت ، يفعلون فعائل اصحاب الطاغوت والجبت ، من البروز الى خارج المدينة باطعمة واشربة وزينة ، ورفع الاصوات بالمواليات والازجـــال ، واختلاط النساء بالرجال متعطرات متبرجات ، كانهن بكل ناظر متزوجات ، وشكاية غرام ، واستقضاء مرام ، ومعاطاة الكؤوس على المقابر ، كانمـــا اعيد لهم عصر الجاهلية الغابر ، وغير ذلك مما لم تحمد عواقبه ، وناحت به على حق المروءة والانسانية نوادبه ، وعمت مصائبه ونوائبه ، كانمـــا ابيح لكل منهم فعل ما يحبه ويهواه ، وارضاء نفسه باسخاط من خلقـــه وسواه ،ولا ناهى عن معصية الله ولا آمر بتقواه. ولم يزل اولئك الشباب، يلجون من الشهوات كل باب ، الى ان بلغت المهلة مداها ، فنبهتهم صيحة طبـــق المعمور صداها) .

ان هذه الامثلة فيما نظن كافية لتصديق الحكم الذى قدمنا على النثر فى عهدنا هذا من كونه يجرى على الاسلوب القديم وانه مع ذلك متين الحوك مما يدل على ازدهار الثقافة العربية . على انه من وجهة النظر العامة يعطينا فكرة عن الحالة النفسية التى كان الشعب يعـــانى مـــن اضطرابها ما يعانى نظرا لعدم استقرار الامن وانتشار الفساد فالصقلى اول من يبدا فى تصنيف الشعراء المزيفين يشبههم بقطاع الطريق والسراق . والمحب فى مقامته يذكر كيف قعد هو ورفقته عن الاسفار مع ولوعهم بها لكون السبل اصبحت مخوفة ، وغريط يندد بتدهور المجتمع وينذر عاقبة السوء فاذا قلنا ان هذه القطع النثرية تمثل واقع المغرب ولو من بعض النواحى لم نكن مبعدين .

واما عن الشعر فى هذا العهد فانه كان اغزر مادة واقوى انتشارا وذلك لان هذا الجيل من الادباء كان ينظر اليه نظرة خاصة ويعتبره الدليل

العملى على صحة دعوى الادب . فمن لم يمارسه كان مزجى البضاعة الادبية ، وربما كان مشكوكا فى ادبه بالجملة ، ولهذا كثر الشعراء حتى راينا الاديب الصقلى يزرى عليهم ويسخر من تطفلهم على مائدة الشعر ولكن فى زحمة هذه الكثرة من الشعراء المدعين كان يوجد شعراء مجيدون لهم بصر بصناعة النظم وتصرف فى المعانى الشعرية واقدام على القول فى جل ابواب الشعر المعروفة ، ولبعضهم ديباجة رقيقة تذكرنا بديباجة الشعر الاندلسى الرقيق .

وكما قلنا فى النثر انه لم يخل من نظرة الى احوال العصر ولو من بعض الجوانب نقول فى الشعر انه كذلك لم يغفل عن تمثل الاحداث الكبرى والتعرض لمجريات الاحوال ، وان كان على طريقة الاقدمين التى لم يحد الادب عنها فى هذا العهد نثرا كان او شعرا .

فمن تسجيلاته الاولى لحادث احتلال الجزائر قول الوزير محمد بن ادريس (ت 1264) يحض المواطنين على النفير للجهاد :

يا اهل مغربنا حق النفير لكم	الى الجهاد فما فى الحق من غلط
فالشرك من جنبات الشرق جاوركم	من بعد ما سام اهل الدين بالشطط
فلا يغرنكم من لين جانبه	ما عاد قبل على الاسلام بالسخط
فعنده من ضروب المكر ما عجزت	عن دركه فكرة الشبان والشمط
فواتح المكر تبدو من خواتمه	فعنده المكر والمكروه فى نمط
وانتم القصد لا تبقن فى دعة	ان السكون الى الاعدا من السقط
(من جاور الشر لا يعدم بوائقه	كيف الحياة مع الحيات فى سفط)
قد يغبط الحر فى عز يخلده	وليس حى على ذل بمغتبط

فهذه الابيات البليغة فى مبناها ومعناها تبرز عمق الشعور بالفاجعة عند الشاعر ، وتصور مكائد السياسة الاستعمارية التى وهو وزير يلاقى منها الشدائد ، وان خرج ذلك كله مخرج العداوة الدينية والحرب الصليبية لانهم كذلك كانوا ينظرون الى التوسع الاستعمارى الاوربى فى القرن التاسع عشر .

ولهذا الشاعر قصيدة طويلة قالها لما سقطت تلمسان فى يد فرنسا وهى على غرار القصائد التى كانت تقال عند سقوط مدن الاندلس فى البكاء على المعاهد والديار وتحويل المساجد الى كنائس وهتك الحرم وسفك الدماء ونكسة الدين اولها :

يا ساكنى الغرب الجهاد الجهاد   فالكفر قد شارككم فى البلاد
والشرك قد نصب اشراكه   مستعبدا بكيده للعباد

ويقول فيها :

واسطة المغرب قد حازها   والامر جد والبلا فى ازدياد
حوى الجزائر ووهرانها   وراع حاضرا بذاك وباد
مصائب صبت على معشر   يبكى من الاشفاق منها الجماد
يكاد يقضى المرء من حرها   على حشاه وتذوب الصلاد
اخوانكم دينا وجيرانكم   اضحوا رعايا الشرك بين اعاد
ساموهم هونا وازروا بهم   فى الدين حتى ركنوا لارتداد
وطمعوا فيكم فكونوا يدا   فان تثاقلتم فانتم مراد

وكان لهذه النكبة المروعة صدى مماثل عند غير ابن ادريس من الشعراء ، فلا نطيل بنقل اقوالهم .

وسجل الشعر كذلك وقعة تطوان بلسان اديبها المفضل افيلال (ت 1304) فى قصيدة مشهورة .

يقول فى اولها :

يا دهر قل لى علامه   كسرت جمع السلامه
نصبته للدواهى   ولم تخف من ملامه
خفضت قدر مقام   للرفع كان علامه
ملكته لاعاد   ليست تساوى قلامه
فالدين يبكى بدمع   يحكيه صوب الغمامه

علــى مســاجــد اضحــت تبــاع فيهــا المــدامـــه

والملاحظة الوحيدة على هذا الشعر هى انه فى غمرة الحزن وهــول المصاب لم ينس النكت البديعية والمحسنات اللفظية ، لانها كانت من المقاصد البلاغية لاصحابه ، حتى صارت من وسائل التعبير عند بعضهم ، اما الضرب على وتر الدين فانه يمثل وجهة نظرهم الى انطلاقة الاستعمار الاوربى فى القرن الماضى التى لم يكونوا يرون فيها الا استمرارا للحروب الطيبية ، وهى وجهة نظر لم تكن بعيدة عن الصواب ، الم يقل الجنرال كورو لما دخل دمشق بعد الحرب العالمية الاولى وهو واقف على قبر صلاح الدين ! نحن هنا ؟ وكذلك اللورد اللنبى الم يقل حين دخل القدس اثناء الحرب المذكورة : الآن انتهت الحرب الصليبية ؟ ان ادباءنا ليسوا باقل غيرة دينية من هؤلاء الضباط الكبار الذين يمثلون أعرق الامم حضارة فى القرن العشرين ، ولذلك فان هذا الشعور الدينى أمام الاكتساح الاوربى كان يلازمهم حتى اننا نجد شاعرا مثل محمد المشرفى (ت 1334) يقول فى مطلع رجزية مؤثرة يبكى بها المغرب عند قيام الحماية :

دع عنك داعى السرور والمزاح واسلك سبيل من بكى الدين وناح

فبكى الدين وهو يبكى المغرب :

وكذلك يقول طاهر الايفرانى (ت 1374) حين توالت ارهاصات الحماية داعيا الى نصرة الدين باعلان الجهاد فى سبيل الله من قصيدة :

لقد انشب الكفر المداهن نابه ومد الى سرح الهدى كف مفسد
وكاد بانواع المكائــد اهلــه فصار ينادى خامــرى وتبلدى
اسر احتساء فى ارتغاء ومــاله سوى الدين من مرمى يرام ومقصد
وقد بلغ السيل الزبى بظهوره وان لم يداو العر بالكى يزدد
فقد طبق الصحراء بالنحس شؤمه واعدى نواحى التل بالخبث الردى
وجاس على هاذى السواحل كلها ببحر سفين بالقــوارب مزبــد
وغص به الدين الحنيفى فاكتسى لما يشتكى من بثه ثوب مكمد
شجاه الاسى من فقد حر يهمه فكاك فماه مــن يد المتمــرد

يقود اليـه كـل اصيد تـارم ... للحم العـدا مخشوشن متمعدد
يجاهد فى الله العظيـم عـدوه ... باقدام ليث فى الكريهة محـرد
يشب لظى الهيجا بقلـب مشيع ... وكف بصير بالطعـان معـود
واطراق ثعبـان وكيد ثعـالة ... وتصميـم فهد فى الجراءة فرهد
ويختال ما بين الصفـوف كانه ... عروس تهادى بين خـود وخرد
على كل طرف سابح ومطهـم ... تنوى القرى عبل كصرح ممـرد
ببيض سيوف او بسمر مدافـع ... مزلزلة ان يبرق السيف ترعـد
يلاعب اطراف الرمـاح كانـه ... صبى مع الولدان بالجوز مسند
يخال مجال الحرب وجه صحيفة ... تسطرها خيـل اللقا بالنطـود
فينقط مدفاع ويشكـل صـارم ... ويكتب رمح الخَط خط مجـود

وقد تجاوزنا من القصيدة محل الشاهد قصد تقديم هـذه الصورة البارعة التى صور بها الشاعر الحرب ، ويزداد اعجابنا اذا علمنا انه من بادية سوس فى صميم بلاد البربر .

وفى موضوعات الشعر الاخرى كان لشعراء هذا العهد جولات موفقة تدل على براعتهم الادبية وحسن تفننهم فى ضروب القول . فمن ذلك فـى النسيب قول الوزير محمد بن احمد كنسوس (ت 1294) :

اذا عن تذكار الاحبـة احيانى ... وان كنت اقضى منه فى بعض احيان
حنينا الـى القوم الذين تفيأوا ... خمائل اثـل فى اجارع نعمـان
احـن اليهـم والمدامـع وكف ... وفى طى احشائى توقـد نيران
منازل لا انفك ارنـو لشطرها ... بالحـاظ مقروح الجوانح ولهان
يذكرنيهـا البـرق يهفو كانـه ... على تلعات الحى ارواغ ثعبـان
وان صدح الورق السواجع هيجت ... الى ساكن البطحاء وجدى واشجانى
وان صافحت ايدى النواسم بانها ... فواها لهاتيك النواسم والبـان
سقى الله مصطاف هناك ومربعى ... بكل سكوب اوطف الحضن هتان
فيا حبذا تلك العراص واهلها ... وعيش تضيناه كهبـة وسنان
فحبى لها ما زال يزداد جـدة ... على ما عراه من تقادم أزمـان
خليلى ان الحب ليس بهيـن ... فكيف هداك الله فى الحب تلحانى
وما هو الا لوعة عـز برؤهـا ... اذا استحكمت يوما بمهجة انسان

فما كان عراف اليمامة شافيا لجنة مجنون وغلة غيلان

وقول الكاتب ادريس بن محمد العمروى (ت 1296) :

علامة اضمار المحبة لا تخفى ونار هوى المحبوب فى القلب لا تطفى
وجيش الصبابات المروع للحشا يكر على صبرى فيهزمه زحفا
وكيف اوارى الحب او اكتم الهوى ودمع مآتى العين قد ساجل الوطفا
عريب النقا ماذا لقينا من الضنى فهل نرتجى مما عرا بكم كشفا
اذا باكرت من بطن نعمان نسمة تجدد للصب المصاب بكم لهفا
وان لمع البرق اليمانى موهنا اثار باحشائى لذكراكم وجفا
بحق هواكم بالفؤاد ترفقوا ورقوا لتهيامى فقد جاوز الوصفا
اذا لم يكن وصل فوعد بزورة وان انتم لم تسمحوا فابعثوا الطيفا
على انكم مذ غبتم هجر الكرى فما نام طرفى بعدكم لا ولا اغفى

ففى هاتين القطعتين نرى فنا رائعا وصناعة مستحكمة ونحس عاطفة مشبوبة وذوقا مهذبا ، مما يحملنا على القول بان صاحبيهما ممن له الرسوخ فى الادب العربى ، واليد الطولى فى نظم الشعر ، على اساليب القدماء من كبار الشعراء ولذلك فان اية قطعة منهما ، يصح أن توضع بجانب المختار من شعر النسيب ، فى اى ديوان عربى ، ولا تكون متخلفة عما فيه .

ومن شعرهم فى الوصف قول ادريس السنانى (ت 1319) فى روض :

روض يروق الناظرين بهيج سيان فيه الزهر والزليج
فكلاهما فى بهجة وتنوع يحيى النفوس بحسنه وبهيج
ان جئته تبغى انتشاق اريجه وافاك دون الباب منه اريج
قد عربدت اشجاره بمدامة شبه اللجين يديرها الصهريج
والطير تشدو فى الغصون بنغمة فى شدوها التفريح والتفريج
نلنا به عند الصباح مسرة والغصن غض والخليج يموج
ابقاه ربى زاهرا فى نضرة ما يمم الحرم الشريف حجيج

وهذه الابيات مما تلوح عليه آثار المغربية ، فان لفظ الزليج من الاوضاع التى لا تستعمل الا فى المغرب ، وكذلك الصهريج فى الغالب ، وهى من الشعر الرائق الذى يطابق الوصف فيه الموصوف حسنا وجمالا .

ولمحمد الفاطمى الصقلى فى وصف خطيب متفاصح :

خطيب فـى ترقيـه خطـوب	بـه الدنيـا محياها قطـوب
يذكر باقـلا مـن عـى نطق	ترض بـه المسامـع والقلوب
يـروم محسنات مـن بديـع	ومـا حسنـاتـه الا ذنـوب
يظـن بأنـه يهـدى بـوعـظ	نعـم يهـذى فتجتمـع الكروب

وهو وصف بليغ لهذا الصنف من الخطباء الذين ابتليت بهم الامة فى عهود التاخر ولا تكاد تخلو منهم مدينة او قرية حتى وقتنا هذا . وينبغى ان يتنبه الى ما فى قوله « يروم محسنات من بدائع » من طغيان الزخارف اللفظية واعتبارها مقياس البلاغة حتى عند الخطباء الذين فقدوا التأثير بحرارة ايمانهم وقوة شخصيتهم فطلبوه بزور القول وسخف الكلام . وعليه فلا غرو ان راينا ادباء هذا العهد يعنون العناية التامة بصناعة البديع ويهتلبون بفنونها الجميلة ، فيرصعون بها كلامهم ويجعلونها له كالحلية الغالية للحسناء الغانية . وذلك كما فى ابيات الصقلى نفسها ، التى تبعث بمضمونها على السخرية وبشكلها على الاعجاب :

ولعل فيما ذكرناه من الامثلة كفاية ، وان بقى موضوع المدح والرثاء وغيرهما . ولكن تتبع ذلك يطول والمقصود اعطاء نظرة عن الشعر فى جملته لا فى تفصيله ، وهى حاصلة بما ذكرناه .

فجر النهضة

لم يكن ما طرا من تطورات على الحالة العامة فى العهد الماضى الا تباشير بفجر النهضة الذى انبثق منذ العقد الثانى من هذا القرن ، فأنار السبيل امام العاملين فى مختلف الميادين . ومما لا شك فيه ان حادث الحماية قد رج المغرب رجة نبهت الغافل ، وايقظت النائم ، ولكن سير الحوادث كما عرضنا له ، يدل على ان البلاد كانت تتلمس طريقها الى النهوض ، وان نخبة واعية من شباب الامة كانت تأخذ اهبتها لتسلم مقاليد الامور ، كى تدعم كيان الدولة وتحقق الاصلاح المنشود ، وما خلع السلطان عبد العزيز والمطالبـــة بالدستور الا مظهران من مظاهر الانبعاث واليقظة التى سبقت الحماية ، وكانت حرية ان تجنب المغرب ويلاتها ، لولا ان كلمـــة الدول الاستعمارية اصفقت عليه وقربته من مصرعه .

واذن فنحن بازاء عوامل مختلفة لانبثاق فجر النهضة ليست الحماية الا واحدا منها ان لم نقل انها انما كانت باعثا على تعزيزها وانتشارها . وهذه العوامل هـــى :

اولا — التعليم الحديث . وقد راينا ان المغرب بذل جهدا غير قليل فى سد حاجة الدولة من المتعلمين فى العهد الماضى ، بارسال البعوث العديدة الى بلاد اوربا وتوظيفها فى المصالح الحكومية المختلفة ، بعد عودتها واتمام تحصيلها . وهذه البعوث وان لم يكن لها اثر فى التعليم العمومى الا ان تاثيرها فى توجيه الانظار الى التعليم الحديث وضرورة تزويد البلاد به ، كان كافيا لقيام نهضة تعليمية حقيقية . فاهتم الناس بتعليم ابنائهم تعليما حديثا بادخالهم الى المدارس الاجنبية ، وارسالهم الى كليات اوربا والشرق العربى . واهتمت الدولة كذلك بتاسيس المدارس العصرية ، ولكن سلطات

الحماية كانت تضع العراقيل فى هذا السبيل ، فلا تسمح الا بقليل منها . ناهيك بانه الى انقضاء عهد الحماية لم يكن فى المغرب الا ثلاث ثانويات حكومية ، ولم يكن فى مجموع مدارس الحكومة اكثر من خمسين الف تلميذ وهذا الى فرنسة التعليم التى فرضها المديرون الفرنسيون فرضا ، سواء فى المدارس الابتدائية او الثانوية . لذلك عول الشعب على نفسه ، وقام بانشاء عدد عديد من المدارس الحرة ، لاستيعاب اكثر ما يمكن من التلاميذ الذين لا يجدون مقاعد فى المدارس الحكومية ، ولمقاومة الفرنسية المفروضة فى تعليم ابنائه . واما التعليم العالى فلم يكن اليه من سبيل الا فى الخارج ، باستثناء التعليم الدينى الذى تقوم عليه جامعة القرويين . وكم كان يلاقى الطلبة من صعوبات فى الحصول على جواز السفر الى الخارج وفى التوصل بالنقود التى تلزم لنفقتهم ، ومع ذلك فقد كانت الهمة التى تحدو بالمواطنين الى التعلم ورفع راية العلم ، تتغلب على جميع تلك الصعوبات .

ثانيا — الاصلاح الدينى المتبلور فى الدعوة الى السلفية . فقد كان من رد فعل السيطرة الاستعمارية وظهور امر الاجانب ، ان العلماء قاموا يذكون الشعور الدينى فى العامة ، ويندبونهم الى الجهاد ويحضونهم على التمسك بالكتاب والسنة ، وهجر البدع والاهواء التى انحرفت بالامة عن سبل المؤمنين ، وهدى السلف الصالح . وفرقت كلمتهم وجعلتهم طرائق قددا . وقد ارتفعت هذه الدعوة ، من منابر الخطباء ، وحلقات المدرسين ، وكتب فيها الكتاب وحاضر المحاضرون وكان الذى يتزعمها بجدارة ويضفى عليها الصفة العلمية الخليقة بالقبول ، هو الشيخ ابو شعيب الدكالى (ت 1356) ذلك العالم المصلح الذى قيضه الله للمغرب فى هذه الفترة ، فجدد سند العلم ، واقام للسلفية منارا عاليا بما اوتى من التبحر فى علوم الكتاب والسنة ، وما كان له من الفصاحة والمعرفة بطرق الاقناع ، فضلا عن خبرته باحوال العالم الاسلامى التى اكتسبها فى جولاته بالمشرق ، وكان يلى وزارة العدل فزاده الجاه هيبة فى النفوس ، وتاثيرا على الخاص والعام . ووجدت هذه الدعوة قبولا لدى الشباب المتعلم ، فناصرها ، وتطور امرها عنده الى الوقوف فى وجه اصحاب الطرق الصوفية ولا سيما المزيفون منهم . ونشات معركة عنيفة بين الطرفين

كانت تجد لها متنفسا فى صحافة تونس والجزائر ، اذ كانت الصحافة بالمغرب قليلة وغير مكفولة الحرية . وفوق ذلك كانت السلطات الاستعمارية تعضد الطرقيين وتحارب الشباب وفئة الاصلاح . واستشرى الخلاف حتى انقسمت البلاد الى معسكرين ، معسكر الطرقيين ، ويرمى الشباب بالمروق من الدين ومعاداة اهل الخير والصلاح . ومعسكر الشباب ، ويتهم الطرقيين بممالاة الاستعمار واستغلال الدين لبلوغ المآرب الشخصية . وهذه الحركة خلقت نشاطا فكريا عظيما الا انها جاوزت الحد ، فلذلك لما قدم الامير شكيب ارسلان رحمه الله الى المغرب فى زيارة خاصة سنة 1930 وكان يحظى بتقدير عظيم فى جميع الاوساط المغربية ، الح على الشباب العامل فى ايقافها او سلوك سبيل الاعتدال فيها ، والاهتمام بما هو أوجب منها من المطالب السياسية والحقوق الوطنية . وبين ان الطرق الصوفية ليست كلها على ضلال وان بعضها يقدم خدمات عظيمة للاسلام فى افريقية السوداء ، كما سجل ذلك بعد فى تعاليقه على كتاب حاضر العالم الاسلامى .

ثالثا — النهضة الشرقية التى بلغت فى هذا التاريخ الى طور النضج والانتاج ولا سيما فى مصر ، وكانت آثارها ما بين علمية وادبية وفنية ، فى الكتب والمجلات والصحف تصل الى المغرب فتتلقفها الايدى بتلهف عظيم . ومنها آثار الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا واستاذهما السيد جمال الدين الافغانى ، فى العلم والاصلاح والمنافحة عن الاسلام . وآثار الكاتب مصطفى لطفى المنفلوطى والاستاذ محمد فريد وجدى والعلامة محمد كرد على والمؤرخ جورجى زيدان فى الادب والاجتماع . وآثار الشعراء شوقى وحافظ والزهاوى والرصافى فى الشعر الجديد وغيرهم من اعلام الفكر والسياسة كمصطفى كامل وسعد زغلول وتلك الطبقة . انها كانت مدرسة تخرج فيها الجيل الاول من رجال العلم والادب والوطنية الصحيحة الذين بثوا افكارهم فى النشء الجديد ومهدوا السبيل للنهضة المغربية العتيدة فكانوا صلة الوصل بين الماضى الغابر والحاضر الزاهر . ومن طريق هذه المدرسة عرف المغرب اتجاهات الفكر الحديث فى الفلسفة والادب واطلع على تاريخ الحضارة وتقدم العلوم فى اوربا ، فانها كانت تخاطبه بلغته ، وفى الوقت نفسه تقدم اليه احسن آثار المفكرين

والادباء الغربيين مترجمة الى العربية ، فيطلع منها على ما لم يتح له الاطلاع عليه لانصاف المثقفين باللغة الفرنسية ، الذين كان الاستعمار يحرص على ان يجعل منهم موظفين صغارا وحسب . وفى دنيا الفنون كان للغناء الشرقى ولا سيما الحان الاناشيد الوطنية المدرسية اثر عميق فى الاوساط الموسيقية وزارت البلاد بعض الفرق التمثيلية من مصر وتونس ، فتعرف المغرب منها على فن المسرح ، ونشط شباب هذا الجيل فى محاكاة ما عرضته من القطع المختارة ، وكان ذلك سبب نشوء المسرح فى المغرب وبالجملة فان تأثير النهضة الشرقية على تطور الحياة الفكرية بالمغرب كان عظيما جدا .

رابعا — وقبل كل شيء وبعده ، الحماية ومقدماتها ونتائجها التى كانت حافزا لجميع طبقات الشعب على المقاومة بحد السلاح فى المدن والقبائل . ففى فاس بمجرد اعلان النبأ المشؤوم اندلع لهيب الثورة ، التى عرضت المدينة لهجوم جيش العدو وقذفها بالقنابل حتى استسلمت . وتبع ذلك وقوع حروب شديدة بين جيش الاحتلال والقبائل المغربية ، فى الاطلس المتوسط والاطلس الكبير وتافيلالت والشاوية والناحية الجبلية فى الشمال والريف . واستمرت المقاومة فى بعض هذه الجهات الى سنة 1936 . وكانت الحرب الريفية ضد اسبانيا اولا ثم فرنسا ثانيا بقيادة البطل محمد بن عبد الكريم الخطابي . اعظم حروب المقاومة للحماية . واشتهرت وقائعها فى الداخل والخارج . ومنها واقعة انوال التي سحق فيها المجاهدون الريفيون جيشا اسبانيا يتكون من عشرين الف مقاتل . ولما راى الفرنسيون ان خطر هذه الحرب . يتهدد منطقة نفوذهم . وانه يوشك ان يطيح بالحماية اصلا ، فرنسية واسبانية هبوا لمساعدة الاسبان وتكالبت قوات الدولتين على بطل الريف العظيم فاضطر الى التسليم سنة 1926 . ان المقاومة المسلحة تكون الى جانب العوامل المتقدمة عاملا قويا فى النهضة . ولئن كانت تلك العوامل سببا مباشرا فى البعث الادبى . فان هذه تسببت بواسطة تنمية الوعى القومى فى مضاعفة الجهود العاملة لذلك البعث . ومن ثم قلنا ان الحماية ، والمقاومة انما نشأت عنها ، لعلها ان تكون من البواعث على تعزيز عوامل النهضة وانتشارها اكثر من ان تكون عاملا بذاته .

ويستطيع الباحث ان يضيف عوامل اخرى الى هذه كالمحاولة الاولى التى جرت لاصلاح القرويين ، وذلك فى ميدان التعليم . واتساع حركة العمران وما ادى اليها من التجهيزات الضرورية كوسائل المواصلات الحديثة ، وهذا فى ميدان التطور الحضارى ، والاختلاط بالاجانب الذين انتشروا فى اطراف البلاد ، انتشار الجراد ، وكان له اثره البالغ فى الميدان الاجتماعى . الى غير ذلك من الاسباب الجزئية والكلية التى اثرت فى الحالة العامة للمغرب ، ولكنا نعتبرها داخلة فيما ذكرناه من العوامل الاساسية ومندرجة تحتها ، لا سيما وبعضها قد كان له اثر سيء فى فساد الاخلاق وتدهور المجتمع ، وهو هذا الاخير ، فذكره انما يكون لتسجيل ظاهرة من ظواهر التاخر لا التقدم .

واذا نظرنا فى النتائج الاولى لهذه العوامل ، وما كان لها فى الحياة الفكرية من اثر عاجل ، نجد ان تحولا فكريا عظيما ظهر فى الاعمال العلمية والادبية التى انجزت فى هذه الفترة . فبينما كانت المحافظة هى طابع العهد الماضى اذا بالتيار التحررى يسرى الى الافكار والمنشآت ، ويصبح هو القاعدة المحكمة . فالعلماء صاروا يعولون على البحث والنظر اكثر مما يعولون على الحفظ والرواية ، والادباء يحرصون على التجديد والابتكار ويتخففون من التقليد والاتباع واصبح الاتجاه العام لدى الجميع ، هو مسايرة ركب التقدم ، والتكيف بروح العصر ، عكس ما كان عليه الحال قبل من عزلة عن العالم وبعد مما يجد فيه . والحقيقة ان الانقلاب الذى حصل ، نتيجة للعوامل السابقة ، كان من السرعة بحيث يكاد يعد من الطفرة ، وهو امر يدل على ما يمتاز به الشعب المغربى من قابلية للتطور واستعداد للنهوض . وقد شهد بذلك حتى الاجانب ، ففى التقرير السرى الذى رفعه الماريشال ليوطى الى الحكومة الفرنسية سنة 1920 يقول « اننا وجدنا هنا دولة ووجدنا شعبا . واذا كانت الدولة المغربية قد مرت بأزمة فانها ازمة حديثة وحكومية اكثر منها اجتماعية .. ان جمهرة الشعب المغربى ليست مصابة بالخمول الذى يوصف به المسلمون فى الشرق ، بل هى بالعكس نشيطة عاملة متلهفة على طلب العلم ، مستعدة للتجديد .. اننا لسنا امام سكان فطريين همجيين ، بل نحن امام شعب يمتاز عن بقية شعوب الشمال الافريقى بالاستعداد للتطور وبرد الفعل السريع الذى

يكلف ثمنا غاليا لاى تصرف غير حكيم يرتكب ضده » ولعل فى هذه الفقرات ما يغنى عن القول بأن المغرب شق طريقه بنفسه الى النمو والازدهار وان كانت الحماية تقف فى وجهه حجر عثرة ، وذلك لما أوتى من ذكاء خارق ، وطموح نادر ، يحفزانه الى مواصلة الكفاح من اجل اثبات وجوده وابراز شخصيته .

ولقد كان الشعار الذى عمل تحته فى هذا الطور كل المخلصين ، هو العلم ، لانه اعتبر سفينة النجاة . فكنت لا تسمع ولا تقرا الا ما يركز فكرة العلم ، وانه الوسيلة الوحيدة للانقاذ ، والقى احد الغيير محاضرة جعل عنوانها (العلم والا الموت) فاصبح هذا العنوان على كل لسان ، وصار هو الكلمة المعبرة عن ارادة الشعب .

وقام العلماء بدورهم فى المعركة ضد الجهل ، وفى تنوير الرأى العام . فكان الشيخ ابو شعيب الدكالى ، كما المعنا اليه ، رائد الجماعة التى حاربت الخرافات والبدع والشعوذة والتدجيل ، واحيت السنة واعلت منارها وارتفعت بالمفهوم الدينى عن المستوى العامى والميثولوجى الى الحقائق الثابتة والقيم المثلى . وسار على اثره فى ذلك تلميذه الفقيه محمد ابن العربى العلوى الذى حظى باعجاب الشباب ، لمشاركته فى الحركة الوطنية وتحمله نصيبه من الاذى فى سبيل ذلك . وكان للاساتذة الكبار محمد السائح (ت 1367) ومحمد الحجوى (ت 1376) والمدنى ابن الحسنى (ت 1378) يد طولى فى نشر علوم الفقه والحديث والتفسير والعربية والادب ، فى دروس جامعية من المستوى الرفيع ، الى جانب غيرهم من عشرات المشائخ ، الاساتذة فى القرويين والمعاهد الدينية الاخرى فى مختلف انحاء المغرب ، الذين لم يفتأوا قياما على اداء هذه الرسالة المقدسة ، رسالة العلم والثقافة الاسلامية العربية وقد كان عمل هؤلاء العلماء مفيدا جدا فى تصحيح الفكرة الدينية لدى العموم ، وتكميل النقص الذى بدا فى حركة التعليم الحديث ، من حيث خلوه من دروس العربية والدين . وبذلك تلاقى المثقفون الجدد ومشيخة العلماء على صعيد العمل الموحد للنهضة العلمية فى البلاد .

وكما تطورت اساليب العلماء فى التدريس تطورت اساليبهم فى الكتابة والبحث . فتناولوا شتى الموضوعات بروح علمية عالية ، واخرجوا الدراسات المنوعة المستوفية من حيث الفكرة والمنهاج للشروط المطلوبة ، فنشر محمد الحجوى كتابه القيم الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى . ونشر محمد السائح اول كتاب للمنتخبات الادبية يشتمل على تراجم لادباء مغاربة واندلسيين ونماذج من انتاجهم ، وذلك للاستعمال المدرسى . كما نشر محمد اقصبى (ت 1364) اول كتاب مدرسى لتعليم القراءة والكتابة على الطريقة الحديثة . وفى خصوص المباحث التاريخية كتب محمد بوجندار (ت 1345) تآليف محررة مثل شالة وآثارها ومقدمة الفتح لتاريخ رباط الفتح . وكتب النقيب عبد الرحمن بن زيدان (ت 1365) تاريخ مدينة مكناس فى عدة مجلدات نشر منها خمسة وكذلك نشر العباس بن ابراهيم (ت 1378) خمسة مجلدات من تاريخه لمدينة مراكش . ونشر عبد الحى الكتانى (ت 1383) كتاب فهرس الفهارس فى مجلدين وكتاب التراتيب الادارية كذلك . ونشر احمد الرهونى (ت 1371) كتاب تقريب الاقصى من تاريخ الاستقصا واللؤلؤ الحطيب من كتاب نفح الطيب وكتبا اخرى تعليمية ، وله كتاب عمدة الراوين فى تارخ تطاوين فى مجلدات الا انه لم ينشر ونشر محمد المرير كتاب الابحاث السامية فى تاريخ المحاكم الاسلامية فى مجلدين ونشر عبد الحفيظ الفاسى كتاب المدهش المطرب فيمن لقيهم من شيوخ المغرب . ونشر احمد الرجراجى كتاب الشموس المنيرة فى اخبار مدينة الصويرة وهو جزء لطيف فى اعمال اخرى لغير هؤلاء العلماء لا تقل عن هذه وزنا وقيمة .

والواقع اننا اذا اعتبرنا دلالة اعمال العلماء من الناحية العلمية الصرف ، حكمنا بأن العهد عهد نهضة متكاملة لا فجر نهضة فقط كما يقضى عنوان الحديث . ولكنا نستطيع ان نؤكد ان هؤلاء النوابغ كانوا ممن سبقوا زمانهم بكثير فجاءت اعمالهم على قدر همتهم لا على قدر زمنهم . ولا ادل على ذلك من انهم لم يخلفوا مثلهم الا فى القليل .

ولم تحظ الحركة الادبية بعباقرة يتخطون بها مراحل التطور ، فسارت فى طريقها الطبيعى . ولكنها مع ذلك قطعت شوطا بعيدا نحو

النمو والازدهار ، ونزعت نزوعا بينا الى التجديد والابتكار . والظاهرة الاولى التى تلفت نظر الباحث ، هى تحلل الكتاب من قيود النثر الفنى الذى كان اسلوبهم المفضل للتعبير فى كل موطن ، من الرسالة الاخوانية الى تأليف الكتب . بل كان دليل التفوق عندهم وعلو الكعب فى صناعة الكتابة . فبعد ان كنت لا تعثر على اثر نثرى كتب بطريق الترسل الا نادرا . صرت لا تجد من يكتب بطريق السجع الا فئة قليلة بقيت محتفظة به كما يحتفظ بأحد الآثار الجميلة . وهى الى الجيل الماضى اقرب منها الى هذا الجيل . ومن خصوص افرادها محمد غريط الذى نقلنا نموذجا من نثره فى الحديث السابق . ومحمد بن موسى الذى هو البقية الباقية من اعلام هذا الفن .

وليس العجب ممن احتفظ باسلوبه من هؤلاء ، بل العجب ممن انقلب فى فترة قصيرة كهذه من كاتب راسخ القدم فى التسجيع ، الى كاتب بارع فى الترسيل . ونعطى مثالا على ذلك احمد بن المواز (ت 1341) فان من يقرا كتابته فى الرسائل السلطانية والاغراض الاخرى فى العهد الماضى ثم يقرا كتابه حجة المنذرين الذى وضعه فى هذا العهد ، يجد البون شاسعا بين الاسلوبين ، اسلوب الالتزام البديعى واسلوب النثر الحر المتدفق تدفق الينبوع الثرى . وفضلا عن ذلك فانه يجد فى هذا الكتاب تنوعا فى الموضوعات التى طرقها يتجاوز حدود ما كان الكتاب قبله يعنون به . ويجد كذلك تعمقا فى تناول هذه الموضوعات ، وخاصة منها موضوع سياسة الحكومة بعيد فرض الحماية ، مما يقرب من الكتابة السياسية التى ظهرت فى الصحافة الوطنية بعد ذلك . وكان اكثر ما يهدف اليه من هذه الكتابة التوجيه والارشاد ، وربما قصد الى الانتقاد فافرغ ذلك فى شكل مذكرات عن احاديث جرت بينه وبين احد رجال الحكومة ، او مواقف لبعض ابطال التاريخ ، معززا ذلك بالنصوص التشريعية من القانون الدولى وغيره ، فالرجل كان شخصية ادبية وسياسية فذة : وقد تولى المناصب العالية فى العهد الماضى وكان هو الذى حرر البيعة الحفيظية التى قيدت السلطان الجديد عن التصرف المطلق فى مقدرات الدولة .

ومن هذا يظهر ان التطور الذى اصاب النثر لم يقتصر على الشكل

بل اصاب المضمون ايضا . فقد اقدم الكتاب على طرق الموضوعات الاجتماعية والادبية والفلسفية والسياسية . وحلت المقالة فى ذلك محل الرسالة وظهرت الخطابة الاجتماعية والسياسية بعد ان كانت الخطبة دينية فقط . وظهرت كذلك المحاضرات العلمية والادبية ونشطت نشاطا ملحوظا . وهذا الى تجديد اسلوب التاليف الذى اشرنا اليه آنفا .

ولعل تصديق هذه الاحكام انما يتم بايراد الشواهد عليها . فلنقدم بعض النماذج لكل ما ذكرناه من ضروب النثر التى نشأت فى عهدنا هذا .

من ذلك فى النثر العلمى ما كتبه محمد الحجوى فى فصل الفقه قبل الاسلام من كتابة الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى . قال « اعلم ان الاسلام وجد الامة العربية امية لا تقرا ولا تكتب ، ولم يكن لديها علوم مدونة فى الكتب ، تدرسها فى مساجد او مدارس . وان وجد لديهم معرفة بعلوم تدعو اليها ضرورة حياتهم البدوية كعلم النجوم والقيافة والعيافة والانساب وغير ذلك مما نسب المؤرخون لهم معرفته وحفظ بعض قواعده . ومن هذه الانواع ما كان لهم من الالمام ببعض ضوابط فقهية يفصلون بها خصوماتهم كقولهم فى القصاص القتل انفى للقتل ، والدية على العاقلة فى الخطا ، وكما يؤثر عن عمرو بن العاص احد حكام العرب قوله فى الخنثى القضاء يتبع المبال ، وفى النسائى وغيره ان القسامة كانت فى الجاهلية وقضى فيها بين اناس من الانصار ادعوه (اى القتل) على يهود خيبر . ومن ذلك معرفتهم بعض مناسك الحج . وكانوا يصومون عاشوراء كما فى الصحيح ، بل كانوا يتحنثون فى رمضان بالصوم كما يدل عليه حديث بدء الوحى وقوله تعالى : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » وقد ثبت اغتسالهم من الجنابة واختتانهم . وكان لهم نكاح بخطبة وصداق كما يدل له خطبة ابى طالب لخديجة زوج النبى (ص) وهى مذكورة فى السير محفوظة فلا نطيل بها . ولهم طلاق وظهار ، فقد ثبت فى النسائى وغيره ان خولة زوج أوس بن الصامت اتت النبى (ص) فقالت ان زوجى ظاهر منى فامرها بفراقه فلما نزل قوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله » الآية نسخ الطلاق بالكفارة تخفيفا من الله ورحمة . ويظهر ان تلك الاحكام كانت عند العرب من بقايا شريعة اسماعيل ووالده ابراهيم عليهما السلام ، فلما جاء الاسلام اقر ما اقر

ونسخ ما نسخ . ومن جملة ما نسخه القرآن نذر الجاهلية لغير الله المبين في قوله تعالى في الانعام : « وقالوا هذه انعام وحرث حجر لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم وانعام حرمت ظهورها وانعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء » وقال تعالى : « ومن الانعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان الى قوله ام كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا » وقال في سورة المائدة : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب » فهذه الآيات بينت نظام الانتاج في الحرث والانعام الذى كان عند مشركى العرب ، جعلوا نصيبا منه لاوثانهم يأخذه سدنتها ، ونصيبا للفقراء . وما هو للاوثان اقسام ثلاثة الاول حجر لا يطعمه الا من يشاءون الثانى انعام حرمت ظهورها والثالث انعام لا يذكرون اسم الله عليها وهى السائبة والبحيرة والوصيلة والحامى . فألغى الشرع ذلك وقرر نصاب الزكاة فقال وآتوا حقه يوم حصاده . وقرعهم بقوله ام كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا الآية .

فهذا مثال ما كان عند العرب من الفقه ، وهو ضوابط قليلة الاهمية ليست كافية في بابها ولا رادعة لاهل الفساد والدعارة ولا وافية بالنظام الاجتماعى لهذا بقيت الامة العربية متفرقة الاهواء ، فاقدة النظام ، تخوض بحار الحروب لقتل نفس بل لضربة او سبة . فتقطع السبل وتذهب الحقوق وتنقطع المواصلات والمعاملات ، الا في الاشهر الحرم فكانوا في جاهلية جهلاء يفتخرون في اشعارهم لدى منتدياتهم ، بقطع السبل وقتل النفس وسلب الحقوق وغير ذلك من الافعال الشنيعة ، وانما وازعهم الذى امكنهم من الحياة وبقاء الجنس العربى هو العصبية القومية ، فمن كانت له عصبية في قومه دافع بها عن حقوقه ، والا حالف قوما آخرين فكان تحت ذمتهم يدافعون عنه على اصول معلومة عندهم ، حتى ان الحليف كان يرث حليفه، الى ان جاء الاسلام فعند ذلك عرفت الحقوق بمعرفة الفقه وصار لها المقام الاول في الاعتبار ، والركن الاعظم في الاذهان ، ونسخ حكم التحالف بوجوب التناصف » .

ففى هذا النص دراسة منهجية لموضوع الفقه قبل الاسلام محيطة به من جميع جوانبه ، تدل على ما كان لعلماء هذا العهد من بعد نظر وسعة اطلاع . وهو الى ذلك نموذج من النثر العلمى قوى الاسلوب واضح الدلالة خالى من التكلف والفضول . ونكتفى به فى هذا الباب فأكثر نثر هذه الطبقة من هذا الطراز .

ومن النثر المسجوع ، وقد صار لندرته كالشامة فى وجه الحسناء ، ما كتب به محمد بن موسى عن الخليفة السلطانى مولاى الحسن بن المهدى وكان يلى وزارته ، تقريظا لمؤلف اهدى اليه « انسان عين الفضل والنجابة، ولسان صدق الاحسان والاصابة ، الفقيه العلامة الاديب السيد فلان ، وصل الله حبلك بأعنة الصواب ، وايد فضلك بطرائف الحكمة وفصل الخطاب ، تلقينا من طرفتك الضاربة فى الابداع بسهم مصيب ، والآخذة فى طول الباع بالفرض ومن قوة العارضة بالتعصيب ، متحفا بعثت به آثار ملوك المغرب وامرائه من مراقدها ، وجمعت فى آفاقه من نتفهم الادبية بين أوانسها وشواردها ، فكان لك الفضل فى احياء هذا الضرب من الادب العربى بعد اندراسه ، والترويح عليه بصدق العزيمة حتى تحرك بعد خمود انفاسه ، ولا غرو فقد ناسبت براعتك بين رؤسه ومناكبه وناسقت بين درره الثمينة وكواكبه ، وشارفت به اندية الادب فى طراوة افنانه وبهجة مواكبه .

كالغوادى اظهرن كل جنى مستتر فى زهرات الرياض

شكر الله سعيك المبرور ، وخلد عملك غرة فى جبين الدهور ، والسلام عليك ورحمة الله » .

ان الملاحظ يرى فى هذا المثال ملكة راسخة تتصرف فى الكلام كما تشاء ، حتى ان السجع لمطاوعته للكاتب يدخل فى صميم الفكرة التى تعبر عنها الفقرة او الفقرات . ويرى صور المعانى كما تعرض المأثورات القديمة، تسجل احداثا جديدة ، فبجانب الصورة المنتزعة من علم الفرائض ، صورة متحف الآثار الذى هو من منشآت الحضارة العصرية ، وبذلك يكون التجديد شمل حتى هذا الفن الذى اصبح يعد من الآثار القديمة .

ففى هذا النص دراسة منهجية لموضوع الفقه قبل الاسلام محيطة به من جميع جوانبه ، تدل على ما كان لعلماء هذا العهد من بعد نظر وسعة اطلاع . وهو الى ذلك نموذج من النثر العلمى قوى الاسلوب واضح الدلالة خالى من التكلف والفضول . ونكتفى به فى هذا الباب فاكثر نشر هـذه الطبقـة مـن هـذا الطـراز .

ومن النثر المسجوع ، وقد صار لندرته كالشامة فى وجه الحسناء ، ما كتب به محمد بن موسى عن الخليفة السلطانى مولاى الحسن بن المهدى وكان يلى وزارته ، تقريظا لمؤلف اهدى اليه « انسان عين الفضل والنجابة، ولسان صدق الاحسان والاصابة ، الفقيه العلامة الاديب السيد فلان ، وصل الله حبلك باعنة الصواب ، وايد فضلك بطرائف الحكمة وفصل الخطاب ، تلقينا من طرفتك الضاربة فى الابداع بسهم مصيب ، والآخـذة فى طول الباع بالفرض ومن قوة العارضة بالتعصيب ، متحفا بعثت به آثار ملوك المغرب وامرائه من مراقدها ، وجمعت فى آفاقه من نتفهم الادبية بين اوانسها وشواردها ، فكان لك الفضل فى احياء هذا الضرب من الادب العربى بعد اندراسه ، والترويح عليه بصدق العزيمة حتى تحرك بعـد خمود انفاسه ، ولا غرو فقد ناسبت براعتك بين رؤسه ومناكبه وناسقت بين درره الثمينة وكواكبه ، وشارفت به انديـة الادب فى طراوة افنانـه وبهجة مواكبـه .

كالغـوادى اظهـرن كـل جنـى مستتـر فى زهـرات الـريـاض

شكر الله سعيك المبرور ، وخلد عملك غرة فى جبـين الدهـور ، والسلام عليك ورحمة الله » .

ان الملاحظ يرى فى هذا المثال ملكة راسخة تتصرف فى الكلام كمـا تشاء ، حتى ان السجع لمطاوعته للكاتب يدخل فى صميم الفكرة التى تعبر عنها الفقرة أو الفقرات . ويرى صور المعانى كما تعرض المأثورات القديمة، تسجل احداثا جديدة ، فبجانب الصورة المنتزعة من علم الفرائض ، صورة متحف الآثار الذى هو من منشآت الحضارة العصرية ، وبذلك يكون التجديد شمل حتى هذا الفن الذى اصبح يعد من الآثار القديمة .

ومن الكتابة السياسية ما جاء فى حجة المنذرين لابن المواز ، متعلقا بموضوع امتناع الحكام عن مشاركة الرعية فى اسباب المعاش : « ومــن الاســاسات التى اتفقت عليها حكماء السياســة ان من لوازم السلطان ونوابه فى حفظ المملكة ، ان لا يشاركوا الرعية فى تجارة ولا فلاحة ولا غيرهما من التكسب لما فى ذلك من الآفات التى تفضى الى الخراب ، لقوله (ص) ايما وال اتجر فى رعيته فقد هلكت رعيته . وكان لعمر بن عبد العزيز سفينة يكتريها لحمل الطعام وبيعه بالمدينة ، فلما اخبره محمد بن كعب القرظى بهذا الحديث ابطل ذلك وتصدق بذلك الطعام قال علماء السياسة الشرعية، ان المتولى اذا زاحم الرعية فى التكسب لا بد ان تحصل امور ، منها المضايقة لهم مع ما هم مطلوبون بادائه ، ومنها انه يؤثر نفسه باغراضه فى ذلك ، ومنها انتزاع الشىء منهم بثمن يسير ، ، ومنها الزام الرعية بشراء مبيعاته بالغلاء ثم يبيعها المشترون مبخوسة فيخسرون ، الى ان قالوا وهذا كله يعود على جباية الرعية بالتلاشى ، لانه اذا قعد التاجر وتلاشى الفلاح اضمحلت الرعية وذهبت الثروة جملة ، فجاحت الجباية ، وفى الحديث تهلك هذه الامة بالحرص كما هلك من قبلها بالطمع . وجناب مولانا المنصور بالله اول من يعرف بهذه الارشادات واكثر اهتاما بالمحافظة على قواعد الامدادات والحمــــد لله » .

ومنه فى سبيل النصح للسلطان والدفاع عن حرية الامة المغربية ، « ومن واجبات الجلالة السلطانية امعان النظر فى كتب القوانين الدولية ، وتواريخ المعاهدات ومنشا التضمينات الحربية ، التى كان اول من اخترعها نابليون الاول ، والامور التي كانت ترتكب فى الحروب قديما زمان التوحش، وما تقرر به قانون الدول الناسخ لذلك بعد تقرر المدنية فكل ذلك مما تجب معرفته على من استرعاه الله ، ليعرف المقاصد الموافقة والمباينة فمن ذلك ما افصح عنه كتاب حقوق الدول فى القسم الثانى منه ، وملخصه انه منذ تقرر قانون التحكيم لم يبق موجب للحرب . قال وكذلك لم يبق وجه للقاعدة الظالمة وهى كون القوة تتقدم على الحق . ثم قال وبذلك تأمن ارواح البشر والاموال من التبدد ، وانما كان يرتكب ذلك فى زمان الوحشية . وقال ايضا فى مادة (390) ان الاهالى الذين لم يدخلوا حربا لا يجوز سوء المعاملات والتعديات عليهم لانه من حيث ان امنية الاهالى وحريتهم الذاتية واغراضهم

وناموسهم معدودة من الحقوق الشخصية فلا يمكن ان تختــل او تنقص رعايتها ولو بسبب الحرب . وصرح ايضا فى مادة (369) بانه لا تجوز محاربة اقوام عائشين فى العالم لسبب توسعة دائرة تقدمهم ومع اجتنابهم الاضرار بغيرهم وقال ايضا ، ان المتغلب فى مملكة بوجه الثورة لا تعتبر معه معاهدة ولا معاملة الا بعد ايام الاعتراف به من الدول واتفاق الامم . وكذلك صرح فى مادة (441) بان قانون الجنود اذا استولوا بالقوة على قــوم واحتاجوا للمؤن فلا يحمل على الاهالى الا ما يطيقونه ، ومن اللازم ان يكون ذلك بالاعتدال . ونص على ان القوة يجب ان تكون علــى نسبــة المستولى عليهم ، ولا يرتكب فيها مالا يطاق من الدواهى الماحقة والا فهى من خوارق القانون . فهذه القرارات التى سجلها قانون المدنية والانسانية توجب الوقوف مع حفظ حقوق الاهالى ولو بعد الحرب . وعليه فالمحميون فقط يكونون احق بما ذكر من كمال الرعاية ، واولى بمراتب فى جميع ذلك ، حتى لا يغشاهم من النوائب غيهب ذلك » .

ولا يخفى ما فى هذين النموذجين من افكــار سياسيــة صائبــة ، وتوجيهات صحيحة فى الحكم والادارة — الى ما يتضمنانه من نقد للوضع القائم بعد الحماية وتعريض بتصرفات المسؤولين ، مما يدل على يقظــة فكرية عظيمة وغيرة وطنية كبيرة . والمهم هو الاسلوب الذى اديت به هذه الافكار ، فهو اشبه باسلوب الصحافة السياسية التى يكون وكدها وضوح الفكرة وقوة الحجة ، لا تنميق الالفاظ وزخرفة الكلام ، والعجيب ان يكون هذا اسلوب كاتب تعود منذ نشأ على تحبير الرسائل والمنشورات بطريقة النثر الفنى المثقل الحواشى بالمحسنات والبديع . ولكنا نعرف ان ذلك احد مظاهر التطور الذى طرأ على الحركة الادبية فى هذه الفترة من الزمن ، وان ابن المواز صاحب هذين النموذجين من أصدق امثلة ذلك التطور .

ومن المقالات فى الشؤون الاجتماعية وغيرها ما كتبه محمد السليمانى (ت 1344) فى موضوع التبذير والاسراف ، « علمتنا الشريعة السمحاء طرق الاقتصاد وهدانا الكتاب العزيز والسنة النبوية اليه ، وبرهنت اقوال السلف الصالح عليه ، وذلك ان الاقتصاد مركب من بذل وامساك ، بحيث لا يبسط المرء يده كل البسط حتى لا يبقى فيها شيئا ولا يقبضها كل القبض حتى لا يخرج منها شيئا ، بل يقيم البنية بحسب وفره ، على قدر غنــاه

وناموسهم معدودة من الحقوق الشخصية فلا يمكن ان تختل او تنقص رعايتها ولو بسبب الحرب . وصرح ايضا فى مادة (369) بانه لا تجوز محاربة اقوام عائشين فى العالم لسبب توسعة دائرة تقدمهم ومع اجتنابهم الاضرار بغيرهم وقال ايضا ، ان المتغلب فى مملكة بوجه الثورة لا تعتبر معه معاهدة ولا معاملة الا بعد ايام الاعتراف به من الدول واتفاق الامم . وكذلك صرح فى مادة (441) بان قانون الجنود اذا استولوا بالقوة على قوم واحتاجوا للمؤن فلا يحمل على الاهالى الا ما يطيقونه ، ومن اللازم ان يكون ذلك بالاعتدال . ونص على ان القوة يجب ان تكون على نسبة المستولى عليهم ، ولا يرتكب فيها مالا يطاق من الدواهى الماحقة والا فهى من خوارق القانون . فهذه القرارات التى سجلها قانون المدنية والانسانية توجب الوقوف مع حفظ حقوق الاهالى ولو بعد الحرب . وعليه فالمحميون فقط يكونون احق بما ذكر من كمال الرعاية ، واولى بمراتب فى جميع ذلك ، حتى لا يغشاهم من النوائب غيهب ذلك » .

ولا يخفى ما فى هذين النموذجين من افكار سياسية صائبة ، وتوجيهات صحيحة فى الحكم والادارة — الى ما يتضمنانه من نقد للوضع القائم بعد الحماية وتعريض بتصرفات المسؤولين ، مما يدل على يقظة فكرية عظيمة وغيرة وطنية كبيرة . والمهم هو الاسلوب الذى اديت به هذه الافكار ، فهو اشبه باسلوب الصحافة السياسية التى يكون وكدها وضوح الفكرة وقوة الحجة ، لا تنميق الالفاظ وزخرفة الكلام ، والعجيب ان يكون هذا اسلوب كاتب تعود منذ نشأ على تحبير الرسائل والمنشورات بطريقة النثر الفنى المثقل الحواشى بالمحسنات والبديع . ولكنا نعرف ان ذلك احد مظاهر التطور الذى طرا على الحركة الادبية فى هذه الفترة من الزمن ، وان ابن المواز صاحب هذين النموذجين من اصدق امثلة ذلك التطور .

ومن المقالات فى الشؤون الاجتماعية وغيرها ما كتبه محمد السليمانى (ت 1344) فى موضوع التبذير والاسراف ، « علمتنا الشريعة السمحاء طرق الاقتصاد وهدانا الكتاب العزيز والسنة النبوية اليه ، وبرهنت اقوال السلف الصالح عليه ، وذلك ان الاقتصاد مركب من بذل وامساك ، بحيث لا يبسط المرء يده كل البسط حتى لا يبقى فيها شيئا ولا يقبضها كل القبض حتى لا يخرج منها شيئا ، بل يقيم البنية بحسب وفره ، على قدر غناه

وثمره ، مع حفظ حصة من كسبه يعدها للعوارض الغير المنتظرة ، فاذا جمع الانسان بين الامساك عما لا يلزمه والبذل فيما هو احوج اليه ، فقد حاز فضيلة الاقتصاد الممدوح على لسان صاحب الرسالة العامة (ص) بقوله الاقتصاد نصف المعيشة وبيانه ان المعيشة تقوم بأمرين الكسب والاقتصاد فى انفاق ثمرته ، فمن حصل على المال فقد حاز احد الامرين ، فان لم يحز الامر الآخر وهو حسن التدبير فقد نصف معيشته .

وبما ان الانسان ولوع بالتنويع فى مقتنياته ، لا يقف عند حد فى تنفيذ شهواته ، صار يظن ان التنويع فى الاحتياجات البشرية من ضروريات الحياة . فمهما توفر لديه الكفاف من الغذاء واللباس طمحت نفسه لتنويع المآكل واقتناء مالا يحتاج اليه من الملابس وغيرها . وقد قيل من اشترى مالا يحتاج اليه اضطر لبيع ما يتوقف عليه ثم اذا نالت نفسه متمناها ترقت الى عمارة المسكن وتنميقه بأحسن الرياش وما يتبعه من مظاهر البذخ والابهة وبذلك تتصل مقتنياته فى تتابعها وتعددها وتصير سلسلة متصلة الحلقات مع انه لا يستفيد منها الا بقدر احتياجه . نعم لا ننكر ان الرجل حر فى ماله يفعل فيه ما يشاء وينفق منه كما يريد ، لكن ينبغى ان يكون ذلك بما يناسب حاله لان المناسبة بين الثروة والنفقة اصل من اصول الاقتصاد الذى هو وصف كل عاقل يتأسف كلما راى الامة على ما هى عليه من القلة وتعذر اسباب نمو الثروة ، ومع ذلك فقد فتحت على نفسها بابا من الفقر تلجه باختيارها وارادتها بدون قاهر ولا قاسر ، وهو باب التبذير والاكثار من لوازم الرفاهية وضروب الزينة وما يكسبها الظهور الكاذب بلا نفع ولا طائل .

يرى مرتكبوا الاسراف والتفنن فى الانفاق ان سيرتهم تجعلهم من ذوى النعمة واليسار ، والعزة والفخار اعتمادا على انها سنة الامم المتمدنة والشعوب المثرية ، مع انها بالنسبة لحالة البلاد داعية الفقر . ومجلبة الشر فان الامم المتمدنة وان انفقت الاموال الكثيرة فى تشييد القصور ، وتنميق الابنية والدور ، واقتناء فاخر الاثاث وبديع الرياش ، فان ذلك على نسبة مخصوصة من ايراداتهم الحائزين لها بالكد والاجتهاد ، واتقانهم اسباب المكاسب العديدة ، والمصنوعات المفيدة التى تكسب صاحبها فى

اقرب وقت لثروة واسعة . على ان هؤلاء المتمدنين نراهم يجيزون الانفاق من راس المال الا اذا مست ضرورة لا محيص عنها ، ومع ذلك فان نفقاتهم لا تتجاوز حد اللزوم ولا تخرج عن دائرة احتياجاتهم . اما نحن فقد ركبنا متن الشطط وحملنا انفسنا مالا نطيق . يصرف الواحد منا فى كل يوم اضعاف مدخوله فى زوائد الشهوات وفضول المتاع . ما ذاك الا لاننا رأينا ابواب الانفاق مفتحة فولجناها قبل ان نجد عقلا يقدر لنا ما يلزم منها ومالا يلزم ، وطلبنا التملى بها بدون ان نجوز ما يوصلنا اليها من انفسنا ، وليتنا قبل ان نشيد بيوتنا بالارتفاع الشاهق والتنميق المحكم ونزينها بأنواع النقوش والفرش والاثاث شيدنا فى عقولنا الافكار وزينا انفسنا بالفضائل من رحمة بالضعفاء ورفق بالملهوفين ، واسسنا الشركات التجارية والصناعية التى يعم نفعها الوطن ويستفيد منها اهله . فلو قدمنا هذه الزينة الجوهرية على ذلك الرونق الصورى لكان العالم باسره ينظر الينا نظر المعظم المبجل ولكانت معيشتنا البسيطة اوقع فى نفسه من المعيشة الرفيعة التى لا تناسب ضعف حالنا بوجه من الوجوه »

ومنها مقالة فى الرياضة البدنية لمحمد الاوراوى (ت 1350) .
« الرياضة البدنية فن من فنون التربية وحفظ الصحة ، وقد عنى بها قدماء اليونانيين وعدوها قسما من اقسام التربية الاولية ، فجعلوا الموسيقى لترويح النفوس وتهذيبها والنحو لاصلاح الالسنة وتقويمها ، والرياضة لتنمية الاجسام وحفظ صحتها ، وكانوا يعتنون بأمر الرياضة اكثر من غيرها فشيدوا لها الاماكن الضخمة واتخذوا كل وسيلة لتعميم مبادئها بين الناس ، حتى يكثر الاقبال عليها والاهتمام بشأنها . والغاية الوحيدة التى كانت تبعثهم على ذلك هى حفظ صحة الجسم وتنمية قواه الحسية والمعنوية .

ثم لما سقطت دولتا اليونان والرومان وانطوت ايامهما على ما كان لهما من مجد وعلم ، تقلص فى جملة ذلك فن الرياضة ، وانزوى فى ثوب الاغفال والاهمال الى ان جاءت دولة العرب فاحيته مع ما احيت من علوم القدماء ولما جاء دور الحضارة العصرية وبزغ نجم العلم بافق اوربا كان لهذا الفن رواج كبير وانتشار زائد تاسست بسببه الجمعيات والمنتديات

الخاصة به فى سائر الاماكن والجهات .

اما نحن معشر المغاربة فقد اهملنا الرياضة البدنية بكل اسف اهمالا كليا حتى انك تجد الواحد منا فى عنفوان شبابه ومستقبل عمره ، وهو يشتكى من ضعف قوته وخور همته وقلة نشاطه وتكدر جو صحته ، كأنـه فى طور الشيخوخة والهرم . والسبب الوحيد فى ذلك هو ترك الرياضة البدنية .. وتجد الواحد منا اذا سار يوما لضرورة ما مسافة بعيدة فـى الجملة على رجليه ، بات ليلته يئن مما لحقه من التعب ويتقلب على فراش الالم ، كأنه سار من شرق الارض لغربها وقطعها من شمالها لجنوبها ، ولا موجب لذلك سوى ترك الرياضة البدنية .

مدننا صغيرة المساحة متقاربة الاطراف ، ويخرج الواحد منا من منزله الى متجره او مصنعه او مكتبه ، فلا يقطع بينهما مسافة كبيرة تكون له فيها بعض الرياضة بل ينتقل من سكون الى سكون ويظل مقيدا فى محل اشغاله بقيود الاعمال فاذا كانت اشغاله داعية الى القيام والقعود والنزول والصعود فان ذلك ربما يقوم فى الجملة مقام الرياضة ، واذا كانت بخلاف ذلك تقتضى سكونا وقلة حركة فان ذلك مما يضر بجسم المرء وصحته لان ترك الرياضة البدنية يؤثر فى سير الدورة الدموية ويعوق الهضم ويجعل الانسان فى ضعف زائد وخمول دائم . ولذلك ترانا دائما كسالى نقوم من النوم كسالى ونرجع كسالى ، كأننا مصابون بمرض مزمن ولا علة الا ترك الرياضـــة البدنيـــة .

ان الجسم البشرى اشبه بسيارة بخارية واعضاؤه بمنزلة آلاتها ، ولا شك انه اذا مضت عليها ايام فضلا عن اعوام بـــدون استخـــدامهـــا واستعمالها فانها تصدأ طبعا وتطرأ عليها علة التعطل والفساد ، وكذلك اعضاء الجسم اذا طال سكونها ولم يستعمل كل واحد منها فى وظيفته ، فانه يلحق الجسم اعتلال واختلال على نسبة اهمية ذلك العضو من مجموع هيكل الانسان . ومعلوم ان لكل عضو رياضة تخصه فاذا فقدها فقد صحته الطبيعية : وللقارىء ان ياخذ مثالا لذلك حالة اسنان اهـــل الحـــواضر والبوادى فان هؤلاء تدوم لهم اسنانهم واضراسهم صحيحة قوية ، وان

طعنوا فى السن واشتعلت رؤوسهم شيبا . واولئك تتآكل اسنانهم وتتساقط اضراسهم فى شبابهم واول كهولتهم ، وما ذلك الا لان اهل البوادى ياكلون خبز الشعير والذرة وغيرهما من الماكــولات الجاسية فتتــروض بذلك اضراسهم ولا يصيبها التلف . واهل الحواضر حين مالوا الى الترفه والتنعم اختاروا من المأكولات الينها والطفها ففقدت اضراسهم بــذلك الرياضــة الواجبة واسرعت اليها الآفات .

فلنعتن بالرياضة البدنية على العموم وليخصص كل واحد منا لنفسه يوميا وقتا معلوما يقوم فيه بنوع من الرياضة لجسمه ، فان ذلك مما يفيد افادة محسوسة فى حفظ صحته وتجديد قواه » .

ان هذين المثالين كافيان فيما نظن لاعطاء فكرة عن المقالة التى كان ميلادها من مظاهر التطور الذى طرا على النثر فى هذا العهد . وهو تطور يشمل الشكل والمضمون معا ، بالنسبة اليها خاصة . ففى الشكل نجــد الكاتب لم يبق معنيا برصف العبارات وتكرير الجمل بل وجه عنايته الى اداء المعنى وبلوغ القصد من غير لف ولا دوران ، فالعنوان يحدد الموضوع ويمنع الاستطراد ، والادلة منتزعة من صميم الواقع لا من نسج الخيال . وبلاغة الفصل والوصل لا تتحكم فى سياق الكلام فقد صار مــن المالوف الوقوف عند عدة مقاطع واستئناف الحديث بان او غيرها مما يجىء فــى ابتداء القول تنشيطا للقارىء وهذا الى استعمال بعض التراكيب القلقة التى شاعت فى انشاء المحدثين كتركيب (العوارض الغير منتظرة) وتركيب (فقد اهملنا الرياضة بكل اسف) بله الالفاظ والمصطلحات الجديدة كدور الحضارة العصرية والدورة الدموية وغير ذلك . وفى المضمون لا يخفى ان موضوع المقالة الاولى وهو التبذير والاسراف موضوع قديم ، ولكن الطريقة التى تناوله بها الكاتب فيها كثير من التجديد نشأ عن تطور الافكار واختلاف وجهة النظر عما كان عليه الحال قبل ، فى تناول مثل هــذه الموضوعات الاجتماعية . فهو لم يسلك الطريقة الخطابية ويجعلها اساسا لذم التبذير والاسراف ، وان ابتدا كلامه بالاستشهاد بالشريعة والكتاب والسنة ، ولكنه ركز موضوعه على بيان فوائد الاقتصاد فى النفقة ومضار الاسراف ومقارنة حال الامة بأحوال المتمدنين واظهار الفرق العظيم بينها وبينهم فى

عظيم ثروتهم وحرصهم على الاقتصاد ، بعكس ما هى عليه من الاقـلال والتبذير . ثم زيف راى الذين يظنون ان العظمة والمجد فى التظاهر بالثروة والانغماس فى الترف ، وبين ان العظمة الحقيقية فى الجد والعمل والتمسك بالفضائل وخدمة الوطن بما يعود نفعه على العموم . هذا هو الجـديد فى الموضوع وهو الذى يناسب ما كانت تتخبط فيه الامة عهدئذ من مشاكل اجتماعية ولا تهتدى الى التفصى منها طريقا .

اما موضوع المقالة الثانية وهو الرياضة البدنية فهو موضوع جديد بلحمته وسداه ، ولا شك انه يمس واقع الامة من ناحية اخرى وهى الناحية التربوية وان كان انما الم بذلك الماما ظاهريا لضعف مادته ولكنه على كل حال يشهد بما قلناه من تطور النثر فى ضمن المقالة .

وكان بودنا ان نعرض مقالات اخرى فى موضوعات مختلفة ، الا ان ضيق المقام يمنعنا من ذلك . ولكن نوعا آخر من انواع المقالة وهو المطعم بلقاح من الثقافة الحديثة لا بد لنا ان نعرض مثالا منه لتتمة الحديث عـن نشأة المقالة فى الادب المغربى ، لا سيما وقد كان هذا النوع عزيزا فى هذا العهد لان جل المثقفين ثقافة حديثة انما تفتحت براعمهم فى العهد الذى يليه. والمقالة التى نقدمها الآن هى من انشاء عبد القادر الوزانى ، وهو مـن الطلائع الاولى للكتاب المزدوجى الثقافة . وموضوعها الاقتصاد السياسى، تعاريفه ، آراء العلمـاء فيـه :

« قال الاستاذ سميث فى كتاب ثروة الامم ان الاقتصاد السيـاسى باعتباره فرعا من علم يختص برجال الدول وارباب الاشتراع ، له غرضان، الاول ان يهىء للامة دخلا وافرا ويمهد لها طرقا واسعة للكسب والتحصيل. الثانى ان يوفر للدولة والجماعة دخلا معينا يكفى لتسديد نفقات مصالحها العامة ، فيكون غرضه حينئذ انماء ثروة كل من الحكومة والرعية معا . فالاستاذ سميث لا يعتبر الاقتصاد السياسى علما بالمعنى الذى يؤديـه مدلول هذه اللفظة بل انه يعده فرعا من السياسة كما يشف عنه قولـه باعتباره فرعا من علم يختص برجال الدولة وارباب الاشتراع .

ويذهب غيره من علماء العصر الى أن الاقتصاد السياسى هو مجموعة

قواعد الادارة المالية فى المملكة . وهذا الاستاذ روسيت سماه (علم الثروة) وقد اكثر العلماء الفرنسيون القول فى المباحث الاقتصادية وبالاخص ما كان منها فى الاقتصاد السياسى ، وعنوا بتدوين وجمع القواعد المتعلقة بالثروة العمومية ، وهو ما حدا بالبعض منهم اعنى الاستاذ باتيست ساى الـى التفريق بين السياسة والاقتصاد السياسى قائلا ، ان السياسة علم ترتيب الجماعة البشرية ، والاقتصاد السياسى علم كيفية تحصيل الاموال اللازمة لحاجات الاجتماع وتوزيعها وانفاقها اذ ان الاموال مستقلة بجوهرها عن مسألة نظام الاجتماع البشرى . ومن هنا يمكن القول ان الاقتصاد السياسى هو العلم الذى يبحث فى منافع الجمعية البشرية ففى اية دولة عاشت الاقوام وتحت اى سماء تساكنت فهى تتعاطى اسباب المعيشة بحسب قواعد طبيعية ، الافعال فيها مرتبطة باسبابها ونتائجها . فهذا التسلسل الذى يتعلق بطبيعة الاشياء هو ما يرمى هذا العلم الى التعريف به .

هذه خلاصة اقوال الاستاذ باتيست ساى فيما انتهجه من التعريف بهذا العلم وابداء رايه فيه ، بيد انه اخذ عليه فى ثلاث نقط من مادة هذا التعريف نلخصها بغاية الايجاز .

المادة الاولى — ان تعريفه غير مقرر كون احوال العمل والكسب بل والاخذ والعطاء ذات قواعد ثابتة مرتبطة بهذه الاشياء نفسها بل انها احوال قابلة للتغير بتغير هيئة الاجتماع وحالة الاقليم وعوامل الظروف . فالاقتصاد السياسى لا ينفك الا بمزيد الصعوبة عن علم نظام الجمعيــة البشرية وان المبادىء الاقتصادية التى يقررها علماء الاقتصاد هى فى الاعم متعلقة بشؤوننا المدنية واحوالنا الاجتماعية .

المادة الثانية — ان هذا التعريف مبهم جدا وقاصر من جهة المنع فان الكسب والتحصيل والانفاق والتوزيع كلمات متسعات المعـانى كثيرات المناحى متناولات للفنون الصناعية والزراعيــة والعلميــة . والاقتصــاد السياسى لا تعلق له بوسائل الاكتساب ووجوه التحصيل بل يبحث فـى كميــة الحــاصلات .

المادة الثالثة — ان التعريف المشار اليه لا يفرق بين الثروة الطبيعية

والثروة الصناعية والاجتماعية فان المواد الطبيعية التى يستمدها الانسان وتفيضها الطبيعة على المجتمع البشرى ليست من غرض علم الاقتصاد السياسى لان موضوعه البحث فى الكمية لا فى مقادير النفع بل فى القدرة ودخولها تحت المبادلة التى هى وحدها موضوع هذا الفن لان العلم من حيث هو لا يبحث فى احتياجات الانسان بل فى نتيجة الاحتياجات التى يحكم الانسان بتعيينها ويندفع طالبا لها .

على ان هناك من رام تعريف العلم بانه نتائج عمل الانسان . وعرفه الاستاذ كونديلياك بانه فلسفة التجارة او علم المبادلات ، فاحتذى البعض هذا التعريف ظانا انه يصير به علما مستقلا ، لكنه الفى غير واف بالمعنى تماما .

وخلاصة القول ان الاقتصاد السياسى لم يكن وضعيا بل كان ولم يزل عبارة عن مجموعة معلومات اولدتها الخبرة ودل عليها التحقيق الفلسفى ، ثم استنبط منها قواعد متعلقة بالكسب والمبادلة فى التجارة والصناعة ، مع التعريف بحقائقها لاجل هداية الدول والرياسات اليها وتيسير حصولها عند ما تدعو الظروف اليها على ان كثيرا من هذه النتائج المستفادة من مادة علم الاقتصاد السياسى والمفيدة لرجال السياسة لا تكاد تفيد الفائدة المرجوة الا فى الوسط المتمدن او بين الشعوب الراقية كالشعوب الاوربية التى يجرى كل ما فيها من التعاليم والاوضاع على اساس التنظيم والترتيب فى كل شىء كيفما كانت حيثيته او مثابته ، حتى لكان هواء تلك الآفاق تنظيم وترتيب وحتى لكانه اليها يشير ابو الطيب المتنبى فى قوله :

اذا تهب الرياح النكب من بلد فما تهب بها الا بترتيب

وبما ان قواعد هذا العلم ادبية اكثر مما هى مادية فان من خصائصه عدم امكان الحصر لا فى شىء من تعاريفه او حدوده لانه من حيث تعلقه بكثير من الفنون اخصها علم النفس يطرا على موضوعاته من الامور مالا يمكن الرجوع فيها الى تقدير بقيمة او كمية الا حسب رغبة شخصية . ومن البديهى ان هذه الرغبة حالة نفسية لا تدخل تحت حصر او تحديد كما

ان اكثر المعاملات يكون على الاغلب عائدا الى الثقة ، والثقة الى اعتقاد الشخص وهذه امور تختلف بحسب اختلاف الظروف خصوصا ما دار منها على الاشياء الكمالية التى تكاد تكون مدار التجارة العصرية .

ومع ما تقدم فان الاقتصاد السياسى يحتوى على اصـــول وقضايـــا اجتماعية ومبادىء فلسفية ومناح سياسية ، غير ان كيفية ربط هذه الفنون وترتيبها تحت دائرة تعريف مادة الاقتصاد السياسى مما لا يمكن جعل اصوله مطردة على وضع خاص ، وان يكن الفن من حيث هو دليلا عظيما على قوة مادة فكر الانسان فى التوليد والاختراع . ولا خلاف ان الجمعية البشرية قد جنت من ورائه فوائد جليلة ومبادىء مهمة وان الفضل الاكبر لتعاليمه فيما حله علماء العصر من مشاكل معضلة لم يكن لمن تقدمهم قبل بحلها » .

ولسنا فى حاجة الى المقارنة بين هذه المقالة واللتين قبلها فانها بمادتها الخصبة واسلوبها العلمى الذى تفرضه الترجمة لاقوال علماء الاقتصاد الاجانب ، قد تحدد فيها التعبير عما تضمنته من معان وافكار فلم يزد شيئا ولم ينقص عن المراد ، وهى فوق ذلك تدل على طواعية اللغة للكاتب الذى استطاع ان يؤدى حقائق الاقتصاد السياسى بهذه السهولة فى وقت مبكر جدا من الاطلاع على هذا العلم لا فى المغرب فقط بل فى العالم العربى اجمع . وان كنا لا ننكر ان بعض التعابير خاصة فيما يتعلق بالترجمة غير دقيقة ، ولكن يكفى ان نعلم ان الوقت الذى نشرت فيه هذه المقالة وهو عام 1921 كان اول مجمع لغوى عربى — وهو مجمع دمشق — ما يزال فى طـــور التاسيس والمصطلحات العلمية والفنية ما يزال امرها فى غاية الاهمال ، فالكتاب الذين يطرقون موضوعا جديدا مثل هذا سواء فى المشرق او المغرب انما كانوا يعتمدون على اجتهادهم فى ايجاد اللفظ المطابق للمعنى الجديد ، وقد يوفقون فى ذلك وقد يخطئهم التوفيق ، وفوق جهدك لا تلام .

ومن نماذج الخطب فى الشؤون الاجتماعية هذه الخطبة لمحمد السائح وقد القاها فى حفل مدرسى : « ابناء وطنى الكرام . ان المغرب اليوم غيره بالامس ، وان ما يرسم فى برنامج مستقبله لموميء الى مرام بعيدة وان النظر فى العواقب ثمرة العقل ، وانه يتمثل امام عينى مستقبل ليست الحياة

فيه بالامانى التى هى احلام المتيقظ ، وانما هى بنتيجة واحدة قد اندرجت فيها كل المقدمات ، وبمقصد واحد قد انطوت تحته كل الوسائل ، الا وهو العلم . فعلى كل فرد منا ان يجعل هذا نصب عينيه ، وان يبذل النفس والنفيس فى تغذية ابنائه بلبان العلم حتى يتعزز جانبهم ويقووا على حفظ كيانهم ودينهم ولغتهم وجميع تراثهم . فالعلم يحرس الدين ويسهر على حياة اللغة ويصون المال والولد ، والولد اذا لم يشب على العلم لا يلبث ان ينفض يده من تراث ابيه قبل ان ينفضها من ترابه . . وقد انثالت علينا العلوم فى هذا العصر بكل سبب ، وانسلت الينا من كل حدب ، وما كنا لنوليها انحرافا ولا لناخذها جزافا ، فعلينا بتقديم الاهم منها فالاهم بسبب مقتضيات الظروف ، واستنبات ما تبكر اثماره وتتبسم لاول الربيع ازهاره ، وليس من الراى ولا من الحزم الاشتغال بما تقل جدواه منها وترك مالا نهتدى الى سبيل الحياة الا به .

وهنا نقطة يحق الالتفات اليها وهى ان كثيرا من الناس يرمون المغاربة بوصمة الجهل الذى لاداء ادوا منه ، وليت شعرى لماذا ؟ فنحن اذا نظرنا بعين الانتقاد فيما لديهم من العلوم والمعارف تجلت امامنا امة ربا من الفقه والعربية والتاريخ والحساب وغير ذلك ، ولديها كفايتها من الصنائع والحرف المهمة . ولكن يعوزها شىء واحد وهو العناية بعلوم العصر من الطب والهندسة ومزاولة العلوم الصناعية والميكانيكية . ولا ارتاب فى ان هذه العلوم قصيرة المدى قريبة المحيط من المركز بالنسبة الى علومهم الجمة التى تنقطع الاعناق دونها . فبمجرد ما نجعل لانفسنا سهما منها نصبح وقد شاركنا امم الارض فى علومهم وفضلناهم بمعلوماتنا الاخرى . لا تقل ان هذا الامر يحتاج ويحتاج . . لان له طرقا تفضى اليه واسبابا تدنى منه ورايى ان كل ما كانت له وسائل . فهو سهل التناول سيما وليس شىء من تلك العلوم بدخيل فينا ولا بأجنبى عنا ، بل هو والله من علوم آبائنا الاولين طالما اشتغلت به افكارهم . ودونته اقلامهم ولكم كان فى الاسلام ، من علماء اعلام برزوا فى الجغرافية والفلك والطبيعيات والهندسة وسائر العلوم الرياضية . ولقد اصلحوا واستدركوا على الاوائل من المخترعات ما استدركوا ثم قدموا علومهم الى العالم طعمة شهية ، فعنهم اخذ الافرنج ارقام الحساب وعلم الجبر والمقابلة الذى هو من وضع العرب ، واخذوه

باسمه ومسماه . ولقد كانت لهم اليد الباسطة فى علم الطب والصيدلة والكيمياء ، وعنهم اخذها الاوربيون وبرعوا فى الجراحة حتى كان النساء بالاندلس يباشرن كثيرا من العمليات الجراحية لامثالهن من الاناث افلا نسترجع سالف مجدنا ، وآثار اجدادنا ، بهمتنا وجدنا ، واليكم معشر التلامذة بساق الحديث ، فانتم رجال المستقبل ، وعليكم نعلق الامال ، فاجهدوا فى تحصيل العلم ، واجعلوه اهم مطالبكم ، فان قيمة كل امرىء ما يحسن ، وان كل عز لم يؤيد بعلم ، فالى الذل يصير » .

وهذه خطبة سياسية لمحمد بن عبد الكريم الخطابى بطل الثورة الريفية يستحث فيها همم المواطنين الى الجهاد .

« اخواننا المسلمين ، ندعوكم باسم الرابطة الدينية أن تهبوا جميعا الى فك رقابكم من عدوكم الذى يريد ان يستعبدكم بالكيد والعدوان ، انه والله لخزى عظيم ان يخضع المسلم لعدوه وعدو دينه ، وان يحتمى بحماه ، فان كان هذا طمعا فى رضاه فالله عز وجل يقول : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » وان كان خوفا من سطوته « فالله احق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين » . وانكم تعلمون أن الفوز والنصر للحق وهو فى جانب المسلم الذى يحامى عن دينه ووطنه ، وان كلمة الله هى العليا ، وحزب الله هو الغالب لا محالة ، طال الزمان ام قصر ، فقوموا قومة رجل واحد واعقدوا الخناصر على مناجزة العدو فقد اصبح على شفا الهلاك ، وعما قليل ينخذل الخذلان الاخير ، ويسقط السقوط الابدى الذى لا نهوض له منه ، وينسحب مطرودا عن هذه الارض الشريفة التى ما بقى له فيها مقيل ولا مقر .

ولولا اعتماده على بعض اخواننا الذين باعوا شرفهم ودينهم بثمن بخس دراهم معدودة لاصبح من زمان هشيما تذروه الرياح على هاته الجبال والبطاح . لكنهم وقفوا عقبة فى وجهنا وحاجزا يمنع وصول ضربتنا القاضية اليه ، واى مقت اكبر من ان يقف المسلم بجنب عدوه وعدو دينه يحارب اخاه المسلم ؟ لعمر الحق ان هذا لهو الشقاء الفظيع والعار الشنيع ومع ذلك فانا نود لهم الخير ونرجو أن يراجعوا بصيرتهم ، ويلهموا واجبهم

باسمه ومسماه . ولقد كانت لهم اليد الباسطة فى علم الطب والصيدلة والكيمياء ، وعنهم اخذها الاوربيون وبرعوا فى الجراحة حتى كان النساء بالاندلس يباشرن كثيرا من العمليات الجراحية لامثالهن من الاناث افلا نسترجع سالف مجدنا ، وآثار اجدادنا ، بهمتنا وجدنا ، واليكم معشر التلامذة يساق الحديث ، فانتم رجال المستقبل ، وعليكم نعلق الامال ، فاجهدوا فى تحصيل العلم ، واجعلوه اهم مطالبكم ، فان قيمة كل امرىء ما يحسن ، وان كل عز لم يؤيد بعلم ، فالى الذل يصير » .

وهذه خطبة سياسية لمحمد بن عبد الكريم الخطابى بطل الثورة الريفية يستحث فيها همم المواطنين الى الجهاد .

« اخواننا المسلمين ، ندعوكم باسم الرابطة الدينية أن تهبوا جميعا الى فك رقابكم من عدوكم الذى يريد ان يستعبدكم بالكيد والعدوان ، انه والله لخزى عظيم ان يخضع المسلم لعدوه وعدو دينه ، وأن يحتمى بحماه ، فان كان هذا طمعا فى رضاه فالله عز وجل يقول : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » وان كان خوفا من سطوته « فالله احق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين » . وانكم تعلمون أن الفوز والنصر للحق وهو فى جانب المسلم الذى يحامى عن دينه ووطنه ، وان كلمة الله هى العليا ، وحزب الله هو الغالب لا محالة ، طال الزمان ام قصر ، فقوموا قومة رجل واحد واعقدوا الخناصر على مناجزة العدو فقد اصبح على شفا الهلاك ، وعما قليل ينخذل الخذلان الاخير ، ويسقط السقوط الابدى الذى لا نهوض له منه ، وينسحب مطرودا عن هذه الارض الشريفة التى ما بقى له فيها مقيل ولا مقر .

ولولا اعتماده على بعض اخواننا الذين باعوا شرفهم ودينهم بثمن بخس دراهم معدودة لاصبح من زمان هشيما تذروه الرياح على هاته الجبال والبطاح . لكنهم وقفوا عقبة فى وجهنا وحاجزا يمنع وصول ضربتنا القاضية اليه ، واى مقت اكبر من ان يقف المسلم بجنب عدوه وعدو دينه يحارب اخاه المسلم ؟ لعمر الحق ان هذا لهو الشقاء الفظيع والعار الشنيع ومع ذلك فانا نود لهم الخير ونرجو ان يراجعوا بصيرتهم ، ويفهموا واجبهم

الدينى والوطنى ، فيوثروا ما يبقى على ما يفنى ، ويستبدلوا رضا الله بسحطه ورحمته بغضبه من قبل ان يفوت الفوت ، ويعضوا اصابع الندم ولات حين منـــدم .

اخواننا المسلمين ، ان كنتم تريدون الخلاص والنجاة حقا ، وانتـــم اولئك المؤمنون الصادقون المصدقون بوعد الله . فتحركوا وانتبهوا مـــن نومكم الطويل . وكونوا انصارا لله مجاهدين فى سبيله بكل قوة . وقـــوة الايمان ما فوقها قوة . واغتنموا هذه الفرصة فقد ازفت ساعة النصر ، وجاء الفرج يبشر كل مؤمن جاهد ابتغاء مرضاة الله بالسعادة فى الدنيا والآخرة . ولا تكونوا من الذين خسروا انفسهم وسودوا تاريخهم بالخضوع للعدو من اجل الحصول على راحة موهونة ، والتمتع بعرض زائل ، فسحقا لها من حياة ينزل فيها المؤمن من سماء عزه وشرفه الى درك الذل والعبودية لخصوم لؤماء لا يرعون فيه الا ولا ذمة . ولا يرون لمسلم حقا ولا يقيمون له وزنا ، اما كفانا موعظة واعتبارا ما وقع لاخواننا بالاندلس وما آل اليه امرهم من العز الى الذل ومن الايمان الى الكفر . ففى مثل هذه الحالة يستعذب المؤمن الموت ويفضل العدم على البقاء . هكذا عهدنا اسلافنـــا وعرفنا من تاريخهم المجيد انهم لا يرضون الخضوع والمسكنة ، ولا يبتغون من الحياة الا ان يعيشوا احرارا ، ويموتوا ابرارا . ولذلك فان اخوانكم فى الريف على بكرة ابيهم يقاتلون عدوهم اللدود الذى كان يطمع فى بلادهم قبل اليوم ، واما الآن فقد ذاق وبال امره وراى عاقبته خسره مع انهم لا يبلغون عشر معشار قوته « وما النصر الا من عند الله » فكيف يليق بمن يروم العز والفوز ان يتقاعد عن الجهاد ، ولا يسارع الى نصرة اخوانه ، وانقاذ وطنه من ايدى الطامعين العابثين الذين يسعون فى الارض فسادا ولا يصلحون ؟ ما ذاك الا من ضعف الايمان وموت الهمم والرضا بالهـــوان ، والواجب على العلماء والوعاظ والخطباء الذين هم قادة الامة وهداتها ان ينصحوا العامة ويرشدوهم الى ما فيه صلاحهم وفلاحهم ويبينوا لهم ان الواجب عينى يطلب من كل فرد القيام به ولا يغنى فيه زيد عن عمرو ، والله المستعان ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

نرى فى هاتين الخطبتين كيف تطورت الخطابة اسلوبا وموضوعا ،

فقد كانت الى قريب من هذا العهد لا تكاد تخرج عن نطاق الخطابة الدينية، وكان المثال المحتذى فيها هو السجع والاستشهاد بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية وهذا ان يكن من شروط الخطبة الدينية ، فان السجع لم يكن قط من متطلباتها . لا سيما والمراد منها هو الوعظ والارشاد . فوجب اداؤها بعبارة اقرب ما تكون الى افهام العامة . ليس فيها تعقيد معنوى ولا اغراب لفظى . ولذلك فان اول ما درجت عليه الخطابة فى عهدها الجديد هو نبذ تلك الزخارف اللفظية والقصد الى الوضوح والبيان . ولا ننكر ان فى الخطبتين بقايا من هذا التفاصح . ولكنها قليلة وغير متكلفة . وهى من سرقة الطبع وغلبته على التطبع . وقد راينا امثالها فى النماذج النثرية الاخرى التى قدمناها من المقالة وغيرها . ونلاحظ تركيز الخطبة الاولى على الاشادة بفضل العلم والحث على طلبه . مصداقا لما قلناه سابقا من انه الشعار الذى كان ينادى به جميع العاملين ، فى فجر النهضة وامتازت هذه الخطبة باثارة نخوة الامة وعدم جرح كرامتها . وذلك بنفى وصمة الجهل المطلق عنها واثبات ان لها سهما صائبا فى العلم ولا ينقصها الا ان تضرب بسهم آخر فى العلوم الحديثة التى هى من آثار آبائنا الاولين . وذلك من لباقة الخطيب وحسن تأتية للامور . اما خطبة الامير ابن عبد الكريم فهى تشف عن قوة ايمانه وصدق جهاده وتنبىء عن واقع الثورة الريفية وارتفاع علمها على رغم المثبطات الداخلية والخارجية بما لا ينبىء عنه حديث ولو طال وهى على صراحة لهجتها فيها كثير من الديبلوماسية التى تليق بقائد حربى وزعيم سياسى فى نفس الوقت . ولعل اعتمادها على الجانب الدينى تارة والوطنى اخرى كان لقصد اثارة شعور القبائل وعموم المغاربة الذين يجعلون الدين فى المقام الاول من الاعتبار . على ان المستعمرين انفسهم كانوا يعتبرون القتال فى المغرب حربا صليبية مقدسة . والاسبان منهم بالخصوص كانوا يعملون فى احتلال المغرب على تنفيذ وصية ايزابيلا الكاثوليكية . وقد ساندهم فى حرب الريف طيارون متطوعون من ايطاليا واميركا . واخيرا دخلت فرنسا الى جانب اسبانيا فى هذه الحرب حتى انتهت بما هو معلوم من تسليم بطلها صاحب هذه الخطبة . فلا جرم ان يستغل هو ايضا الجانب الدينى من الشعور العام عند المواطنين ، وعلى كل حال فان اسلوب الخطبة مؤثر وانشاءها متدفق العاطفة الوطنية التى املتها . وهى حرية ان تعد من الخطب التاريخية فى ادبنا العربى .

وقد اطلنا فى الاستشهاد وايراد النماذج المبينة لتطور النثر فى فجــر النهضة على اختلاف الابواب والموضوعات وبقى من ذلك باب المحاضرات. وهو باب واسع يضيق المجال عن استيعابه . وقد كان مما قامت له سوق نافقة فى هذا العهد . وادى نادى المسامرات الذى أنشىء بفاس ومعهد الدروس العليا بالرباط خدمة عظيمة للنهضة الفكرية عن طريق المحاضرات العديدة التى القيت بهما من مختلف الشخصيات العلمية والادبية البارزة فى الوقت وبعضها مطبوع كمحاضرة عبد السلام السرغينى (ت 1354) فى السنة والبدعة ، ومحاضرة احمد النميشى عن تاريخ الشعر والشعراء بفاس ومحاضرة احمد الشبيهى فى العلم والعمل وغيرهــا ، فنكتفــى بالاحالــة عليهــا .

فجر النهضة

ـ 2 ـ

وننتقل الى الكلام عن الشعر ، وقد تطور هو بدوره فى هذه الحقبة تطورا ملحوظا ولا سيما فى محتواه ، فاصبح الشعراء يتناولون موضوعات جديدة مما يتعلق بالنهضة واحداث السياسة والمجتمع ، ويعبرون عن تجاربهم الذاتية بما يبرز عواطفهم وافكارهم على حقيقتها من غير تعمل ولا تقليد . وهذا الى التوسع فى شعر المناسبات بما ادخل عليه من معان ومبان وصور مبتكرة تعلقا بالتجديد ومجاراة لاحوال العصر وتصورات اهله . واذا كان الشعر من هذه الناحية قد تضخم وزخرت مادته فان الملاحظ انه من الناحية اللفظية قد جنح الى السهولة ، واخذ سبيل البساطة فلا غموض فى كلمة ولا ابهام فى تعبير ، حتى بلغ الامر ببعض الشعراء الى الاجحاف بحق الصياغة الفنية احيانا ، وليس ذلك من ضعف المادة اللغوية، وانما هو من تمثل روح العصر فى السماحة والتيسير . وكثر لذلك الشعر وطال نفس الشعراء واستعملوه فى كل غرض حتى كانت بعض الصحف تنشر اعلانات منظومة . وجمع النقيب ابن زيدان ديوانا ضخما فى خصوص ما قيل من قصائد المدح فى السلطان مولاى يوسف .

ولا نقول ان الشعر نهض نهضة حقيقية ونحن نرى ما بلغه فى الشرق العربى من التفنن والابداع ، ولكننا نقول انه تحول من المجرى الذى كان يصب فيه ، فلم يبقى قاصرا من جهة المعنى على اغراض القدماء بل اضاف اليها اغراضا حديثة ، ولا من جهة المبنى على القوالب الموروثة ، اذ تخفف من ثقلها كثيرا ، من غير ان يثور على الاوضاع التقليدية للشعر العربى او ياتى ببدع فى ماثوراته وهو فى ذلك يتاثر خطا الشعر فى الشرق العربى الذى كان ما يزال محافظا على العمود الشعرى وان بلغ غاية النمو والازدهار .

وهذا يعنى انه سار فى الطريق العام للنهضة الحديثة التى كانت تغزو بلاد العرب الواحدة تلو الاخرى ، ولا يعنى مطلقا اى مفهوم تقليدى كما يحلو لبعض الكتاب ان يجرح النهضة فى هذا الشعب او ذلك من الشعوب العربية فيجعلها تقليدا محضا لما سبق ان قام فى احدها من الدعوات والاتجاهات ، ذلك أن هذه الانتفاضة التى نعبر عنها بالنهضة العربية كانت منبعثة من اسباب وعوامل متشابهة فى كل بلد عربى ، وكانت انطلاقة للقوى الفكرية والعملية المذخورة فى نفس الفرد العربى اينما وجد ، وبالضرورة لا تتفجر العناصر فى آن واحد ، فذلك تيار النهضة كان يدفع الشعوب العربية بعضها قبل بعض ولكن فى اتجاه واحد ، ولكم جهد دعاة القومية الضيقة ومعهم اصحاب النظرية الاقليمية فى الادب ان يميزوا كل قطر عربى عن اخيه بمميزات لا وجود لها الا فى خيالهم ، واستحدثوا من المذاهب الفكرية والنقدية ما زعموا بانه سيكون قوام هذا التمييز ، فابت تلك المذاهب الا ان تتلاقى على صعيد وحدة الامة العربية والادب العربى النابع من صميم تلك الوحدة . وكما كانت المذاهب والآراء فى هذا الادب تنتقل قديما من عاصمة العباسيين فى العراق الى عاصمة الامويين فى الاندلس فاذا نبغ هناك متنبىء يقال له ابو الطيب نبغ هنا متنبىء آخر يسمى ابن هانىء ، واذا قيل هذه طريقة البحترى قيل بجانبها وهذه طريقة ابن زيدون ، فكذلك كان لادب المهجر والمهجرين حديثا صداه فى مصر وتونس والمغرب ولادب العقاد وطه رواده فى سوريا ولبنان ، ولا تقليد فى القديم ولا فى الحديث ولكنه تجاوب وتداع وتاثر وتاثر متبادل .

وقد سار المغرب فى نهضته الادبية على هذا الدرب ، وخطا خطواته الاولى نحو التطور الفكرى حسبما بيناه ورأينا نتائجه بالنسبة الى النثر فى النماذج التى قدمناها ، ونرى الآن نتائجه بالنسبة الى الشعر فى نماذج تتضمن المعانى والاغراض الجديدة التى عرض لها وتبرز ما استحدث فيه من اساليب وصيغ تعبيرية لم تكن معهودة من قبل ، فمن ذلك فى الحث على اليقظة والاخذ باسباب التقدم وطلب العلم والاصلاح الدينى قصيدة لمحمد السليمانى يقول فيها :

حماة الدين هبوا من سبات ... فمركزنا يؤول الى الخراب

تركنـــا الديـــن خلفا لا نبالى ولم نتـــرك لنـــا غير انتساب
يقول الشامتـــون هم اضاعوا كتـــابهم ويـــا حسن الكتـــاب
كتـــاب جـــاءنـــا للحق يدعـــو وينذرنـــا مفـــاجاة العـــذاب
امـــا ترك الرسول لنـــا وصايا تقـــود المسلمين الـــى الصواب
فطال العهـــد واخترنا سواها ويـــا لحياتنـــا يـــوم الحساب
رضينـــا الغى حتى لا فصيـــح اذا مـــا قال سرك فى الجواب
ولا احد من اهل العلـــم منـــا يقيـــم لسانـــه عند الخطـــاب
وفخفخـــة المعمم كيف تجـــدى وهل تغنى القشور عن اللباب
فوا اسفا على حـــال حدتنـــا الى ان اوقعتنـــا فى تبـــاب
فلا مال يصـــون لنـــا حيـــاة ولا عضـــد يساعد فى الصعاب
مصانعنـــا الـــم بهـــا فســـاد فأصبحت الضائـــع فى اضطراب
وســـاد علـــى تجارتنـــا كساد فراس المـــال منخـــرم الحساب
وزاحـــم فى فلاحتنـــا انـــاس جنـــوا من ريعها عجب العجاب
ونحـــن ازاءهم فقـــراء نلقـــى بانفسنـــا بأحضـــان المرابـــى
زعانفنـــا ولا اخشى مـــلامـــا وان كثـــروا ذئـــاب فى ثياب
هم شبه الرجـــال ولا رجـــال مـــن الالباب فارغـــة الجـــراب
ومـــا زالوا يـــرون بـــلا حياء عطاء الله مـــن اهل القبـــاب
وهـــذا يا حماة الديـــن منكـــم فكيـــف جوابكـــم يـــوم المـــآب
بنـــى العلم الرعاة الا افيقـــوا فان الشاة فى وســـط الذئـــاب

هذه الصرخة الداوية لعلها ان تكون خطبة ميدان اكثر من ان تكون قصيدة شعر ، ولكن اذا عظم الخطب وعم البلاء فان كل الجهود يجب ان تصرف الى ما يقى الامة عاقبة السوء وشر المصير ، فالكتـــاب يجندون اقلامهم والشعراء يشحذون قرائحهم لتجسيم الخطر والتنبيه على طرق اجتنابه ، وهذا هو الالتزام فى اوضح صوره والادب الملتـــزم فى اصرح مواقفه ، وان تكن دعوته لم تخرج بعد الى حيز الوجود فى هذا الوقت . فالشاعر يخاطب حماة الدين وهم اهل العلم واصحاب الفضيلة ، مهيبا بهم الى النهوض لدرء الضرر وعلاج المرض ، وتذكير الامة بسيرة السلف الصالح التى تتمثل فى التمسك بالكتاب والسنة اللذين هما سبيل التقدم ومعراج الرقى ، فان سلفنا لما كانوا بهما متمسكين بلغوا الغاية من القوة والعظمة

والعزة والمنعة ، ونحن لما اعرضنا عنهما ونبذنا العمل بهما حل بنا التعس والشقاء ومنينا بالذل والهوان ، ثم يلتفت الى الحالة الاجتماعية فيرى آسفا — الفقر ضاربا اطنابه فى البلاد وذلك من اختلال امر الصناعة والتجارة والفلاحة ، ولا ينسى ان ينبه الى ما احرزه المعمرون الاجانب من نجاح عظيم فى فلاحة الارض لما زاولوها بالعلم والخبرة والجد والاجتهاد ، والى استغلال اصحاب رؤوس الاموال من المرابين الاجانب لجهلنا وتدهورنا الاقتصادى ، ويعرض بعد ذلك بما عليه الجمهور المغربى من جهل وغباوة وطلب النفع من غير وجهه وتعلق بالموتى واهل القبور من اصحاب الاضرحة والقباب ، ويحمل المسؤولية فى ذلك على اهل العلم الذين من واجبهم ان ينصحوا الامة ، ويدلوها على ما فيه صلاح امرها معاشا ومعادا ، فان ضيعوا هذا الواجب لم يكن لهم عذر ولا جواب امام الله والناس .

ونظن اننا لسنا بحاجة الى التنويه بصراحة لهجة الشاعر واللوعة التى تشيع فى كلماته معبرة عن اخلاصه وغيرته واشفاقه من الواقع الاليم الذى تعيشه امته فان ذلك مما تفيض به ابيات القصيدة وتنضح به كل مقاطعها ، ولكن الذى لا بد ان نشير اليه هو هذا الاسلوب السهل المتحرر والالفاظ الواضحة الدالة على مراد الشاعر من غير لى ولا تمشدق، فانه عرف ان الامر اهم ، والمقصود اعظم ، فنكب عن سبيل المجاز الى الحقيقة ، واخذ اللب وترك القشور رغبة فى الافهام ومبالغة فى اداء رسالته حتى لا يحول بينها وبين من وجهت اليهم حائل ما ، وهذا الى جانب الموضوع الجديد هو من التطور الذى طرا على الشعر فى فجر النضهة كما لاحظنا ذلك صدر هذا الكلام .

ومن قصيدة اخرى فى الموضوع لمحمد بن عبد الصمد كنون :

افيقوا من سبات طال جدا	وصونوا واحفظوا المجد عهدا
كفاكم ما احاط بكم كفاكم	فركن فخاركم والله هدا
انبلغ ما نروم من المعالى	وما فى الشعب من يرضيك قصدا
انرقى ذروة العلياء يوما	ولم نقدح من الاصلاح زندا
الا لا يبلغن المجد من لا	يكابد عمره تعبا وجهدا

كفى هذا التكاسل والتوانى كفى كم ننكر الاصلاح جحدا
نرى امم التمدن فى ارتقاء ونحن كأننا ننحط عمدا
فآه ثم آه ثم آه لشعب المغرب الاقصى المفدى

ومن ثالثة لمحمد النميشى خطابا للشباب :

العلم اجمل حلية الانسان فاسعوا اليه معشر الشبان
وردوا بشوق مترعات حياضية متسابقين تسابق الظمآن
وتنافسوا فى نيل كل فضيلة وتشبثوا بأوامر القرآن
فالدين اس صلاحنا ونجاحنا والدين اصل سعادة الاوطان
فان اتخذناه دليلا هاديا سلمت تجارتنا من الخسران
لكن فقد العاملين هو الذى ادى بنا لتواكل وتوان
ومتى وجدنا عاملا فوجوده لرقينا اذ ذاك كالعنوان

انهما دعوتان مخلصتان للنهوض والعمل ومجاراة الاحياء والاخذ بأسباب التقدم وطلب العلم الذى هو وحده سبيل النجاة ، مع الحض على التمسك بالدين والاخلاق والاسف لما آلت اليه البلاد من الانحطاط والتأخر بسبب فشو الجهل بين ابنائها ، وتكاسلهم عن السعى فيما يورث المجد ويكسب الحمد من اصلاح حال المجتمع ، والاهتمام برقى الوطن ماديا وادبيا حتى يبلغ الشعب ما يصبو اليه من الحياة الكريمة والعز والشرف . وقد كان لهما ولامثالهما المفعول القوى فى نفس الجمهور وحركة البعث التى عمت جميع المرافق ، فلم تقتصر على الناحية الادبية . بل شملت النواحى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية تصريحا وتلويحا ، وكل ذلك مما لم يكن الشعر يتناوله قبل وخاصة بهذا الاسلوب المعرب المبين المتراوح بين الذكرى والاعتبار والمقارنة بين ماضى الامة وحاضرها ، واستنهاض الهمم الى استرجاع ذلك المجد المفقود ، فالتطور الذى المعنا اليه مما لا خفاء به فى هاتين القطعتين ايضا .

والشعر فى هذا المعنى كثير وهو متقارب النفس مما ذكرنا ، ومنه ما خص الدعوة الى التعليم وتعداد فوائد العلم وعجائب مخترعاته ، ومنه ما عنى بالاصلاح الدينى ودم البدع ومهاجمة الخرافات ، والاشبه منه

بالشعر هو ما خص وعم ، وكان دعوة الى النهضة الشاملة كالامثلة السابقة ، فنكتفى بها ونتعرض الى موضوع آخر وهو اهتمام الشعر بتسجيل الاحداث الكبرى والقضايا السياسية وطنية وغيرها مخترقا بذلك الحدود والسدود التى كان الادباء يقيمونها حولهم فلا يحتفلون الا بالمعانى الذاتية وما كان من قبيل المناسبات العادية .

ومن اول التسجيلات فى هذا الباب قول ابن المواز متنبأ بوقوع الحرب العالمية الاولى قبل نشوبها .

وقائلة ما فى طوايا زماننا ؟	فقلت لها قولا لمن يتفرس
اراه بطول السلم قد ضاق صدره	فهم بزفرات بها يتنفس

وهى نظرة فلسفية للحرب تنبىء عن تفكير عميق ، وسبق الواقع فيها هو من زكانة الشاعر واطلاعه على احوال العالم فلم يبق ذلك الشخص البوهيمى المنقطع عن الناس والذى لا اهتبال له الا بالكاس والطاس كما يحلو لبعضهم ان يتصور الشاعر ولبعض الشعراء ان يكونوا بل صار انسانا يهتم بحياة الانسانية فيألم لما يؤلمها ، ويسر لما يسرها ويعيش فى مجتمعه عضوا عاملا بل رائدا من رواد امنه وخيره وسعادته .

ومن قصيدة لمحمد الجزولى فى انتصار الاتراك على اليونان :

ضراغمة الاسلام ارعبتم العدا	واسقطتم شيخا وراهم ترصدا
صددتم بكف الحزم صدمة جيشهم	واصلتم سيفا صقيلا مهندا
طعنتم بكف الحزم صدمة جيشهم	تداعى لها من جيشهم ما تشبدا
وصار هباء رغم انف عتاده	وانف عدو جاوز الحد فى العدا
عدو اتى الاسلام من خلف ظهره	فبيت فيه سيف بغيه مغمدا
وانزله من فوق عرش جلاله	واوثقه خوف النهوض وقيدا
وقدمه هديا على مذبح القضا	وهم ولم يقدر وعاد فأوعدا
تراجع يرنو للضحية ضاحكا	وقد يضحك الجزار من فتكة المدى
تراءى له فى فرصة فض جسمها	فأنشب فيه الظفر حتى تفصدا
والهى بجزء كل طالب قسمة	وبالقسمة الكبرى افتياتا تفردا

عليها عدا كالذئب يعدو شراسة ... ولكن سيف الله يقصم من عدا
فحين اتى الاوداج يفرى وكاءها ... تبدى له شخصا سويا مندددا
فمر بكف الرعب فوق جبينه ... وقد جحظت عيناه خوفا وارعدا
وقال اعاد الميت ينفض كفنه ... وهل شبح الاتراك عاد مهددا
نعم قد راى الرئبال ابرز مخلبا ... واظهر نابا كالسنان محددا
راى الاسد الضارى الذى كان رابضا ... تجمع ثم امتد وانحط مزبدا
وانشب فى اليونان نابا ومخلبا ... وعاد لما قد كان فيهم معودا
ومزقهم شطرين شطرا لسيفه ... وشطرا باغلال الهوان تقيدا
ثمان ليال بعد سبع تتابعت ... غدا جيشهم فيها طريدا مشردا
ترافع فيها الترك والروم للوغى ... وما حكموا فى الفصل الا المهندا
وقام على الخصمين يخطب مدفع ... اذا قال اما بعد ارغى وازبدا
فذابت جيوش الروم حينا كانها ... تماثيل ثلج فوق جمر توقدا
فهل سمع التاريخ قبل بمحفل ... باسرع من لحظ العيون تبددا
وهل سمع التاريخ عن دولة هوت ... على حين ان جرت من الكبر ابردا
ثعالبة اليونان عدتم لجحركم ... لرويتكم ارض الاناضول مأسدا
على حتفكم انتم بحثتم بظلفكم ... وبغيكم والبغى يصرع من بدا
ظننتم بان الحرب يوم وليلة ... ونزهة جيش جاءها متصيدا
وما الحرب الا ما رايتم وذقتم ... وما ذقتموه اليوم تلقونه غدا
فعودوا لاحجار البحار فلستم ... كاسد البرارى قوة وتجلدا

* * *

بنى الترك لا شلت يداكم ولا نبت ... سيوفكم عن راس من يكفر اليدا
بنى الترك ذدتم عن حمى الشرق اعصرا ... ولكن ذود اليوم صار مخلدا
بنى الترك كم تروى التواريخ مجدكم ... وقد زدتموها الآن سفرا مخلدا
ازلتم عن الاسلام شارة ذلة ... والبستموه من شهامتكم ردا
رفعتم له بين الممالك راية ... اذا انتسب النائى اليها تسودا
واقررتم عين النبى بفوزكم ... وقمتم مقام الصحب فى نصرة الهدى
وصيرتم وجه المسالم ابيضا ... وصيرتم وجه المحارب اسودا
فمن مبلغ ارواح آبائنا الالى ... بانا اعدنا المجد صرحا ممردا
ومن مبلغ من مات منا على الظما ... بانا روينا بعد حشرجة الصدى

كان الانتصار التركى على اليونان اعظم حدث وقع بعد الحرب العالمية الاولى بالنسبة للشعوب الاسلامية والدول الاستعمارية على السواء ، فان النكسة التى اصيبت بها تلك الشعوب غداة الهزيمة التى حاقت بجيوش الخلافة العثمانية واحتلال الاستانة عاصمة الاسلام من طرف جيوش الحلفاء ، كانت بمثابة القضاء المبرم على كل بعث اسلامى لا سيما وقد توزعت الدول الاستعمارية الكبرى بلاد العرب واصفقت كلمتها على اقتسام تركة الرجل المريض كما كانوا يسمون الدولة العثمانية حينذاك ، فلم يبق اى امل للعرب والمسلمين الا فى الثورة وامتشاق الحسام.

وقد ثار العرب فعلا فى سوريا والعراق ومصر ، وفى المغرب لم تخب نار الثورة فى الشمال والجنوب ، وفى قبائل الاطلس المتوسط منذ نزول الحماة البغضاء بارض الوطن ، ولكن هذه الثورات كانت تخمد بسرعة ، وما لم يخمد منها كان يرى مصيره الى الفشل حتما . فلما قامت الثورة الكمالية ، وألقت بجيش الاحتلال اليونانى فى البحر وارغمت جيوش الحلفاء على الانسحاب من العاصمة الاسلامية الكبرى ، انتعشت النفوس ، وانشرحت الصدور ، وعم الفرح جميع البلاد الاسلامية والعربية ، وعاد كيد الاعداء الى نحورهم ، وايقنوا ان راية الاسلام لن تنتكس ، وأن وجودهم فى بلاد العرب الى حين .

والمغرب الذى كان يعانى من الاستعمار الفرنسى وهو فى طور استفحاله، ما يعانى ، لابد ان يترك الانتصار التركى فيه صدى بعيدا ، وان يفعم قلوب اهله غبطة وسرورا لانه ينفس من كربتهم ، ويقوى عزيمتهم فى محاربة المستعمر والوقوف بوجهه ، وذلك ما نجد الشاعر يعبر عنه بحماسة فى هذه القصيدة التى اول ما يلفت فيها النظر هذا الاطلاع الواسع على خفايا السياسة الاستعمارية ودسائس المستعمرين ، وخاصة منهم الدهقان الانجليزى الذى كانّ يختفى من وراء الالعوبة اليونانية ويتخذها ذريعة لاستذلال عزة الاتراك واستباحة حماهم . وقد كان التضامن الاسلامى الذى تجلى فى هذه الحرب بأجلى صوره مدهشا للغاية مما حمل فرنسا على تسوية علاقتها مع الاتراك خوفا من انتقاض الشمال الافريقى عليها ، وجعل انكلترا نفسها تحت ضغط مسلمى الهند تتراجع عن موقفها المدائى السافر

من دولة الخلافة . والعنصر الثانى الذى تتميز به القصيدة هو الشعور الفياض المتدفق بهذا التضامن ، وحسبان الحرب التركية حربا اسلامية ما يصيب الاتراك فيها من خسارة يسوء عالم الاسلام أجمع ، وما ينالونه فيها من ربح يعد مكسبا عاما للمسلمين فى المشرق والمغرب . وصور الشاعر المكيدة الانجليزية تصويرا بارعا بما فيها من تآمر على الاتراك وتغرير باليونان وما عقبها من خيبة امل الانجليز واحباط لمكرهم الذى كان المدبر له هو لويد جورج رئيس وزارتهم وهو المعنى عند الشاعر بالشيخ وكان من دهاقين الاستعمار وعدوا لدودا للاسلام ، وقد اثر الانتصار التركى عليه وعلى سياسته ، وسقطت حكومته فى الاخير نتيجة لتصرفاته المتناقضة وفشل تدبيره . ان الغضاضة التى اصبح كل مسلم مسلم يحس بها بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى بما هو معلوم من انهزام المانيا وحليفتها تركيا وانزال العقوبات الحربية القاسية بالمغلوبين وهى تتسجم بالنظر الى تركيا فى تصفية ممتلكاتها وجعلها نهبا مقسما بين المنتصرين واغراء اليونان وهم الد خصوم تركيا واحترهم باحتلال ترابها واستعمارها ، ان هذه الغضاضة هى التى انطقت الشاعر بما نقراه فى قصيدته من عبارات التشفى والشماتة والفاظ العداء والعدى وهى التى جعلته يصور فتك الاتراك بالجيش اليونانى وتمزيقهم اياه بتلك الصورة الواقعية العارية من كل تلوين ، ولا غرو فان من عاش تلك الظروف العصيبة وهو يمثل حالة المتنبى « فى احتمال الاذى ورؤية جانيه » (1) لا يمكن ان يملك عواطفه ولا ان يضبط شعوره ، وكذلك كانت حالة الشعوب الاسلامية جميعا بل حال الفرد المسلم فى كل مجتمع ولو غير اسلامى ازاء هذا الحدث العظيم ، والشعراء ما هم الا السنة شعوبهم المعبرة عن شعورهم القوى ، فشاعرنا لم ينطلق الا بما كان يحس به هو وكل مغربى من جراء نشوة الانتصار وفرحة الاخذ بالثار ، وقديما قال الشاعر العربى « ولو ان قومى انطقتنى رماحهم نطقت » ونظن ان ما اداه الشاعر فى قصيدته هذه من افكار ، وعبر عنه من احساسات هو منتهى صدق التجربة الشعرية فى قضية سياسية مثل قضية انتصار الاتراك تهم خاصة المسلمين وعامتهم فهى لذلك من امثل الشعر الذى خضع لعامل التطور

(1) هذا تلميح لقول ابى الطيب :

واحتمال الاذى ورؤية جانيـه   غذاء تضوى به الاجسام

وجارى الحياة فى تقلباتها اليومية .

ومن اصداء الثورة الريفية هذا النشيد الحماسى الذى يدعو الــى مساندة الثوار ، وهو من نظم ابى بكر بنانى :

يا بنى المغرب ما هذا الرقاد	ما لكم صرتــم كامثال الجمـــاد
فدعوا النوم وقومــوا للجهـــاد	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب مـــا هذا الفتور	اولستم ذلك الشعب الغيــور
طهروا الاوطان من كل كفــور	واسألــوا الله انتصار المسلمين
يا بنـــى المغـــرب ان الوطنـــا	يرتجـــى من جمعكم طرح الونا
فاحملوا الصمصام مع سمر القنا	واسألوا الله انتصـــار المسلمين
يا بنى المغـــرب سيروا للامام	وارفعوا رايـــة غازينا الهمـــام
فخرنا عبد الكريم ابن الكـــرام	واسألــوا الله انتصار المسلمين
يا بنـــى المغرب هيـــا للقتال	واستعدوا للوغى قبل النـــزال
انتم والله شجعـــان الـــرجـــال	واسألــوا الله انتصار المسلمين
يا بنـــى المغـــرب هبـــوا هبة	واضربـــوا وجـــه فرنسا ضربة
ذكرهـــا يبقـــى عليهـــا سبـــة	واسألــوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب موتـــوا شهـــدا	لا تعيشوا تحت اذلال العـــدا
مزقوا الكفر واشراك الـــردى	واسألــوا الله انتصار المسلمين

لقد كان هذا النشيد يتردد على لسان كل وطنى غيور ، وكان المقصود منه تمجيد الثورة والتغنى ببطولة الامير ابن عبد الكريم ، والتحريض علـــى الجهاد ، وتعزيز جانب الثوار . وهو فى صياغته الثورية واسلوبه الخطابى يحكى خطبة زعيم الثورة التى قدمناها فى النماذج النثرية بل يكاد يكـــون نظما لها ، والسر فى ذلك هو ان الروح التى املتهما واحدة ، وهى روح الوطنية الصادقة والايمان القوى بحق المغرب فى حريته واستقلاله مـــع الاعتقاد الجازم بأن القوة هى السبيل الوحيد لتحقيق المطامح القومية ، وانها وحدها هى اللغة التى يفهمها المستعمر الغاشم . فمن هنا تماثلا شكلا ومضمونا وضربا معا على وتر واحد هو وتر الحرب والقتال الذى لا يحرك سواكن الشعب المغربى الابى سواه .

ولمحمد بن اليمنى الناصرى مرددا صدى انتصارات بطل الريف على فرنسا واسبانيا من قصيدة طويلة :

انظر لما تلقى فرنسا منه اذ قصدت بشامخ مجده استخفافا
جاءت بمعظم جيشها وعتادها فاستنزفته رجاله استنزافا
وادال دولتها بفرط دهائه وتمزقت احزابها اطرافا
حتى اثار بمجلسيها ثورة شعواء ترجو الهدنة استعطافا
واذا (ليوطى) قد تردى ساقطا متحملا مما جناه اكافا
وحليفه (دى ريفيرا) قد فر لا يلوى على شىء به يتلافى
وتنافرت آراء دولته بما اضحت رءوس مجنديه قطافا
سل عنهم باب المروج وتازة وسلاس والبيبان والاجرافا
وسل البرانس والتسول وجاية والسبت والكيفان والاكنافا
تلك المواقع روعت ابطالهم وجلت لنا عن روعهم اسجافا

انها نشوة النصر التى انطقت ابا الشعور ، وهو لقب شاعرنا الناصرى، بهذه الابيات الحماسية الرائعة ، ممثلا فيها الجو السياسى المكهرب الذى كان يهيمن على العاصمتين الفرنسية والاسبانية حين ذاك من جراء توالى الهزائم المروعة على جيشهما العامل فى المغرب ، حتى ارتفعت اصوات الاحزاب وكبار الساسة فى كل من الحكومتين بوجوب المفاوضة مع ابن عبد الكريم وجعل حد لهذه الحرب التى استنزفت قواهما استنزافا كما عبر الشاعر . وعقد مؤتمر وجدة على ما هو معروف وانفض عن غير طائل ، واستؤنفت الحرب الى ان تطورت القضية لصالح الاستعمار مع الاسف .

وننصرف عن الاحداث الكبرى الى المناسبات الاجتماعية فنجد الشعر ايضا مع ماجريات الاحوال يسجلها ويردد صداها موذنا بمشاركة الشعراء فى مظاهر الحياة الرسمية وغيرها من الشؤون العادية ، ولقد كثرت الاحتفالات فكثرت قصائد التهنئة منوهة بما جد من وسائل الحضارة والتقدم العلمى ، وكان السلطان يحيى ليلة المولد الشريف كل سنة فكانت القصائد المولدية التى تنشد فى تلك الليلة تعد بالعشرات ، والكثير منها يتعرض لسمو الدعوة الاسلامية وما اتت به من مبادىء الحرية والمساواة ، الشىء الذى لم يكن شعر المديح يلتفت اليه من قبل .

ونحن لا يمكننا ان نعطى امثلة من كل ما كان يقال فى هذه المناسبات ، ولا ان نستوعب شعراء هذه الحلبة من تاريخنا الادبى ، ولذلك فاننا نكتفى بشاعر واحد كان له فى هذه المواضيع جولات . وكان يعد امام الشعراء فى وسطه حتى اطلقوا عليه لقب الشاعر المطبوع ، فكان يعرف به كما يعرف باسمه ، وان كان شعره ليس على قدر لقبه ، لانه لم يكن يعنى بتنقيحه كما لم يكن يعنى بالافكار الجديدة ، وهذا الشاعر هو عبد الله القباج (ت 1264) فمن قوله فى تجديد القصر السلطانى بالرباط :

على الطالع الميمون قد شيد القصر ... وقارن مـا شيدته الفتـح والنصر
وزاد بطول المد فى الافق حسنه ... ومن عجب مد به يحسـن القصر
بنيت به الدنيا ولم تبنـه بهـا ... فما خص صقعا دون صقع به الفخر
وحسبك ان الارض باهت به السما ... ففارق مختـارا منازلـه البـدر
وحـن لافق حنت الشمس نحـوه ... وودت به لو تطلع الانجم الزهـر
يسافر فى اطرافه الطرف يجتلـى ... محاسن يأبـى ان يلم بهـا الحصر
هو الدار دارت بالسعود نجومها ... واصبح فيها بعض خدامك الدهر
وقيـد مـرآهـا النواظـر حـيرة ... فما شبعت منها ولا روى الفكـر
رخامية الاركـان تبريـة الحلـى ... مدبجـة الارجـاء اكنافها خضـر
ممنعة فوق السها اسها استـوى ... فلا فرقد يسمو اليهـا ولا نسـر
ومـا هـى الا للقصائـد موسـم ... ففى سوقها تغلو المدائح والشعر
تظل جميع الناس خاضعة الطلـى ... بأبوابهـا من لثم افواههم اثـر
تمرغ ما بين الرتاج خـدودهـا ... وتلقى بأيديها الى من لـه الامـر

ومـن قولـه فى التهنئـة بعيـد :

نهنيك عيدا انت لا شك عيـده ... وحليته يـوم الفخـار وجيده
اتاك وشوق من وراء يسوقه ... اليك وشوق مـن امام يقـوده
فانجح لمـا ان دنا منك سعيه ... واخصب مرعاه واورق عـوده
وعاين ملكا قاهـرا وجلالـة ... وملكا جوادا طبق الارض جوده
والبسه من رائع الحسن والسنا ... لباس جمال ليس يبلى جديده
لقد بيضت اثوابك البيض وجهه ... وابقت له ذكرا يـدوم خلوده

خرجت بهـا نحو المصلى معظما شعائره كالبـدر وافت سعوده
يود المصلـى لـو يسير بنفسه ليلقـاك أو يدنـو اليك بعيده
مشيت اليـه خاشعا متواضعا لربك حيث الفضـل حيث مزيده
ولم يطغك الملك الذى قد حويته ولا الجيش يمشى خافقات بنوده
ولا ملت للدنيا عن الدين راغبا ولا ضاعت الدنيا لدين تشيده
ولكن توليت الكفايـة فيهمـا فكـلا توفى حقـه وتـزيـده
ووافيت فى ملك عظيم وهيبـة ثنت دونك الابصار عما تريـده
لعمرى لقد اظهرت للملك عزة وشانا عظيما عز قدما وجـوده
فما ملك فى الارض من غير يوسف جميل المحيـا ترتضيه جـدوده
هو العز للاوطان وهو صلاحها اذا ما بنا الاصلاح مال عموده
فلا زال للاسلام حصنا وملجا يخاف ويرجى وعـده ووعيده

ان فى هذين القصيدتين مثلا لما كان يقال فى هذه المناسبات من شعر ، وهو كثير . وقد يحتوى بعضه على افكار فى التجديد والاصلاح ، ولا سيما ممن كان معروفا بهذا الاتجاه كالسليمانى والجزولى ، ولكن الديباجة هى هذه . على أن للقباج شعرا فى معانى انسانية تدل على انفعاله بواقع الحياة المر كقصيدته فى غلاء المعيشة وفقدان المواد الغذائية ايام الحرب العظمى التى يقول فى مطلعها :

ومطربش قد عاف لبس التـاج وصبا للبس الخـز والديبـاج

وقصيدته التى قالها فى حريق قيسرية فارس ، مواسيا بهـا التجـار المنكـوبيـن واولهـا :

مصابكم بـه نـزل القضـاء وليس بنـافـع فيـه البكـاء

الا انه شعر تنقصه حرارة العاطفة ، ويلزمه الكثير من الصقل لتبرز الفكرة الانسانية التى يصورها فى الثوب الفنى اللائق بها . وقد يكون من الطريف ان نورد قصيدا له مترددا بين الحقيقة والخيال فى موضوع كراء البيت ، ولعله كان يقصد به الى الفكاهة اكثر من شكوى الحال ، وهو هذا :

الى الله اشكو ما الاقى من الاسى . ومن فزع قد حل بى من كرا البيت

كرا البيت يعمى كل قلب وناظر ويهتك سترا للانام كرا البيت
كرا البيت مثل الموت يأتي الى الفتى ويذكره يوم الحساب كرا البيت
اذا قيل هذا آخر الشهر قد اتى تراني مأسوفا لاجل كرا البيت
وان حرك الباب الهواء حسبته مكلف رب البيت يبغى كرا البيت
وان جاءني يوما صديق يزورني فلست اناجيه بغير كرا البيت
هنيئا لكم يا ساكنين بلا كـــرا فقلبي لفقري قد كواه كرا البيت
ولو عنتر العبسي طولب بالكـــرا لانساه طعنا بالرماح كرا البيت
ولو ان ملك الموت قاساه مرة لالهاه عن قبض النفوس كرا البيت
ولو ان بيتا في الجحيم بلا كـــرا لطابت به السكنى لاجل كرا البيت
ولو رات المصلوب عيناي في الهوى لقلت لهم هذا نجا من كرا البيت
اقول وعندي من كرا البيت لوعة وقلبي جريح موجع من كرا البيت
كرا البيت وافاني الى كل بلدة فماتي وربي مهرب من كرا البيت
وخمس دجاجات وديكان بعتهم وامهم الصفرآ لاجل كـــرا البيت
قلعت بساط الدار عمدا وبعته فلم يبق للجابي سواى مع البيت

هذه ملامح شاعرية الرجل الذى ملا البلاد شعرا فى وقت مـــا بهذه الحقبة ، وهى فى الوقت نفسه ملامح من شاعرية طبقة من الشعراء كانوا لعهده يعدون انفسهم حملة لواء الشعر وخاصة اهل الادب بين قومهم ، ولئن كنا وضعناهم فى محلهم مع بيان من كان يستجيب منهم لدعوة الاصلاح ، ويجارى جهده تيارات التجديد ، فلان العرض الذى يجب علينا ان نقدمه لادبيات فجر النهضة لا بد ان يكون عاما يشمل جميع الطبقات ، وان لـــم يستوعب جميع الافراد ، ولا بد ايضا ان يكون مطابقا للفكرة التى اعطيناها مقدما عن التطورات الطارئة على الادب نثرا وشعرا ، وهى كما قلنا لم تكن حاسمة بالنسبة الى الشعر ، فلم تقض على كثير من مخلفاته القديمة ، وانما تناولتها بين التحوير والتعديل .

وثم شاعر كان مقسما بين الاتجاهين ، له ميل الى التجديد والاخـــذ بالافكار الاصلاحية ، ولكنه استنفد طاقته الشعرية فى شعـــر المناسبات والتكسب بشعره على طريقة الشعراء المتقدمين ، وكان له كالقباج لقب عرف به ، وهو لقب شاعر الحمراء يعنى مدينة مراكش عاصمة الجنـــوب

المغربى لانها بلده على انه كان نابغة حقا ، ويشبه القباج فى انه كان شاعرا بطبعه ، وقلما يحتفل بتنقيح شعره فيقع احيانا فى ضرورات قبيحة ، وان كان فى سعة الافق والخيال الشعرى يفوقه كثيرا هذا الشاعر هو محمد ابن ابراهيم (ت 1375) وقد اضفناه الى شعراء هذا الرعيل لانه كان الصق به منه بشعراء الجيل الجديد . وكان اوسع مجالاته بعد المدح الخمريات والهجاء ، فمن قوله فى المدح :

وحق الذى فوق السماوات عرشه	ويعلم من قلبى المكتم ما اعنى
اذا اختارك التاريخ ابنا مخلدا	لقد عرف التاريخ ما اختار من ابن

وله من قطعة خمرية :

لئن فتكت سود العيون بمهجتى	فكم اوردتنى زرقها مورد الهلك
وكل صنوف الراح عاقرت كاسها	وما اذهبت نسكى سوى خمرة الوسكى

وله يصف المبلز :

لما استقام ولم يفز بمرامه	اعوج كى تقضى له الاوطار
وكذا الزمان فمستقيم خائب	واخو اعوجاج نال ما يختار
يختار من بين الدنان كواعبا	منهن اجياد الظباء تغار
من كل عذراء صموت راسها	يعلوه من فرط الحياء خمار
وعليه فض ختامها قسرا وان	علقت بوصمة فعله الانظار

وله من قصيدة يصف بها نفسه ويهجو ابناء زمنه :

بما بيننا من حرمة ايها الصحب	دعونى وما يقوى على حمله القلب
فانى مدهى بخطب يسوئنى	وعيشى فى هذا الزمان هو الخطب
فلا تنكروا منى دموعا سكبتها	تخفف احزانى دموع لها سكب
وابناء هذا الدهر الا اقلهم	ظواهرهم سلم وباطنهم حرب
فمالى واقوام بليت بحقدهم	وليسوا باكفائى وما ضمنا سرب
ومالى ارب عندهم متطلب	ولا لهم عندى – فاعرفه – ارب

اضرهم منى الـــذى يعرفـــونه — لسانى اذا جردته صارم عضب
الا دع سعير الحقد يغلى بقلبهم — فان سعير الحقدفى القلب لا يخبو
نواكس ابصار امامى فان اغب — تطاول راس منهم وانبرى السب
ويضحكنـــى منهم الى مسابـــق — ليخبرنى خب بمـــا قالـــه خب
كذلك ارباب المخـــازى اذا هم — مخازيهم انهـــوا تملكهـــم رعب
اما يضحك الكلب المهتم نابـــه — اذا هو عن انيابه كشر الكلب
وابغض ما عندى التحبب منهم — وبغضهم والله عندى هو الحب
فأفقدنى مرآهم كـــل راحتـــى — فقربهم بعـــد وبعدهـــم قـــرب

ان نفس الشاعر يظهر من هذه الابيات ، ولا شك انه كان سيال الطبع طلق اللسان ، والمعانى الشعرية تنثال على خاطره انثيالا ، ولكنه لا يعنى بالباسها الحلل التى تليق بها من حيث جزالة اللفظ ومتانة التركيب. ثم هو لا يعود الى شعره ينقحه فيطرح منه السقط ويقيم المنآد ، لانه كان يعيش عيشة بوهيمية تبعد ما بينه وبين الاهتمام بذلك ، وقد اشتهر من شعره قصيدة هزلية فى فندق بطنجة كان يسمى المطعم البلدى ، نوردها هنـــا لنواخى بينها وبين شبيهتها التى للقباج فى كراء البيت ، وهى هذه :

ان كان فى كل ارض ماتشان به — فان طنجة فيها المطعم البلـــدى
اخلاق ابنائهـــا كالمسك فى ارج — بعكس اخلاق رب المطعم البلدى
ياتيك بالاكل والذبـــاب يتبعـــه — وكالضباب ذباب المطعم البلدى
ما بالبراغيث ان تشابعت عجب — لمـــا ترى حجمها بالمطعم البلدى
تلقاك راقصة بالبـــاب قائلـــة — يا مرحبا بضيوف المطعم البلدى
والبق كالفول حجما ان جهلت به — فعشه فى سريـــر المطعم البلدى
تبيت روحك بالاحـــلام فى رعب — ان نمت فوق فراش المطعم البلدى
اما الطبيب فعجل بالذهاب له — اذا اكلت طعام المطعم البلدى
يامن مناه المكان الرحب فى سفر — كالقبرفى الضيق بيت المطعم البلدى
المرء فى تلق والطـــرف فى ارق — والقلب فى حنق بالمطعم البلدى
وليلة زارنى فى الفجر صاحبـــه — فقلت من قال رب المطعم البلدى
وكالمدافع خلف البـــاب سعلته — يهتز منها جدار المطعم البلدى
وكم ثقيل رات عينى وما بصرت — فيهم مثيلا لرب المطعم البلدى

وقلت خيرا فقال الخير اعرفه   وتعرف الناس خير المطعم البلدى
ان كان عندك قل لى من ملاحظة   تزيد حسن نظام المطعم البلدى
فقلت مالى ارى هذا الذباب غدا   مثل السحاب بأفق المطعم البلدى
فقال ان فضول الناس يقلقنى   هذا الذباب ذباب المطعم البلدى
فقلت والبق قال البق ليس به   باس اذا كان بق المطعم البلدى
فقلت هذى البراغيث التى كبرت   ما بالها كثرت بالمطعم البلدى
فهزنى كصديــق لى يداعبنــى   وقال تلك جيوش المطعم البلدى
يامن غدا ينتوى لطنجة سفرا   اياك اياك قرب المطعم البلدى
ينسى الفتى كل مقدور يمر به   الا مبيت الفتى بالمطعم البلدى

وما نحسب اننا نسف برواية مثل هذا الشعر الهزلى ، فان الامر فى الادب ليس جدا كله ، وقد روينا من جد الادب الذى قيل فى هــذه الفترة ما فيه الكفاية ، فلا بد من الاحماض بشىء من هزله ، خاصة وان الحديث بهذه الطريقة عن بعض الاشياء معهود لدى الادباء من عهد ابى دلامة وبغلته التى ذهبت مثلا فى النقائض والعيوب ، على ان جو الاديب اذا كان مرحا طروبا لا يخلو من بعض هذه الالتماعات التى تكشف عن جانب من شخصيته ويجب تلمحها لمعرفة آفاق ادبه والاهتداء بها لدراسة ادب العصر .

الجيل الجديد

سواء كان الجيل حصة من الزمن او طائفة من الناس ، فاننا بعد سنة 1930 اصبحنا نواجه جيلا جديدا حقا لقد استدار الزمان فولى وجهه شطر الشرق ، وكانت حضارة الغرب قد استهوته . فوقف مشدوها تجاهها لا يلوى على شيء . ان احداثا عظيمة وقعت فى بلاد اوربا جعلت قوتهـا تضعف ، والاستعمار يتخاذل فلم يكن بد من انكشاف الزيف وظهور العوار. الثورة الاشتراكية التى تثبت اقدامها فى بلاد الروس ، وجعلت ترفع أعلامها فى كثير من البلدان الاخرى ، والحكم الفاشى ثم النازى الذى ذر قرنه فى بحبوحة اوربا وزعزع القارة بتهديده واستطالته . وجمعية الامم المنهارة لعجزها عن التوفيق بين مصالح الدول القوية وحقوق الشعوب المستضعفة، كل ذلك مما نشر الذعر فى نفوس المستعمرين الاوربيين وحول السياسة الاستعمـــاريـــة نحو تفهم الرغبات الوطنية لدى البلاد المستعمرة نشدانا للسلام ، وخوفا من تفكك جهازها الدفاعى الذى تعد المستعمرات من اهـم دعائمـه .

وبقدر تراجع الاستعمار ، واضطراب امر الدول الاوربية كان تقدم الحركات الوطنية فى بلاد الشرق وانتظام عملها ، فقد ثارت الهند ثورتها التى لم تنته الا باستقلالها وميلاد دولة باكستان الاسلامية ، وجددت بلاد العرب ثورتها على التدخل الاجنبى فى شؤونها الخاصة . وفى المغرب بدأت الحركة الوطنية تبرز للميدان فى شكل هيئات سياسية تطالب بالاستقلال وانهاء عهد الحماية . ان ما لم تحققه الثورة المسلحة بدا العمل السياسى يجرب حظوظه للعمل من اجل تحقيقه .

وكان الحافز الاول لظهور الحركة الوطنية بمظهر المقاوم الجاد ، حادثا سياسيا خطيرا اراد المستعمرون به ان يقسموا المغرب الى قسمين ،

قسم يخضع للتشريع الاسلامى وقانون الفقه المالكى المعمول به فى المغرب، وهو المدن وبعض القبائل التى تتكلم اللغة العربية . وقسم استحدثوا له قوانين مستمدة من بعض الاعراف الجاهلية ومطعمة بالقانون الفرنسى ، وهو ما يشمل جبال الاطلس والبلاد التى تتكلم اللغة البربرية ، وهو معظم الشعب المغربى . وكانوا يهدفون من وراء ذلك الى اذكاء النعرة البربرية والتفرقة العنصرية بين سكان المغرب . حتى اذا تم لهم عـزل القسم الثانى عن الاول اوعزوا اليه بطلب الانفصال عن حكومة السلطان ، وتأسيس حكومة خاضعة للنفوذ الفرنسى ، يقاومون بها الحكومة الشرعية للبلاد وما تمثله من مبادىء وقيم ، وفى طليعتها الاسلام والعروبة ، وقد سميت هذه المحاولة بالسياسة البربرية واستصدر لها ظهير سلطانى اى مرسوم ملكى بتاريخ 16 ماى 1930 عرف فيما بعد بالظهير البربرى . واصدار مثل هذا الظهير يبين الى اى مدى كان تغلغل النفوذ الاستعمارى فى الحكومة المغربية . الا ان المعارضة التى لقيتها السياسة البربرية بعامة ، سواء من لدن العرب او البربر ، كانت من القوة بحيث لم يستطيع المستعمرون تطبيق ذلك الظهير الا فى جهات قليلة من مواطن البربر . وكان رد فعل هذه السياسة رائعا بالنسبة للحركة الوطنية ، اذ قوى ما بين العنصرين العربى والبربرى من الروابط ، وجعلهما صفا واحدا فى وجـه المستعمـر ودسائسه .

وكان من الحركات التى نتجت عن هذه السياسة واثارت حفيظة الاستعمار ان وفودا عديدة من قبائل بربرية جعلت تتوارد على الربـاط مطالبة بتعيين القضاة الشرعيين فيها ، ومعلنة انها لا تقبل بحال الخضوع للمحاكم العرفية لمخالفتها لاحكام الاسلام . وان البربر ضاعفوا من جهودهم لفتح المدارس العربية فى بلادهم وارسال ابنائهم لاتمام دراستهم فى المدن ، ولا سيما العواصم التى تتوفر على مدارس عليا للغة العربية كمدينـة فاس حيث توجد جامعة القرويين ، ومدينة مراكش حيث توجد جامعة ابن يوسف وعاصمة الرباط حيث توجد ثانوية مولاى يوسف وغيرها اما الضجة التى احدثها صدور الظهير فى العالم الاسلامى بسبب الدعاية التى قامت بها الحركة الوطنية ضده فقد كانت عظيمة جدا، حتى انه لم تبق جمعية اسلامية ولا زعيم سياسى فى بلاد العرب والاسلام لم يحتج عليه او يعلن استنكاره

له ، وتناولته الصحف فى اقصى بلاد الشرق بالنقد والتزييف . وكان من المعتاد سنوات عديدة انه كلما حلت ذكراه السنوية تقيم الجمعيات المختلفة والمعاهد الاسلامية والمنظمات الطلابية فى الشرق ، مهرجانات خطابية حافلة تعبر فيها عن تضامنها مع الشعب المغربى فى تمسكه بوحدته الوطنية واسلامه وعروبته .

وغنى عن البيان ان الشعب المغربى على بكرة أبيه كان يقوم فى هذه المناسبة بواجبه الوطنى اتم قيام ، فمن اضراب عام ، الى مظاهرات صاخبة ، الى تجمعات فى المساجد والاندية والدور ، وخطب نارية تلقى فى هذه التجمعات مطالبة بالغاء هذا الظهير ومعلنة عدم الاعتراف به ، وبكل ما هو منه بسبيل ، فى تفكيك الوحدة المغربية ومحو الشخصية الاسلامية والعربية للبلاد . وطبيعى ان هذه الحركة كانت باعثا قويا لنشاط فكرى عظيم تنافس فيه الكتاب والخطباء والشعراء فنشرت عدة كتب ، وآلاف المقالات ، ونظمت القصائد التى يخطئها العد ، فى تحميس الشعب للقيام ضد هذه السياسة المشؤومة ، وبيان ما تنطوى عليه من دسائس استعمارية ، ودحض مزاعم الذين وضعوها من غلاة المستعمرين الطاعنين فى عروبة الشعب المغربى والقائلين باستغنائه عن الشرع الاسلامى ، بما له من تقاليد واعراف قديمة فى الحكم والقضاء . وهذا الجانب الادبى من النشاط الذى بعثته هذه الحركة هو ما يهمنا فى احاديثنا هذه . .

واغتنمت الحركة الوطنية فرصة التضامن الذى مكن له الظهير البربرى بين عناصر السكان ، فاوجدت باتفاق مع جلالة الملك المرحوم محمد الخامس مناسبة جديدة لتجسيم الوحدة المغربية وتثبيت السيادة الوطنية هى مناسبة جلوسه على العرش المغربى فى 18 نوفمبر 1927 للاحتفال به ، فكان عيد العرش الذى صدر به قرار وزيرى فى سنة 1934 مظاهرة وطنية تقام كل عام فى جميع المدن والقرى ، القصد منها دعوة جميع المواطنين للالتفاف حول العرش المغربى والجالس عليه تمسكا بوحدة البلاد وابرازا لشخصيتها المتمثلة فى حكومة السلطان ودولته الشريفة ، وكان محمد الخامس اذ ذاك قريب العهد بالجلوس على العرش ، وما يزال فى فتاء من سنه ، ولكن شعوره الوطنى العميق وحصافته السياسية التى

ظهرت بعد بأجلى مظهر كانا من العوامل الاساسية التى دفعت بالحركة الوطنية الى الامام فى هذه الخطة الحكيمة وفى غيرها من الخطط والاعمال التى قامت بها لصالح الوطن بتأييد منه ومؤازرة ·

ان عيد العرش كان فى الاول مظاهرة وطنية ، ثم صار بعد ذلك موسما ادبيا تنجز فيه اعمال ادبية رائعة . فمن مقالات فى تاريخ الدولة المغربية وعظمة العرش المغربى ، الى خطب فى تمجيد الوطنية وجمع المواطنين على خدمة الاهداف المقدسة التى ترمى اليها ، الى قصائد فى مدح الجالس على العرش والتنويه بمشاريعه الاصلاحية ولا سيما فى التعليم والنهوض بالفتاة المغربية وانعاش الاقتصاد المغربى بحيث لما تقدم الامر بهذه المظاهرة احدثت جوائز مالية تدفع للمجيدين فى الانتاج الادبى الذى يصدر عن الادباء شعرا ونثرا فى كل سنة بمناسبتها . وحدث بعد سنوات قليلة من وجود عيد العرش ان صار الملك نفسه يحتفل به فى القصر الملكى احتفالا يحضره وجوه البلاد وكبار الشخصيات ويلقى فيه الملك خطابا رائعا يتحدث عن اعمال الدولة ومنجزاتها التى تكون فى صالح الشعب ، ويطالب بما يراه ضرورى التنفيذ من الاصلاحات السياسية وغيرها ، حتى تطور الامر الى المطالبة بالاستقلال والحكم النيابى اواخر عهد الحماية .

وكانت الحركة الوطنية فى هذه الاثناء قد حضرت مشروعا للمطالبة بحقوق الشعب المهضومة ، وبانتهاج سياسة اصلاحية تتناول جميع شؤون الادارة والحكم وقدمت هذا المشروع الى المراجع المعنية بالامر تحت اسم مطالب الشعب المغربى ، وجندت له جميع القوى الشعبية من علماء واساتذة وطلبة وتجار واعيان وفلاحين وصناع وعمال وغيرهم ، فأيدته جميع الطبقات وطالبت بتنفيذه . وتوالى الضغط على حكومة الحماية من كل جهة ، قصد الدخول فى مفاوضات مع الوطنيين من اجل هذه المطالب وبما ان المشروع كان يستهدف بسط يد الحكومة المغربية وجعل حد للحكم المباشر الذى كان يقوم به ممثلو سلطة الحماية ، فان هذه الاخيرة لم تجد وسيلة للتخلص من الحاح الوطنيين الا قمع حركتهم وفتح السجون فى وجه الكثرة الكاثرة منهم ، والتطويح بقادتهم الى المنافى السحيقة فى داخل المغرب وخارجه . وكان هذا التصرف بمثابة اشعال النار فى يابس الحطب ،

فازدادت الحركة الوطنية قوة وانتشارا ، وتخطت المطالبة بالاصلاحات الى الاستقلال التام . وذلك عقيب الحرب العالمية الثانية . وبقية قصة الكفاح السياسي معروفة فقد استمرت المشادة بين الطرفين المغربي والفرنسي الى ان ركبت فرنسا راسها وكنست الميدان من جميع القادة الوطنيين . ثــم انزلت محمد الخامس عن العرش وابعدته الى جزيرة مدغشقر ، فكــان ذلك ايذانا بانطلاق المقاومة المسلحة التى ارغمتها على الاعتراف بحق المغرب فى حريته واستقلاله ، وارجعت اليه ملكه الشرعى معززا منصورا .

وغير خاف ان هذا الكفاح السياسى الطويل كان مقرونا بكفاح آخر فى الميدان الثقافى لا يقل عنه تأثيرا وفعالية فقد قويت حركة الاقبال على التعليم وانتشرت المدارس الوطنية فى طول البلاد وعرضها ، وكثرت البعوث العلمية الى اوربا والشرق العربى . ونظمت الدراسة بجامعة القرويين وادخل عليها اصلاحات مهمة ، مما حصل معه تقدم كبير فى الحياة الادبيـــة وتطور فى مفهوم الادب، ارتفع معه عن الابتذال الذى كان ما يزال عالقا به الى حقبة فجر النهضة المتقدمة . وكان للصحافة الوطنية التى نمت فى هذا العهد نموا ظاهرا وخاصة الادبية منها ، يد طولى فى توجيه النهضـــة الادبيـــة ورعايتها ، لا سيما وقد انبرت الاقلام المثقفة لنقد الانتاج الادبى علنا لاول مرة . وكان النقد قبل ذلك قليلا وانما يقع فى المجالس الخاصة . فلما كثر واصبح ينشر فى الصحف السيارة ، صار الادباء يعرفون ما يقولون ويحرصون جهدهم على الاجادة . وهكذا قل التطفل على الادب ، ولم يبق يدعيه كل مـــن هب ودب .

وكان للاديب محمد بن عباس القباج فضل السبق فى هذا المضمار ، فانه الذى اقتحم معركة النقد اولا بمقالاته القيمة التى كانت تنشرها له مجلة المغرب تحت عنوان لذعات بريئة . وقد قومت هذه المقالات من زيغ المقاييس الادبية التى كانت متبعة اذ ذاك ، واحدثت ضجة كبيرة بين الادباء المخضرمين الذين كانوا قليلى الاطلاع على الانتاج الادبى الجديد فى الشرق العربى . ثم قام هذا الاديب الى جانب ذلك بتاليف كتاب عن الادب المغربى يضم آثار نخبة من الادباء المعاصرين ، شيوخا وشبابا . فوضع بذلك اللبنة الاولى لدراسة الادب المغربى الحديث وقد نشر هذا الكتاب فى جزئين لطيفين منذ اكثر من

ثلاثين سنة ، باسم الادب العربى فى المغرب الاقصى .

اما الصحافة الادبية التى كانت تتعهد نهضة الادب والفكر بعامة ، فانها مجلة السلام ومجلة المغرب الجديد ومجلة رسالة المغرب ومجلة الثقافة المغربية وسواها . والاولى كان يصدرها الاستاذ محمد داود والثانية للاستاذ المكى الناصرى والثالثة انشأها حزب الاستقلال والرابعة لحزب الشورى . وتعتبر هذه المجلات سجلا للحركة الادبية فى هذا العهد يحتوى على احسن الآثار التى انشأتها اقلام الادباء البارزين من الجيل الجديد .

وبتصفح هذه الآثار وتصنيفها نجد ان الحصاد الادبى لهذا الجيل ، اصبح من الغنى والتنوع بحيث يمكن القول انه استتم العناصر الاولية للادب الحى . وانه شق الطريق للحاق بقافلة البعث الادبى فى العالم العربى. ففى النثر زيادة على نمو المقالة السياسية والاجتماعية والادبية ظهرت البحوث المنوعة فى الفلسفة والفن والنقد ، وبلغت الخطابة السياسية اوج الكمال ، وبدات المحاولات الناجحة فى كتابة الرواية التمثيلية والاقصوصة والقصة ، وذلك فضلا عن نشاط حركة التأليف فى الموضوعات السياسية والتاريخية والعلمية . وفى الشعر استفحل النظم فى موضوع الوطنية تبعا لاستفحال حركتها ، فكاد الشعر كله يكون ثورة على الاستعمار ودعوة الى مقاومة النفوذ الاجنبى ، وتذكير الشعب بمجده ، وتاريخه العظيمين ، وتحول الشعر العاطفى من تفاهة العبارات الجوفاء الى تجارب ذاتية وانسانية صادقة وجال الشعراء فى ميدان الطبيعة ، وحلقوا فى مجال الفكر ، وظهر الشعر التمثيلى فى مسرحيات صغيرة تعتبر كنواة لهذا اللون الجديد فى الشعر العربى . الى غير ذلك من مظاهر التفنن والابداع التى اكسبت الادب المغربى منثوره ومنظومه بسطة فى الشكل والمضمون لم يعرفها من قبل . وهكذا لم يبق الادب فنا مسخرا لخدمة الرؤساء والملوك ، ولا تجزية للوقت عند من لم ينزل بأدبه لمستوى الشعراء المداحين والكتاب المتكسبين ، بل صار دعوة ومذهبا ، وفنا رفيعا تتمثل فيه الحياة الانسانية باهوائها ومطامحها والكون بجماله ونظامه . واصبح الاديب صاحب رسالة سامية ومكانة مرموقة فى المجتمع بصفته احد قادة الفكر ورائدا من رواد الاحياء والتجديد .

ولا نعني ان الادب المغربي بلغ كماله ، ولا ان الاديب المغربي ادى مهمته كاملة ، وانما نعني انهما اصبحا على الطريق ، وصارا على ميعاد مع قافلة الادب والادباء في الشرق العربي . اى ان المغرب طوى مراحل التخلف التي كانت قعدت به عن اللحاق بركب النهضة العربية في اول هذا القرن ، ولم يبق مع الخالفين .

وحرصنا على تلاقي المغرب والشرق العربيين ، لايماننا بأن الاتجاه واحد ، وان نهضة الادب الحديث ساهم فيها جميع الاقطار العربية ، فهي منطلق الفكر العربي لا يقيد كونه شرقيا او مغربيا . ومن الخطأ ان نميز عمل اى بلد عربي في هذا الصدد ، سواء كان سابقا او لاحقا ، لان طابع العروبة لا يوجد الا حيث تلتقي جهود العرب كافة . ولم يتحقق للنظرية الاقليمية في الادب العربي مدلول خارجي ، برغم ما قيل في توجيهها والتنويه بآثارها . والذي يتحقق يوميا هو ان الادب العربي يتلاقى على صعيد الفكرة الجامعة والاتجاه الموحد ، وان انصار الاقليمية ينهزمون دائما في ميدان السياسة وميدان الادب على السواء . لان امر العرب الى وحدة وكلمتهم الى جمع . والفوارق الطفيفة التي توجد بين مجتمعاتهم المحلية لا تبلغ من القوة ما يجعلها تغير وجه الادب في اى قطر عربي عما هو عليه في قطر آخر شقيق ، كما ان الحدود المصطنعة التي فرضت على بلاد العرب لم تستطع ان تحول بين الشعوب العربية والاتجاه نحو الوحدة السياسية الكاملة .

ان الادب العربي وحدة لا تتجزا ، وان ما يجد فيه من مذاهب واتجاهات هي في نظرنا وليدة تفاعل افكار الادباء العرب ، والتيارات الفكرية الحديثة التي طرات على الادب العربي بواسطة الترجمة عن الآداب العالمية والاطلاع على الثقافات الاجنبية المختلفة . وليس شيء منها متولدا عن طبيعة الاقليم والسكان وخصائص الجنس والوراثة كما يحلو لبعضهم ان يعلل ذلك . ولا نستدل الا بأن اى مذهب او اتجاه ظهر في بلد من بلاد العرب، لا يلبث ان يتردد صداه في بقية هذه البلاد وينمو ويزدهر على يد ابناء العرب كلهم . كان الامر فيما مضى حين كانت طريقة المتنبي التي ظهرت في المشرق نجد من ابي القاسم بن هانيء راعيا لها في الاندلس حتى سمي بمتنبي

المغرب . وكان البحترى يتمثل فى ابن زيدون ، والمعرى وابن شهيد يكادان يردان من منبع واحد ، هذا فى رسالة التوابع والزوابع ، وذاك فى رسالة الغفران . ولما ظهر التوشيح فى بلاد المغرب وراجت سوقه بين الادباء المغاربة ، لم يلبث ادباء المشرق ان اقبلوا عليه واهتبلوا به حتى الفوا فيه الكتب الخاصة . وكذلك كان الامر فى العصر الحاضر . فما ان ظهر بعد الحرب العالمية الاولى ما يسمى بالادب المهجرى من انتاج الادباء اللبنانيين والسوريين المستوطنين فى الامريكيتين حتى انتشر فى العالم العربى وتعاطاه الادباء هنا وهناك . وفى فجر ظهوره وانتشار آثار اعلامه كجبران خليل جبران وامين الريحانى وميخائيل نعيمة وغيرهم ، كان عندنا فى طنجة محمد الحداد يكتب بذلك الاسلوب ويضرب على تلك النغمة ، حتى لتحسبه احد رواد ذلك المذهب .

واليوم تشهد الشعوب العربية جميعا نشوء طريقة جديدة فى نظم الشعر ، هى طريقة الشعر الحر ، التى تحمس لها ادباء الشباب ، وتداعوا اليها من كل قطر ، فهل يدل ذلك الا على ان روافد الادب العربى تصب فى نهر واحد وان تباعدت اقطار العرب وتوزع سكانها ما بين مشرق ومغرب . والمقصود من هذا اننا لا نقدم ادبا مغربيا متميزا بشىء عن الادب العربى العام لانه جزء من كل . ولا نقوم بدراسة تعتمد على شخصيات الادباء المغاربة اكثر مما تعتمد على الخطوط العريضة التى يتألف منها سجل الادب الحديث فى العالم العربى اجمع . ومن اجل ذلك نشير فى الفينة بعد الفينة الى تلاقى ادبائنا وادباء الشرق العربى ، اذ كان اتجاه الجميع واحدا .

وشىء آخر نريد ان نقرره لئلا نقع فى محظور سوء التقدير . وهو اننا لا نرى اخضاع ادبنا لمقاييس النقد الغربية باطلاق ، ولا ربطه بمدارس الادب الاوربى من رومانسية وواقعية وغيرها ، فضلا عن تقسيمه الى اقسامه كتقسيم الشعر الى غنائى وقصصى وتمثيلى . ذلك لاننا من اعدى اعادى التقليد فى العقيدة والمذهب ، فأحرى فى الادب فكيف نسرف فيه هذا الاسراف ، حتى ناخذ انفسنا بتأثر خطى غيرنا فيما نعده مرآة لشعورنا وتعبيرا عن ذاتيتنا ؟ لا سيما وبعض هذه الاسماء اجنبى عن لغتنا كالرومانسية ، لم يستطع مقتبسوه ان يترجموه . فبقى موهما بنسبته هذه

غير ما يراد منه ، فاحتاج الى التفسير والبيان . وبعضها وان كان مترجما كالشعر الغنائى فانه لا يطابق مدلوله اللغوى عندنا الا بتمحل وتكلف . واذا قيل ان هذا اصطلاح ولا مشاحة فيه ، قلنا ان ذلك صحيح لو كان الاصطلاح اصيلا لا دخيلا . وما ابعد ما بين معنى الغناء فى العربية وشعر المدح والهجاء مثلا الذى يندرج تحت هذا الاسم . وهل عجزت العربية ان توجد لهـذه الابواب من الشعر اسما جامعا يشملها اذا كان لا بد من ذلك ؟

ولسنا كما قلنا فى حديث سابق ننكر الاقتباس من آداب الامم الاخرى وثقافتها فيما تدعو اليه الحاجة ، ويخصب تراثنا الفكرى كالشعر القصصى والتمثيلى الذى كان ادبنا خاليا منه . ولكنا ننكر الاسفاف الذى يبلغ الى حد اقتباس التقسيمات والاصطلاحات التى لا تنطبق على انتاجنا الادبى مطلقا . فاسم الشعر الغنائى اذا كان له ما يبرره عند النقاد الاوربيين حين اطلقوه على هذه الاغراض الشعرية التى ليست بقصص ولا تمثيل ، من ان الشاعر — كما يقال — كان يأخذ قيثارته ويغنى عليها اشعاره لممدوحه او معشوقته، فان الشاعر العربى لم يكن يغنى اشعاره قط . وانما كان ينشدها فى تعاظم واعتداد بنفسه وهو قائم او راكب على ناقته كالخطيب او القائد الذى يحمس جيشه . بل ان من الشعراء من كان يشترط على ممدوحه ان ينشده جالسا كالمتنبى . فليس عدم مطابقة المدلول اللغوى وحده هو الذى يمنـع مـن اقتباس هذا الاصطلاح ، بل واقع الحال ايضا . ولو اننا اطلقنا على هـذه الاغراض الشعرية المختلفة من المدح والهجاء والرثاء والغـزل والوصف اسم الشعر الذاتى ، اذا كان لا بد من هذا التقسيم ، لكنا اقرب الى المعنى الصحيح . فانه ما من غرض من هذه الاغراض الا وهو يعبر عـن ذات الشاعر واحساسه وانفعاله اصدق تعبير .

وابعد من هذا عن الصواب محاولة ربط الادب العربى بمدارس الادب الاوربى وتطبيق آرائها عليه ، من غير مراعاة للفوارق الجوهرية بين الادبين فى نشأتهما وبيئتهما ، وفى فنونهما واغراضهما ، فالرومانسية مثلا لم تسد فى عصر ادبى او تسيطر على طبقة من الشعراء حتى تكون مدرسة مستقلة لها عهد معروف ورواد معروفون كما كان عليه الامر فى اوربا . وكذلك القول فى الواقعية ، فانها لم تخلف الرومانسية عندنا وتعقب على آثارها . وقد نشأ

الادب العربى اول ما نشأ ، واقعيا يخوض معارك الحياة ، ويعبر عـــن ماجريات احوال العرب فى جاهليتهم بصدق واخلاص ، حتى اننا ما عرفنا كثيرا من حقائق تاريخهم الا عن طريق هذا الادب . وكذلك كان الامر فى صدر الاسلام والعهد الاموى . ثم رجح جانب الرومانسية فيما بعد ذلك ، ولكن من غير أن يخفت صوت الواقعية ابدا وحسبنا بادب المعرى تقريرا لهذا المذهب واعلاء لشأنه فى القرن الرابع وهكذا بقى الامر يتراوح بين النزعتين عند الادباء الى وقتنا الحاضر .

والملاحظ فى العموم ان قلة من ادبائنا هم الذين غلبت عليهم النزعة الرومانسية . واما الكثرة منهم فانها كانت تشارك فى الاحداث وتعيش واقع الحياة . ولا يخفى ذلك فى آثارها الادبية على من يتحفى بتتبعها ويهتـــم بدراستها . فان كثيرا مما صورته من الوقائع وسجلته من الحقائق ، يوجد فى غير مظانه ، وفى اثناء الاعمال التى توهم بظاهرها انها ذات اتجاه رومانسى والادب العربى كم يخفى فى ادراجه من درر ثمينة ما زالت لم تجد الناقـــد الجهبد الذى يبحث عنها ويجليها للناس .

والذى يظهر ان ما بين المذهبين اقرب من ان يجعلهما متدافعين ، فنجدهما يتواردان على كثير من الادباء فيظهر اثرهما فى منتجاتهم الادبية ، ويصعب بذلك ردها الى هذا المذهب او ذاك : واكثر ادبائنا الواقعيين اليوم ، لا يلبث ان يستحيل رومانسيا اصيلا كلما غنى همومه واحزانه . فنحن بهذه الظاهرة العامة ولحرصنا على عدم اخضاع الادب العربى لمقاييس النقـــد الاجنبية عنه ، لا نعطى امثلة من ادب المغرب تعتمد احدى النزعتين او غيرهما من النزعات التى تشيع فى الادب الغربى ، بمعنى اننا لا نـــدرس ما نقدمه من ادب هذا الجيل الاعلى اسس النقد العامة . وان لم يكن به فقر فى ناحية من تلك النواحى . معتقدين ان بلوغ الادب العربى الى أوج كماله هو الذى سيقرر قواعد النقد الجديدة الخاصة به ، ويجعل حدا لهذه الفوضى الادبية التى تضل اكثر مما تهدى .

واذ اوضحنا معالم النهضة الادبية لجيل المغرب الجديد على الاجمال ، وبينا الطريقة التى نتناولها بها عند العرض المفصل ، فلنشرع فى بيان اوجه

النشاط الفكرى العام ، لنتخلص منه الى الانتاج الادبى الخالص ، كما فعلنا فى المرحلتين السابقتين ولقد كان النشاط قويا ومتنوعا ويمتاز عما سبقه بحيوية موضوعاته ومنهجية ابحاثه واستجابته لمطالب الحياة الجديدة من سياسية واجتماعية وثقافية .

وكانت المجلات التى ذكرناها آنفا ترعى هذا النشاط وتوجهه . وبجانبها عشرات الجرائد التى فتحت صفحاتها للمقالة الادبية والشعر والقصة وسائر ضروب الانتاج الفكرى . ويهمنا هنا الابحاث الكاملة والكتب المؤلفة فى مختلف الموضوعات .

ونتيجة لما كانت البلاد تمر فيه من اطوار سياسية غير عادية فقد كان الموضوع الذى استبد بنشاط الاكثرية من الكتاب وبكر بالظهور فيه عدد من المؤلفات هو موضوع السياسة . وللاستاذ المكى الناصرى فيه سابقة معروفة فقد اخرج كتاب فرنسا وسياستها البربرية فى المغرب الاقصى ، الذى فضح اسرار السياسة البربرية وسجل اهم المستندات التى بنيت عليها هذه السياسة . من اقوال كبار المستعمرين ، ومباحث ضباط الاستعلامات ، والنصوص القانونية التى اعطتها صفة المشروعية . وناقش ذلك كله بما ابطله ، واثبت انه لا قيمة له من الناحية العلمية والتاريخية . وان كل قوته مستمدة من سياسة فرق تسود .

ومعلوم ان السياسة البربرية كانت هى الشغل الشاغل لكل المغاربة فى اول هذا العهد كما سبقت الاشارة لذلك فجاء هذا الكتاب سادا لفراغ عظيم وفى وقت الحاجة اليه . اذ كانت الكتب الفرنسية فى الموضوع تعد بالعشرات ، على حين لا يوجد كتاب واحد بالعربية ينقض مزاعم الخصوم ، ويقرر حقيقة هذه السياسة للجماهير العربية والاسلامية .

واخرج كذلك كتاب الاحباس الاسلامية فى المملكة المغربية . وهو كتاب له اهميته السياسية من حيث ان الاستعمار الفرنسى حاول الاستيلاء على املاك الاحباس وتمليكها للمعمرين الفرنسيين . وبالفعل سطا على كثير من هذه الاملاك وخاصة منها الاراضى ذات القيمة الفلاحية الممتازة . واخرج الاستاذ الناصرى كتاب موقف الامة المغربية من الحماية الفرنسية ، وهو

يتناول بالبحث معاهدة الحماية الفرنسية والظروف التى فرضت فيها على المغرب ، وقيمتها من الناحية القانونية ، والمعارضة الشديدة التى لقيتها من جميع المغاربة ، وخرق فرنسا لهذه المعاهدة بمباشرتها للحكم فى البلاد ، مما ادى الى تكتل الامة المغربية ومقاومتها للاستعمار الفرنسى بكل الوسائل.

وكان للاستاذ علال الفاسى اليد الطولى فى الابحاث السياسية التى تتعلق بالقضية المغربية . وكتابه الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى كما يفهم من اسمه لا يختص بالتاريخ للقضية المغربية ، بل يتناول كذلك قضية احتلال الجزائر وتطور الاستعمار بها والمقاومة العنيفة التى لقيها من السكان سواء فى الميدان السياسى او الحربى . كما يتناول القضية التونسية منذ نصب الحماية الفرنسية على تونس وقيام الحركة الوطنية فى هذا القطر والكفاح الطويل الذى قامت به فى سبيل الاستقلال ، وارتباط قضايا المغرب العربى بعضها ببعض مما لا خفاء به . فلذلك كان تناولها بالبحث فى كتاب واحد مثل الحركات الاستقلالية من الاعمال الموفقة . واصدر الاستاذ كذلك كتاب حديث المغرب فى المشرق وهو يتضمن الاحاديث التى القاها فى البلاد العربية الشقيقة تعريفا بالمغرب وقضيته الوطنية .

اما كتاب النقد الذاتى للاستاذ فهو اكثر من كتاب سياسى . انه والحق يقال منهاج للحكم والادارة والاصلاح الاجتماعى يضعه علال الفاسى نصب عين المكافحين من اجل استقلال المغرب ليستفيدوا منه فى بناء مغرب جديد لا مجال فيه للانانية ولا للفوضى . وسيبقى اثرا شاهدا بعبقرية جيل النهضة، واصالة الحركة الفكرية فى هذا العهد الى ما شاء الله .

والكتابات السياسية حول القضية المغربية اكثر من ان تحصر فيما ذكر ، ولا سيما ما هو مفرق منها فى الصحف والمجلات لم يجمع فى كتاب . واهمه ما كان باقلام القادة الوطنيين الذين خاضوا غمار المعارك السياسية كالاستاذ محمد بن الحسن الوزانى الذى هو فى مقدمة الساسة الوطنيين وكذا الاستاذ عبد الخالق الطريس والحاج محمد بنونة والحاج الحسن بوعياد وقاسم الزهيرى واحمد بن سودة ومحمد العربى الزكارى وغيرهم .

وفى ميدان البحث الادبى والتاريخى نشر الاستاذ محمد الفاسى عشرات

الابحاث وتراجم عظماء الرجال الذين انجبهم المغرب ، فى مختلف العلـــوم والفنون . الا ان هذه الابحاث ويا للاسف مبعثرة فى مختلف الصحف والمجلات، ولو قدر لها ان تجمع فى كتاب لكانت رصيدا ضخما للطلبة والباحثين يرجعون لها فى دراستهم وابحاثهم .

ونشر الاستاذ عبد الهادى بوطالب فى هذا الصدد كتابه وزير غرناطة، وهو ترجمة ادبية تنهج نهج القصة لحياة ذى الوزارتين لسان الدين بـــن الخطيب . وكذلك نشر الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله بالاشتراك مع الاستاذ محمد بن أبى بكر التطوانى كتابا قيما عن حياة هذا الوزير وكتبه ، يعتبر فى نظر النقد العلمى الترجمة الجامعة المحررة لهذا الاديب الاندلسى الكبير . وللاستاذ ابن عبد لله اعمال اخرى ذات قيمة رفيعة منها كتابه عن مظاهر الحضارة المغربية ، ورسالته عن الطب والاطباء بالمغرب وغير ذلك . ونشر الاستاذ رشيد ملين كتابه عن عصر المنصور الموحدى ، وهو العصر الذهبى للحضارة المغربية سلك فيه مسلك البحث المنهجى وجلى مواطن العظمة فى شخصية هذا الملك العظيم . كما نشر كتابه نضال ملك الذى شرح فيـــه بتفصيل سياسية فرنسا فى المغرب ، والمقاومة التى كانت تلقاها من طرف الملك محمد الخامس والشعب المغربى . وهو لذلك يعد كتـــابا سياسيا وتاريخيا فى آن واحد . ونشر الاستاذ محمد المنونى كتاب العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين . وهو تاريخ مستوفى للحياة الفكرية ومظاهر الحضارة فى ازهى عصور المغرب . ونشر الاستاذ المهدى الحجوى كتاب حياة الحسن الوزان الفاسى او ليون الافريقى ، وهو بحث فريد فى اللغـــة العربية عن هذه الشخصية المغربية الفذة التى كان لها تاثير كبير على النهضة العلمية فى اوربا . ونشر الاستاذ عبد الوهاب بن منصور كتـــاب المنتخب النفيس من شعر ابن خميس وهو ديوان شعر لهذا الاديب التلمسانى الكبير جمعه المؤلف وعلق عليه وعرف بصاحبه فى مقدمة مفيدة . كما نشر ترجمة ابن الطيب العلمى الاديب المغربى المعروف ، وترجمة ابى القاسم القالمى احد كتاب الدولة الموحدية . ونشر الاستاذ احمد بلافريج بالاشتراك مع الغير كتاب الادب الاندلسى وهو دراسة مركزة مع بعض المختارات . ونشر الاستاذ عبد السلام الطود كتاب بنو عباد باشبيلية وهو تاريخ مفصل لهذه المملكة الزاهرة من عهد ملوك الطوائف . ونشر الاستاذ محمد بن تاويت

التطواني بالاشتراك مع الغير كتاب الادب المغربي وهو يتناول بالنقد والتحليل تراجم الادباء المغاربة وآثارهم الشعرية والنثرية . ولهذا الاستاذ مباحث ادبية وتاريخية كثيرة غير مجموعة . ونشر الاستاذ عبد الله الجراري كتاب تقدم العرب في العلوم والصناعات واستاذيتهم لاوربا وهو بحث واسع في هذا الباب ونشر الاستاذ محمد ابن عثمان المراكشي (ت 1364) كتاب جامعة ابن يوسف في تسعمائة سنة ، ج ل . ونشر الاستاذ عبد السلام ابن سودة كتاب دليل مؤرخ المغرب . وهو مرجع هام لجميع ما الف عن المغرب من الكتب التاريخية والجغرافية وما اليها قديما وحديثا .

وفي خصوص تاريخ المغرب الف الاستاذ التهامي الوزاني كتابه تاريخ المغرب في ثلاثة اجزاء ، والجزء الثالث مهم جدا لانه يتناول حقبة من هذا التاريخ قل من تعرض لها وهي ما قبل الحماية وبعدها والحرب الريفية وله ايضا كتاب المغرب الجاهلي تكلم فيه على تاريخ المغرب قبل الاسلام .. ولهذا الاستاذ عدة مؤلفات منها كتاب الزاوية وهو مذكرات طريفة عن شبابه . ولا نتعرض للكتب المدرسية في تاريخ المغرب او جغرافيته فهي كثيرة وليست مما يدخل في نطاق هذا البحث كبقية الكتب المدرسية في مختلف العلوم . وفي تاريخ الاقاليم نشر الاستاذ محمد العبدي الكانوني (ت 1357) كتاب آسفي وما اليه وهو بحث قيم يتناول تاريخ هذه المدينة وناحيتها وتراجم الرجال النابغين منها . ونشر الاستاذ محمد داود اجزاء من تاريخه الكبير لمدينة تطوان وهو يحتوي على عشرة مجلدات ضخام ويتضمن وثائق ومستندات ونصوصا لا توجد في غيره ، مع دراستها وتحليلها واستخراج النتائج المفيدة منها . ونشر الاستاذ المختار السوسي كتابه الكبير الذي سماه بالمعسول عن تاريخ اقليم سوس وعادات اهله واخلاقهم وتراجم رجاله ، وهو يقع في عشرين جزءا كبيرا يكاد المرء لا يصدق انها كلها خاصة باقليم صغير من اقاليم المغرب مع انها كذلك ، ولهذا الاستاذ كتب اخرى عامرة منها سوس العالمة وقد صدر بالطبع ، وخلال جزولة وهي رحلة في هذه القبيلة الشهيرة صدرت في اربعة اجزاء لطاف ، وغير ذلك مما هو قيد الطبع.

ولغير هؤلاء ابحاث كثيرة منشورة في الصحف والمجلات لو امكن تصنيفها واخراجها في كتب لاطلع قارئوها على نشاط فكري عظيم في مختلف الميادين من ادب وتاريخ وفلسفة واجتماع وغير ذلك . ومن المع الاسماء التي لها

آثار فى هذا الصدد الاساتذة محمد غازى وعبد الله ابراهيم ، وسعيد حجى (ت 1361) وعبد الهادى الشرايبى وعبد الكبير الفاسى ، وابراهيم الكتانى والدكتور تقى الدين الهلالى والهاشمى الفيلالى وعبد الهادى التازى ، وعلال الجامعى ، ومحمد الطنجى ، ومحمد اباحنينى ، واحمد بنانى ، وعبد السلام العلوى ، ومحد عزيمان، وحسن السائح، والمهدى البرجالى، والعابد الفاسى وسعيد اعراب ، وادريس الكتانى ، واحمد زياد ، ومحمد الحبيب ، وعبد اللطيف الخطيب ، وعبد القادر زمانة ، وعبد القادر الصحراوى ، وعبد السلام الهراس ، ومحمد برادة ، ومحمد زنيبر ، وعبد الله العمرانى ، وادريس ابن جلون وغيرهم . ولا نعنى اصحاب الاعمال الادبية الخالصة فهؤلاء سنتحدث عنهم فيما بعد .

واعمال اخرى تدخل فى نطاق البحث والانتاج ، وهى تحقيق الكتب القديمة ونشرها . وقد قام الجيل الجديد بحركة من هذا القبيل لا تقصر عن مثيلاتها فى اى بلد من البلاد العربية ، وممن له القدح المعلى فى ذلك الاستاذ محمد بن تاويت الطنجى وقد اشتهر بكتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، الذى حققه تحقيقا كاملا وعلق عليه تعليقات فى غاية الافادة . ونشر كذلك رسالة شفاء السائل لابن خلدون بتحقيق تام ومقدمة قيمة . كما نشر كتاب جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس للحميدى . ونشر الاستاذ محمد بن تاويت التطوانى كتاب دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى مع تعليقات مفيدة ومقدمة ضافية فى تاريخ البلاغة . ونشر الاستاذ محمد الفاسى كتاب المعجب للمراكشى مع مقدمة وتحقيق للنص . كما اخرج الاستاذ محمد العربى العلمى طبعة اخرى منه محققة تحقيقا جيدا بالاشتراك مع الغير . واخرج الاستاذان علال الفاسى وعبد العزيز بن ادريس (ت 1380) الجزء الاول من تاريخ ابن خلدون بتحقيق كامل وتعاليق عظيمة الفائدة . وحقق الاستاذ الهاشمى الفيلالى كتاب القرطاس لابن ابى زرع وعلق عليه واخرج منه نحو ثلثيه فى جزئين لطيفين . واخرج الاستاذ محمد وجعفر الناصريان كتاب والدهما الاستقصا فى تاريخ المغرب الاقصى فى طبعة جديدة محققة ومقدمة تقديما طيبا . ونشر الاستاذ عبد الوهاب بن منصور كتاب روضة النسرين فى دولة بنى مرين لاسماعيل بن الاحمر . وكتاب روضة التعريف بمفاخر السلطان مولاى اسماعيل بن الشريف لمحد الصغير اليفرنى ، وكتاب

العز والصولة فى معالم نظام الدولة لعبد الرحمن ابن زيدان ، ثلاثتها بتحقيق النص والتعليق عليه والتقديم له ، ونشر الاستاذ محمد عزيمان بالاشتراك مع الغير كتاب الفلاحة لابن بصال مع مقدمة وتعاليق وترجمة النص الى اللغة الاسبانية . ونشر الاستاذ التهامى الناصرى كتاب الفلاحة لابى الخير الاندلسى بالتعاون مع السيد محمد الرسموكى .

ولعل الترجمة من اهم ما تشمله هذه الحركة . والاعمال التى تستحق الذكر من ذلك هى كتاب مدنية العرب فى الاندلس لجوزيف ماكيب ترجمة الدكتور تقى الدين الهلالى مع تعاليق ضافية له . وكتاب مفكرو الاسلام لكارادوفو الحلقة الاولى المتعلقة بالفسفة الاسلامية والفرق وكتب الغزالى، ترجمة محمد عزيز الحبابى مع تعاليق وزيادات فى المقارنة بين آراء الغزالى وغيره من الفلاسفة القدماء والمحدثين . وكتاب علم الفلاحة عند المؤلفين العرب بالاندلس للدكتور مياس ترجمة عبد اللطيف الخطيب الى غير ذلك من منشورات يطول الامر بتعدادها وترجمات تكتسى صبغة ادبية او صحفية لا شان لنا بها هنا .

ان ما ذكرناه من هذه الاعمال فضلا عما نسيناه ليدل على ان همة هذا الجيل لم تقصر عن مطلب فى سبيل بعث الثقافة العربية وتجديدها بالمغرب ، خلال مدة قصيرة لا تتجاوز ربع قرن . وكان اكثر افراد هذا الجيل مع ذلك منهمكين فى العمل السياسى والكفاح الوطنى الذى كثيرا ما كان يؤدى بهم الى السجون والمنافى البعيدة فتعرقل اعمالهم ويقف نشاطهم ولكنهم لا يعرفون للكلال معنى فما ان يتنسمون نسيم الحرية حتى يعودوا الى مجال عملهم انشط ما كانوا قط ، وبذلك استطاعوا ان يؤثروا مثل هذه الآثار ، وان لهم فى المستقبل لمجالات ارحب واوسع ان شاء الله .

النثر واتجاهاته الجديدة

رأينا مدى التطور الفكرى لدى الجيل الجديد ، والآثار التى انشأها والانتاج الذى صدر عنه فى ميدان البحث الادبى والتاريخى وغير ذلك من المواضيع التى تتصل ببعث الثقافة العربية وتعزيز النهضة العلمية . ولقد كان ذلك التطور بالنظر الى نتائجه سريعا وفعالا ، لانه لم يستغرق الا مدة قصيرة تضيق عادة عن قيام حركة فكرية نشيطة مثل التى وصفنا . فكيف اذا اضفنا اليها الحصاد الادبى الوافر الذى نتهيأ لدراسته الآن .

لقد انكشفت هذه المدة على قصرها عن حصيلة ادبية طائلة ، منها فى الشعر دواوين مطبوعة وآلاف القصائد والمقطوعات المنشورة فى الصحف والمجلات ، واعمال اخرى من التجديد الذى يدخل فى باب الشعر القصصى والتمثيلى . ومنها فى النثر عدة مجموعات من الخطب السياسية وغيرها ، وعدة من الكتب ذات الموضوعات الادبية الصرف، ومئات القصص والمسرحيات فضلا عن آلاف المقالات المتنوعة الاغراض كالنقد الادبى والفنى والتراجم والمذكرات والخواطر النفسية وما الى ذلك .

ومعلوم انه ليس كل ما كتب فى هذه الابواب يستحق الاهتمام ، فالمحاولات كثيرة ولكن انظارنا انما تتجه الى ما استكمل الصفات التى تجعله يعد من الكتابة الادبية بحق . كما انه ليس بامكاننا ان نعطى نموذجا من انتاج كل كاتب ولو كان صالحا ، فالكتاب الذين جاوزوا مرحلة التجربة كثيرون ، منهم افراد متعددو الوجهات مضى ذكر بعضهم مع الباحثين ويذكرون ايضا مع الكتاب والشعراء ومنهم افراد تغلب عليهم صفه الكتابة ولا شأن لهم بالابحاث كعبد المجيد بن جلون وعبد الكريم بن ثابت (ت 1381) وابى بكر اللمتونى . ومنهم افراد يكادون يختصون بالكتابة كعبد الكريم غلاب وعبد الرحمن الفاسى ومحمد الصباغ . ولو كنا ندرس الاشخاص لاقتصرنا

على هؤلاء بصفتهم الكتاب الخلص ، ولكنا ندرس الادب المغربي في خطوطه العريضة ، فوكدنا هو ان نمثل اتجاهاته العامة ونترصدها من هنا وهناك بدون اختصاص لفرد من الافراد ، ولا استيعاب للجميع .

واول ما ننظر فيه من اشكال النثر الادبي الخطبة . وهي بما تؤديه من دور هام في المجتمع وما تختص به من عبارات مؤثرة في النفوس لا سيما اذا اعدت اعدادا لا تنفك عن كونها اثرا من الآثار الادبية الخالصة ، وان تناولت موضوعا غير ادبي وهل يستطيع احد ان ينكر ما لخطب علي بن ابي طالب (ض) وزياد والحجاج من القيمة الادبية برغم موضوعاتها السياسية؟ لقد اشرنا فيما سبق الى ان الخطابة السياسية في هذا العهد ازدهرت ازدهارا كبيرا ، ولا ادل على ذلك من هذه المجموعات العديدة من خطب المرحوم محمد الخامس وخطب ولي عهده (جلالة الحسن الثاني) وخطب الاميرة عائشة ، وكلها منشور بالطبع . وخطب القادة الوطنيين الذين برزوا في الحلبة مثل عبد الخالق الطريس والمكي الناصري وعلال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني والحاج محمد بنونة والمهدي بن بركة ومحمد داود وعبد الله ابراهيم وعبد العزيز بن ادريس وسواهم ، وهي منشورة في الجرائد وبعضها مطبوع على حدة .

على ان الخطابة الدينية والاجتماعية تطورت كذلك تطورا عظيما سواء من الناحية الموضوعية او الشكلية فقد صارت تهتم بالمشاكل العمومية والاصلاح الديني والاجتماعي ، ولم تبق قاصرة على التذكير بالعالم الاخروي والتزهيد في الحياة الدنيا ، كما تحسنت اساليبها وتهذبت لغتها بالتنزل الى افهام العوام ونبذ التقعر في الخطاب ومن اشهر الخطباء الذين لهم يد في هذا التطور الاساتذة محمد الطنجي وعبد السلام الفاسي وعبد الحفيظ كنون وللاول مجموعة خطب منشورة باسم وعظ الجمعة .

ونكتفي هنا باعطاء امثلة من خطب الملك المغفور له محمد الخامس . فانه لم يكن ملكا وحسب بل زعيما سياسيا ورائدا من رواد النهضة الفكرية وقد حرك بخطبه السواكن ، واثار الكوامن . وكان خطاب العرش الذي يلقيه يوم 18 نونبر بمناسبة ذكرى جلوسه يهز المغرب من ادناه إلى اقصاه.

فخطبه على هذا لها قيمة ادبية كبيرة بسبب ما نبهت من غفلة ، وقومت من اعوجاج ، وبثت من وعى صادق فى نفوس ابناء شعبه الذين كانوا يعتبرونها انجيلا للوطنية ودستورا للعمل من اجل تحرير البلاد لا سيما وهو كان يمليها املاء ويحور اسلوبها بحسب ما يظهر له حتى تاتى مستوعبة لجميع افكاره وتوجيهاته . ومن ثم كانت متشابهة فى الكثير من عباراتها واساليبها . فمن خطبة له فى الحض على التعليم ، « ثبت لدى كل عاقل ان لا اصلاح لاحوال البشر بدون انتشار التعليم الحقيقى النافع فهو اساس العمران ، ومنبع الرشاد لبنى الانسان ، فماذا انفقنا من مال وجهود فى سبيله ؟ ان عدد سكان المغرب يقدر بثمانية ملايين ، منهم ما يقرب من ربع هذا العدد فتيان وفتيات ، يتعين علينا جميعا ان نعتنى بتعليمهم وتثقيفهم حتى اذا ان لهم ان يقتحموا بحار الحياة العملية وجدوا فى انفسهم كل الاستعداد اللازم ليكونوا اعضاء عاملين لخير المجتمع نافعين لانفسهم وذويهم ، فكم من هذين المليونين نوجه للمدارس ؟ اننا لا نجد منهم حتى العشر فى المدارس. يبقى اذن مليون وثمانمائة آلاف من افلاذ اكبادنا مهملين معرضين للسقوط فى مهاوى الجهل والخسران ، لا على مستقبلهم سهرنا ولا الى الواجب علينا قبلهم التفتنا بل تعرضنا بهذه السيرة للقضاء على حياة الامة بسبب بقاء تسعة اعشار ابنائها فى الجهل الذى هو عين الموت . فماذا يعالج هذه الحالة السيئة ؟ لا سبيل الى اصلاح احوالنا الا الاقبال بسرعة على العلم الذى ينبغى ان يبذل لا لعدد قليل منا ، بل لجميعنا من غنى وفقير وحاضر وباد ، ومزاول للصنائع ، ومستعد للوظائف ، ومتعاط للتجارة ، وممارس للفلاحة » .

ومن خطابه التاريخى فى زيارته الاولى لطنجة سنة 1947 وهى رازحة تحت نير الحماية الدولية هذه الجملة التى تعبر عن ارادتـه القوية فى استرجاع حق البلاد المغصوب ، « اذا كان ضياع الحق فى سكوت اهله عنه فما ضاع حق من ورائه طالب . ان حق الامة المغربية لا يضيع . فنحن بعون الله وفضله على حفظ كيان البلاد ساهرون . ولضمان مستقبلها الزاهر عاملون » .

ومن خطابه فى عيد العرش سنة 1950 اثر عودته من فرنسا حيث

حاول ان يجرى مع الساسة الفرنسيين مفاوضات من اجل ابدال معاهدة الحماية باتفاق جديد يحقق للبلاد املها فى الحرية ، « لقد جعلنا مقصدنا الاكيد بعد ما لبينا الدعوة الجميلة التى وجهها الينا فخامة رئيس الجمهورية الفرنسية لزيارة فرنسا ، ان نعرض قضية المغرب على من بيدهم الحل والعقد من رجال الدولة الفرنسية ونسعى معهم فى الوصول الى الحل الذى يرضى الرغائب ويحقق المطامح . ولم يكن قط هدمنا من المحادثات السياسية التى اجريناها بفرنسا ان نظفر بتقوية سلطتنا لغاية شخصية وانما قصدنا بمساعينا وجهودنا صالح البلاد وتقدمها . ولم يغب عنا لحظة واحدة ان افضل حكم ينبغى ان تعيش فى ظله بلاد تتمتع بسيادتها وتمارس شؤونها بنفسها هو الحكم الديموقراطى التى تقوم عليه الدول المعاصرة ، والذى يوافق مبادىء ديننا الحر الكريم . لقد عرضنا مطلبنا على من يهمهم الامر من رجال الدولة الفرنسية بالكتابة والقول واضفينا عليه حلة الوضوح والبيان . وذلك بأن رغبنا فى ان تبنى علاقات المغرب بفرنسا على اسس جديدة وان يقع الاتفاق بيننا على الغاية من تلك العلاقات ، وعلى اسباب الوصول اليها . عرضنا هذا المطلب فى دائرة الود والصداقة ، وما زلنا نؤمل انه سيظفر فى مستقبل الايام بالاذن الصاغية والقبول الجميل . لاننا مقتنعون بأن الاساس الذى ترتكز عليه العلاقات السياسية بين الدول يجب أن يجرى على سنة الكون ، ويساير تطور الاحوال ويراعى تبدل الظروف » .

ومن خطاب آخر له فى الاشادة بالهداية الاسلامية والحض على التمسك بحبل الدين ، « ومن منن الله على الامة المغربية ان هداها للاسلام بعد أن اتصلت بدول كبار فعرفت مدنيتها وحضارتها ، ولكنها لم تستفد من ذلك كما استفادت من هذا الدين الحنيف ، الذى محا ظلام الشرك من جوانبها ، ولم شعث اهلها وامن سربهم ورفع شانهم والف بين قلوبهم فاصبحوا بنعمة الله اخوانا . وعلى نصرة الحق اعوانا . لا فضل لعربيهم على بربريهم ولا لبربريهم على عربيهم الا بالتقوى والعمل الصالح . كلهم مغاربة وكلهم امام الحق والعدل سواء . جعل الاسلام من هذه البلاد امة ودولة ، وزودها بما كانت تصبو اليه من ثقافة ، وما كانت تتوق اليه من حضارة ، فانجبت رجالا افذاذا كان لهم حظ وافر فى بناء صرح المدنية

والعلم ، وتوطيد دعائم العدالة والسلم ، ومكث المغاربة فى ظل الاسلام قرونا طوالا احسن الناس حالا ، واعزهم قرارا ، وامنعهم دارا ، فأسسوا ملكا شاسع الاطراف ، رفيع العماد ، واثلوا مجدا رفيعا شامخا ، وخلفوا تراثا قيما راسخا . لذلك يجب علينا ان نتمسك بهذا الدين القويم ، ونتبع صراطه المستقيم ، ونجتث حبل الخرافات والاباطيل والضلالات التى يبتدعها المشعوذون والمضللون . لانها كانت ولا تزال من اهم عوامل انحطاط المسلمين بما اشاعت فيهم من تواكل ، وما احدثت فى صفوفهم من شقاق وتخاذل » .

هذه نبذة مقتضبة من خطب العاهل الكريم التى تعد بالمئات والتى كان لها فعل السحر فى نفوس الجمهور على ما المعنا اليه من قبل . ولا نقول فى اسلوبها وديباجتها ـــ وذلك ما يهمنا هنا ـــ الا ما قاله هو فى وصف المطالب السياسية التى قدمها للحكومة الفرنسية ، ونعيد عبارته السابقة فى ذلك وهى هذه « لقد عرضنا مطالبنا على من يهمهم الامر من رجال الدولة الفرنسية بالكتابة والقول ، واضفينا عليه حلة الوضوح والبيان »، نعم انها حلة الوضوح والبيان التى تكتسيها خطبه ، وتعتبر ميزتها الخاصة ، واذا طرحنا من حسابنا ان ملوك العرب المسلمين فى المشرق والمغرب لعدة قرون خلت ، كانوا قد عطلوا وسيلة الخطابة فى الاتصال بشعوبهم والشرح لسياستهم ، فانا نجد ان ممارسة الخطابة السياسية من طرف محمد الخامس بهذه الصفة ، تعد ربحا لها وتقدما عظيما . ولا سيما بالاضافة الى ما نفخه فيها القادة الوطنيون من روح البعث والتجديد . على ان دائرة الخطابة قد اتسعت كثيرا فشملت سائر الميادين الاجتماعية ، واصبحت زينة المحافل وعدة الرجال فى المواقف ، بحيث يتوقف نجاح اى عمل او مشروع على نجاح الدعوة اليه ، والكلمة التى تقدمه للناس . وهذا فضلا عن المحاضرات العلمية والادبية التى تؤسس لها النوادى والمجامع الخاصة . وهى طبعا مما يدخل فى باب الخطابة ، ويقوم دليلا ناهضا على تطورها الكامل .

وبعد الخطابة ننظر فى المقالة . وهى الشكل الجديد من اشكال النثر الادبى الذى قلنا سابقا انه حل محل الرسالة وقد اصبحت وسيلة للتعبير

عن شتى الافكار وشؤون الاجتماع وقضايا الادب ، وكل ما يمت للثقافة الانسانية بسبب . واكتسبت من حسن السبك ، ونصاعة العبارة ما اكسبها قوة ونفوذا ، ولذلك كانت المقالة السياسية الى جانب الخطابة السياسية من امضى سلاح استعملته الحركة الوطنية فى مقاومة الاستعمار : كما كانت المقاومة الادبية الى جانب الخطابة الاجتماعية من الوسائل الفعالة فى تثقيف الشعب وتنمية الوعى القومى لدى الجماهير ، وبعض هذه المقالات لما لها من قيمة تاريخية او فنية جمعت فى كتب ونشرت ، وهى اكثرية الكتب الادبية الخاصة التى وجدت بالطبع لحد الآن ، ومنها كتاب مارس استقلالك لعبد المجيد بن جلون وحديث مصباح لعبد الكريم بن ثابت ونبضات فكر لعبد الكريم غلاب والعبير الملتهب واللهاث الجريح وفوارة الظمأ وغيرها لمحمد الصباغ وغير ذلك لسواهم .

والذى نستطيع ان نؤكده هو ان المقالة فى صورتها الحالية بالمغرب لا تقل قيمة عما يكتب منها فى اى بلد عربى آخر ، وانها اصبحت من اجمل انتاجنا الادبى على الاطلاق . ولو قدر لالوف المقالات المبعثرة فى الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية والشهرية ان تجمع فى كتب ، لكانت ثروة ادبية طائلة تضم الى رصيد الفكر العربى الضخم المعتد به من هذا القبيل وطبيعى اننى اعنى المقالة التى اوفت على حدود الكمال او قاربتها ، ولا اقصد كل ما كتب بشكل مقالة . فان فى هذا من السخف والهراء مالا يشمله كلا منا بحال .

ولتمثيل ما ذكرنا نقدم بعض النماذج للمقالة فى مختلف الموضوعات التى طرقتها بقدر ما يتسع له المقام . فمن ذلك مقالة سياسية بعنوان قبح الله الحماية للمكى الناصرى ، « يضحكنى والله ما يقوله المستعمرون المنافقون فى مهاترة وسفسطة لا حد لهما عند ما يأخذون فى شرح فوائد الحماية ومنافع الوصاية وما جلبه هذا الاختراع العجيب للانسانية من سعادة ورفاهية وتقدم منقطع النظير لا سيما بالنسبة الى هذا المغرب البائس المنكوب . وانى لاوجه وجهى شطر الحقيقة باحثا منقبا هنا وهناك عن محاسن الحماية ومزايا الاستعمار فلا أرى فى الحماية الا جناية ما فوقها جناية ولا ارى فى الاستعمار الا جريمة لا تعدلها جريمة على وجه الارض .

هذه بلادنا المغربية كانت موحدة التراب ، موحدة السلالة ، موحـــدة اللغة ، موحدة الدين ، موحدة الاقتصاد موحدة السياسة ، موحدة العدالة ، موحدة الحكم ، وبالاجمال موحدة بكل معانى التوحيد ، لا فرقة فيها ولا تشريد فجاءت هذه الحماية ، حماية الغرب المراوغ النافق المخادع المحتال، فمزقت بلادنا شر ممزق ، وقطعت وطننا وامتنا اربا اربا من كل النواحى ومن جميع الاعتبارات ، وقضت على جميع مقوماتنا الجوهرية كدولة وامة ذات كيان قومى وتاريخى خاص ، ووقفت حجر عثرة فى سبيل تطورنا الطبيعى ونهضتنا وبين كل ما يفيد شعبنا وامتنا او يدفع بهما الى ساحل النجاة والخلاص ، ولم تكتف الحماية الدخيلة بهذا كله ، بل خلقت لنا مشاكل جديدة ، واستحدثت لنا متاعب عديدة ، لتقف فى طريقنا وتحول بيننا وبين الوصول الى اهدافنا . وضربت الشعب المغربى اجمع بسوط الافلاس والقحط الى أن صرعته او كادت ، ولم يرضها شىء الا أن يموت هذا الشعب ميتة لا يحيا بعدها ابدا .

قبح الله الحماية فهى جناية ما فوقها جناية . وان من علينا بها الحماة زمنا طويلا ورتلوا فضائلها ومزاياها ترتيلا ، واننا لاحق منهم بالمن عليهم فعلى قفانا عاشوا ، ومن دمائنا اغتنوا ، ولولانا لكانوا دائما وابدا ثانويين فى الحياة الدولية والسياسية العالمية .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنون ، جاءت الى بلادنا العزيز بجيش من الصعاليك والمفاليك ليس لهم من الكفاءة ولا من الاستعداد ولا من الرجولة ما يخولهم ان يحتلوا ولو مركزا بسيطا فى حياة شعوبهم ، وداخل بلادهم جهلاء بكل معانى الجهل ، شرهين جشعين بكل معانى الشراهة والجشع ، قصار النظر فى كثير مما يفكرون ويعملون بعيدين كل البعـــد عن معرفة النفسية المغربية ، وعن فهم العقلية المغربية ، وعن الاحساس بالامانى المغربية . ومع ذلك وكلت اليهم قوة الحديد والنار مصير شعب حر بأسره ، ومستقبل امة عزيزة باكملها ، فماذا يفعل هؤلاء الصعاليك والمفاليك وهم اعجز من العجز ، وابلد من البلادة ، وكل ما يعرفون انهم اقوياء ، فيجب ان يحكموا المغرب وانهم سادة فيجب ان يكون المغاربـــة لهـــم عبيـــدا .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنون هى التى قسمت المغرب الى اجزاء ثلاثة قسمة ضيزى ما انزل الله بها من سلطان ، ثم قسمت الجزء الواحد الى نواحى ومناطق ، ثم قسمت الناحية الواحدة والمنطقة البسيطة الى عشرات الاجزاء والوحدات ، فشتت شمل العرب وشردت المغاربة ، وفرقت ما جمع الله طبيعيا ودينيا واجتماعيا واقتصاديا فكانت الطامة الكبرى على المغرب والمغاربة ، واصبح الجزء الواحد من وطننا ميتا مشلولا، والعضو الواحد من بلدنا مقطوعا مبتورا . الماء بجانبنا ونحن اليه عطاش لكننا لا نكرعه ، والخبز عن يميننا ونحن اليه جياع لكننا لا نطعمه والسهل امامنا ونحن اليه محتاجون ولكننا لا نزرعه ، والاخ الشقيق بجوارنا ونحن اليه مشتاقون ولكننا لا نستطيع الى زيارته سبيلا .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنون هى التى خلقت اول مشكلة دينية وسلالية وقضائية منذ عرف المغرب التاريخ . فقد كان المغاربة قبل الاسلام موحدين فى عقيدتهم وسلالتهم واحكامهم لا يستطيع احد ان يفرقهم ولا أن يمزق وحدتهم ثم جاء الاسلام الطاهر فقوى الوحدة المغربية ، واعطاها غذاء روحيا جديدا ووضع لها اساسا اقوى من كل الاسس السابقة ،فلم يعرف المغاربة المسلمون خلال ثلاثة عشر قرنا سوى شىء واحد هو انهم مغاربة متحدون دينا وجنسا وقضاء . تجمعهم كلمة الاسلام ،وتظلهم جميعا راية المغرب ، حتى جاء الاستعمار واعلنت الحماية فظهر على المسرح شىء جديد لم يعرفه التاريخ ولم تؤيده الحقيقة ، ولم يرض به الشعب المغربى فى قليل ولا كثير ذلك ان هناك مغربيا اصيلا ، ومغربيا دخيلا ، مغربيا مسلما او فى حكم المسلم ، ومغربيا مسيحيا او فى حكم المسيحى مغربيا يرضى بالتحاكم الى الشريعة المحمدية ومغربيا يرفضها ولا يرضى الا بالعادات الوثنية الجاهلية .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنون هى التى محت شخصية المغرب بين الدول وحطمت كيان المغاربة بين الامم ، وفرضت نفسها مسيطرة وحاكمة مشرعة ومنفذة ، يدير ابناؤها الصغير والكبير والجليل والحقير من شؤوننا ويحاسبوننا على النقير والقطمير ، فهم الحكام ونحن المحكومون وهم أصحاب البلد الاقربون ونحن الغرباء المنبوذون هم الاوائل فى الحقوق كلها

ونحن الاوائل فى التكاليف كلها ، لهم الامر وعلينا الطاعة ، لهم الحياة ولنا الموت لهم النصر ولنا الهزيمة ، لهم العيش الغض وعلينا العمل الشاق ، لهم الغنم وعلينا الغرم .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنون هى التى نشرت التجسس وحمت الخيانة ، وخلقت البطالة وبثت الدعارة واقامت دعائم الاباحية بسكرها وقمارها وزناها السرى والعلنى وروجت فى السوق المغربية بضاعة النفاق والتملق والطمع وشجعت كل خسيس من الاخلاق والعادات ومكنت للاباطيل والخرافات ، وخلقت كثيرا من مجاهيل المشايخ والسادات ، اصحاب الاضرحة والمزارات لتضل بهم المغفلين والمغفلات من عامة الشعب المغربى المنكوب .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنون جاءت بدعوى ترفيهنا فضايقتنا حتى فى الخبز والماء ، واصبحنا لا نجدهما الا لماما ، وجاءت بدعوى تحضيرنا فنقلت الينا اقبح ما عندها من مفاسد واخلاق وحاربت خير ما عندنا من عادات وتقاليد . وجاءت بدعوى تمريننا على الاقتصاد والحيلولة بيننا وبين الاسراف فاغرقتنا فى بحر من الديون والقروض ، وبعد ما وجدتنا مدينين ببعض ملايين اصبحنا اليوم مدينين بمئات المليارات . وجاءت بدعوى انها ستنقذنا من عوز ، وتغنينا من فقر ، فكانت هى الدائنة والمدينة ، وهى صاحبة القرض والانتفاع منه ، اى انها الغنية والفقيرة والحامية والمحمية ، بحيث لم تترك للمغاربة المساكين من تلك الملايين والملايير الا فتات الموائد وعرق الجبين .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنون جاءت بدعوى انها ستقدمنا وترقينا وتعدنا لحكم انفسنا بأنفسنا وتجعل منا فى وقت قريب امة حديثة قادرة على السير وحدها فى معركة الحياة الجديدة ، ودولة عصرية كاملة الاجهزة تامة الادوات مستعدة لاحتلال مركزها بين الدول المتحضرة فى اول فرصة دون اعتراض ولا جدل ، فبدلا من ان تهتم بتنظيم شؤوننا من اجلنا واجل مستقبلنا اهتمت بتنظيمها من اجلها هى واجل مستقبلها ، فدفاعنا هو دفاع الامبراطورية ، وجيشنا هو جيشها ، ومواصلاتنا هى مواصلاتها،

وانتاجنا هو انتاجها وتعليمنا تعليم فى صالحها ، وادارتنا ملحقة بادارتها، ووظائفها احتكار مقصور على شبابها ، وكلنا بدمائنا وجهودنا وأموالنـــا وكفاءاتنا مع ما فى اصلاب رجالنا وارحام نسائنا حتى احفادنا ملك خالص لسادتنا وحماتنا أبناء السلالة الغربية الرفيعة ، فالمغرب لهم ولابناء ابنائهم كما يهتف اطفالهم ويعلن كبارهم ، وللمغاربة العصا والحجر .

ايها المواطنون الاعزاء لقد ضقنا ذرعا بهذه الحماية البغيضة التى هى اكبر مسؤول عن كل ما اصابنا . لقد مللنا هذه الحياة الثقيلة الوضيعة التى نعامل فيها كالعبيد والحيوانات من قوم غرباء عنا دخلاء ليسوا منا ولسنا منهم فى شىء . ان الدم ليحترق فى قلوبنا ، وان حرارة انفسنا بلغت اعلى درجة فى الارتفاع ، فلم نعد قادرين على العيش تحت ظل هذه الحماية المفروضة علينا الباطلة من يومها الاول ، وان الشعب المغربى من اقصاه الى ادناه ليحتدم سخطا وحنقا على حماته المنافقين ، وابنائه العاقين وكانى اراه يستعد ليلا ونهارا لكسر جميع القيود والاغلال حتى يحطم الحماية ويعلن الاستقلال » .

اخترنا هذه المقالة لانها تتناول موضوع الحماية بالذات ، وهـــو الموضوع الذى تكسرت فيه الاقلام . واثار من الجدل السياسى طوال نصف قرن واكثر ما يملأ المجلدات الضخام . وقد شرح كاتبها الحماية وحللها على ضوء الواقع وتجربة السنين فابدى عوارها وكشف سواتها وحكم عليها حكما عادلا لا معقب له بما اشاعت من فساد وشرعت من ظلم واحدثت من تفرقة بين عناصر الامة الواحدة ، وما تسببت فيه من عرقلة نهضة البلاد وتطور المجتمع ونمو المؤسسات الوطنية التى تعمل لرقى الشعب وتقدمه حتـــى تبقى مسيطرة على مقدرات المغرب مستغلة لجميع خيراته بلا مشارك ولا مزاحم . وقد جاءت لغة المقالة واضحة كل الوضوح لانها تخاطب جمهرة الشعب فلابد ان تصطنع الكلمات الدالة والالفاظ المعبرة التى لا تحتـــاج الى تفسير او بيان . وجاءت لهجتها صريحة ، جهد ما تكون الصراحة ، لان سلطة الحماية كانت قد تغلغلت فى جميع المصالح والمنشآت ، ولم تترك للعنصر الوطنى مجالا للتصرف فى اى عمل من الاعمال . فتعين تحديها ومجابهتها بالانكار الصارخ والنقد اللاذع كى تقف عند حدها وتتراجع قليلا عن استفزازها للشعور الوطنى الصاخب الثائر .. ولكنها كانت تزيـــد

فى غلوائها وتركب راسها فتعاقب الكاتب والصحيفة التى نشرت المقال بالغرامة والتوقيف . ويتضاعف سخط المواطنين ويلتهب شعورهم فيتجـــه التفكير من جديد الى المقاومة المسلحة التى لم يستاصل هذا السرطان العفن فى الاخير الا هى .

وكانت هذه هى الروح التى تتقمص المقالة السياسية فى هذا العهد وان اختلفت طرق التعبير واساليب البيان التى ينتهجها اصحابها ، فانها تارة تعتمد الاسلوب الخطابى للتاثير فى القارىء ، وبعث حماسه ، وتارة تسلك سبيل المنطق والحجة قصد توعية المواطن وافحام الخصم ، ولكنها ان اختلفت فى هذا فان معاملة سلطات الحماية للكتاب والصحفيين الوطنيين لم تكن تختلف بحال عما ذكرناه ، لان الروح الوطنية الثائرة التى كانت تتجلى فى كل مقال ايا كان اسلوبه وطريقة كاتبه . لم يكن ارباب السلطة يستسيغونها او يتسع صدرهم لقبولها ، فلا يفتأون ينزلـــون العقوبات الصارمة بالكتاب واصحاب الصحف الذين لا يثنيهم عن خطتهم وعد ولا وعيد ، وان دل ذلك على شيء فأول ما يدل عليه هو القيمة الادبية للمقالة السياسية التى استطاعت ان تهزم الاستعمار بما يتوفر عليه من قوة مادية ومعنوية . وتنفخه فيطير وتطوح به وباعوانه الى جهنم وبئس المصير ، وقد ادرك عبد الحميد الكاتب ما للكلمة البليغة من اثر فى هذا الباب فقال حين وجه الى ابى مسلم الخراسانى داعية بنى العباس عن مولاه مروان بن محمد آخر خلفاء بنى امية كتابا يستميله فيه . قد كتبت له كتابا متى قراه بطل تدبيره ، لكن الداهية الخراسانى امر باحراق الكتاب ولم يقراه ، ويقال ان هذا الكتاب كان لكبره يحمل على جمل ، ومن حسن الحظ ان خصومنا كانوا يقراون مقالاتنا ، وان الشعب كان يقراها ايضا ، وفى الوقت الذى كان سيف الرقابة مصلتا على الرؤوس وكانت الجرائد تصدر وغالب انهرها بيضاء ، لان الرقيب قطع اوصالها وحذف منها ما راى انه يمس بسياسته ، كانت الجماهير الشعبية ، تذهب كل مـــذهب فى تقديـــر ذلك المحذوف وماذا عسى يكون مع اتفاقها على انه مما حز فى نفس المستعمر والهب حقده . وبذلك تكون المقالة السياسية ادت وظيفتها ثابتة ومحذوفة وعبرت عن امانى الشعب المضطهد فى حريته المغلوب على حقه ، وما نظن ان ذلك يتاتى الا اذا كانت المقالة من حر النثر الذى يوجهه الحس المشترك

بين طبقات الامة نحو الاهداف القومية العليا . وهذا من الاتجاه الجديد فى النثر العربى على العموم ، وليس النثر فى المغرب ببدع من ذلك الاتجاه .

وهذا مثال من المقالة التى تعنى بشؤون الثقافة والفكر ، وتتجه اتجاها انسانيا عاما ، وهو مقالة لعبد الكريم غلاب بعنوان رثاء ضمير :

« من سطحية البشر انه لا يعتبر جديرا بالرثاء الا الذين يراهم رأى العين يسيرون بين يديه ثم يفقدهم فى لحظة عين فاذا بالرزء جسيما والمصيبة عظمى . واذا بالاكبد تتشقق والارض تميد ، فيعز الصبر ازاء عظيم المصاب، وينطلق القلم راثيا مؤبنا ناثرا او شاعرا ، وقد اعتاد البشر هذه السطحية فلا يحاولون النفاذ لما وراء جسم يتحرك ، ولا يحسون ان هناك ما هو اسمى من الجسم يموت فى لحظات من زمن . فلا ينطلق الشعر ولا النثر يرثى ويتأسف ويصور اللوعة المحرقة والشوق المتأجج .

واجدنى اليوم امام ضمير مات او هى ضمائر ماتت ، واحسبنى لا اسير فى الاتجاه التقليدى ، فلا ارثى اصحابها الا اذا فارقوا هذه الحياة ، ولعنى ما كنت لارثيهم لو حدث ذلك ، فسيذهبون بضمائرهم ، ولم اعتد ان اثور على سنة الحياة فما رثيت احدا مات الا ان يكون رثاء دراسة او بحث عـــن نتـــاج .

ولكن لم اجد الصبر ولا السلوان امام الضمائر التى ماتت ، فالضمير فى نظرى اهم ما ينبض بالحياة فى انسان ولو كان هذا الذى ينبض قلبـــا او شرايين طافحة بدم الحيـــاة .

والرزء العظيم ان الضمير الذى مات ترك اجسادا تتحرك بلا ضمير ، وترك عقولا تفكر بلا ضمير ، وترك قلوبا تعى بلا ضمير ، وترك عواطف واحساسات تتحرك بلا ضمير ، وما ظنك باقوام يحاولون ان يسيروا الحياة بقلوبهم وعواطفهم وافكارهم ، ولكن لا ضمير لهم ؟ ان الرزء عظيم لا بالنسبة اليهم — فكم من شخص عاش بدون ضمير ومات بدون ضمير فلم يحس بوجوده او موته انسان لانه وقف فى حياته حيث وقفت به ممكناته ، فلم يتعد خروجها ولم ينصب نفسه ليسير حياة الناس بضمير ميت ، ولكن الرزء

عظيم بالنسبة للذين حلا لهؤلاء ان يساهموا فى تسيير حياتهم فما كان لحياة ان تستقيم ومسيروها ماتت ضمائرهم فانطلقوا يشاركون فى الحياة العامة التى تهم الشعب ولكن بدون ضمير .

سألنى مرة صديق عن رايى الصريح فى فلان ، قلت انه ذكى نشيط مقتدر مثقف — ولكن — قال — وفى عينيه تساؤل — : ولكن ماذا ؟ قلت ولكن لا ضمير له . قال : وما يغنى الضمير اذا كان يملك كل هذه المواهب ؟ قلت الضمير هو روح كل هذه المواهب فهى اذن مواهب ميتة ، اذ كان يعوزها ضميـــر حـــى » .

تمثل هذه المقالة نزعة فكرية متحررة واسلوبا انشائيا جميلا يمكنان الباحث من تقدير مدى التقدم الذى حققته المقالة الادبية سواء فى المادة او الصياغة . ان الموضوع حى وطريف والظروف الموحية به انسانية وعامة فهو قائم فى كل زمان ومكان ، ولكن ، اثارته بهذه الطريقة اللبقة هى التى تسترعى النظر فهى لم تبرزه للعيان فقط بل اكدت على كونه مشكلة اخلاقية تستوجب التفكير الطويل والعلاج السريع ، وان لم يكن ذلك بصريح اللفظ والعبارة ولا باسلوب الوعظ والارشاد ، لان براعة الادب الملتزم او الهادف وهذه المقالة منه فى الصميم هى فى ان يسلك الى اعماق النفوس من دروبها الخفية ، وان يمارس عمليات الهدم والبناء بموحيات الكلمة لا بفعل الامر ولا الناهية . والكاتب حين عنون مقالته برثاء ضمير وعبر عن تعلق الناس برثاء الاشخاص دون المثل والقيم بانه تعلق بالمعنى السطحى للرثاء ، انما اراد ان ينبه القارىء الى اهمية الفكرة التى يعرضها فى صورة ادبية معهودة وهى الرثاء الى حيث لم يسبق لتلك الفكرة ان عرضت قط فى هذه الصورة ، ومن ثم اثار اهتمام القارىء وجعله يسلم حقا بان موت ضمير الشخص لهو مصاب اعظم من موت الشخص نفسه وانه احق بالرثاء وان الامة التى يسير امورها اناس ماتت ضمائرهم لهى امة على خطر عظيم ، ولن تستقيم امورها بحال . ان هذا هو الايحاء ، والايحاء من الالتزام ، وهو اتجاه جديد فى ادب المقالة والادب بعامة .

وهذه مقالة نقدية بقلم محمد ابا حنينى تتناول رســالـــة الصداقـــة والصديق لابى حيان التوحيدى :

« رسالة ابى حيان التوحيدى فى الصداقة والصديق من امتع آثارنا الادبية القديمة ، ولهذه الرسالة قبل كل شىء مزية كبيرة الا وهى موضوعها فان موضوع الصداقة والصديق تجمع الاذواق على قبوله وترتاح اليه جميع النفوس ، لان مشكلة الصداقة والصديق تعترض الناس جميعهم فى سبيل حياتهم . والرسالة معرض لآراء شتى حول الصداقة لا تنساق فى سلك غير سلك الصداقة ولا يجمع بينهما الا جامعة هذه العاطفة التى ينتظم ذكرها الكتاب من ابتدائه الى انتهائه .

ولم يخطر ويا للاسف لابى حيان ان يعرض علينا هـــذه العاطفـــة واحوالها واعرضها عرضا منظما ، ولا ساقها سياقا منطقيا . وياليته سبق ابن حزم فدرس اطوار الصداقة بذلك الاسلوب الذى درس به الاديب العالم الاندلسى الشهير عاطفة الحب فى نشوئها وارتقائها وضعفها وقوتها، ولكن ابا حيان جمع فى رسالته هذه طائفة من الآراء صدرت عن كتاب عرب مسلمين ، وعن مفكرين اجانب وغير اجانب قدماء ومحدثين ، وبعثرها فى صفحات رسالته من غير ان يخضعها لترتيب قويم ونظام محكم ، ولـــم يخف هذا العيب على ابى حيان فقد لجأ الى احوال حياته وما كان يعانيه من الوان الكدر والاشمئزاز من الدنيا عند ما كتب الرسالة واراد ان يبلغ منهـــا عـــذرا .

ولم يقتصر كاتبنا على الآراء التى اعرب عنها اصحابها نثرا ، وانما جمع فى رسالته بين الشواهد المقتبسة من الصناعتين معا فجاءت الرسالة معرضا ازدحمت فيه الآراء مختلفة ابدا ، موجزة تارة ، ومستفيضـــة اخرى ، مشيدة بذكر الصداقة المتينة او منددة بالوداد المدخول والصفاء المزعوم . وكثرت فيها الكتب التى تصدر عن صديق وتبلغ الى صديق والتى تحض على حفظ الوداد او تؤكد البقاء على العهد ، او تتقاضى حقـــوق الالفة القديمة والاخاء الثابت .

والرسالة من اجل هذا كله بالرغم عما يشينها من العيوب الشكلية التى اشرنا اليها ، ممتعة جدا امتاع سائر ما يصنفه او يرويه ابو حيـــان فان فيها شاهدا عظيما على ان العرب المسلمين عنوا بعاطفة الصداقة عناية كبيرة حتى اوحت اليهم بشىء كثير من جميل الشعر ومحكم النثر .

على ان الرسالة لم تتضمن جميع ما قاله العرب فى هذا الباب ، وابو حيان يعترف لنا بذلك ولولا خوفه من التطويل لكانت رسالته أضفى ونفسه فيها اشد امتدادا . وما كان لابى حيان الذى قضى نحبه فى مستهل القرن الخامس ان يضم الى رسالته ما اوحى به موضوع الصداقة والصديق الى شعرائنا وكتابنا خلال القرن الخامس بنوع خاص من حر المنظوم ورائق المنثور .

وقد جنى خوف ابى حيان من الاسهاب على قارىء الرسالة جناية اخرى اذ حرمه قصصا لو استرسل فيه الكاتب لكانت الرسالة انفس واغلى . غير ان ابا حيان ان ضن علينا بشىء كثير من محفوظه واستأثر دوننا بنصيب جزيل من قصصه ، فقد سمح لنا بالتطلع الى سريرة نفسه والوقوف على تبرمه بالدنيا اذ اصبح فى نظره لفظ الصداقة بلا معنى وعفت رسوم الالفة بين الناس ونضب معين الوداد ، وما كنا لنزهد فى هذه الصورة القاتمة ، ونرغب عن هذا الشعور الكئيب ولو تضمنت الرسالة من اقوال غيره صنوفا من الاحساسات والمشاعر . والعلة فى ذلك ان كاتبا كابى حيان نضعه فى ذروة البيان العربى لخليق ان تحصى انفاسه ويبذل فى اقتناص خواطره جهـد جهيـد .

ولابى حيان قوة خاصة على الاعراب عما حصل له من الخيبة بعد الامل ومن الاشمئزاز بعد الاستبشار ، ولا نسوق من الشواهد على ذلك الا هذه الكلمات التى وردت فى طليعة الرسالة وذلك حيث يقول : « ومن العجب والبديع انا كتبنا هذه الحروف على ما فى النفس من الحرق والاسف والحسرة والغيظ والكمد والومد . وكانى بغيرك اذا قراها تقبضت نفسه عنها وامر نقده عليها وانكر على التطويل والتهويل بها ، وانما اشرت بهذا الى غيرك لانك تبسط من العذر مالا يجود به سواك وذلك لعلمك بحالى واطلاعك على دخلتى واستمرارى على هذا الانقباض والعوز اللذين قد نقضا قوتى ونكثا مرتى وافسدا حياتى وقرنانى بالاسى وحجبانى على الاسى لانى فقدت كل مؤنس وصاحب ومرفق ومشفق . والله لربما صليت فى الجامع فلا ارى الى جنبى من يصلى معى ، فان اتفق فبقال او عطار او نداف او قصاب ، ومن اذا وقف الى جنبى اسدرنى بصنانه او اسكرنـى بنته ، فقد امسيت غريب النحلة غريب الخلق مستأنسا بالوحشة قانعا

بالوحدة معتادا للصمت ملازما للحيرة محتمــلا للاذى بائســا بجميــع من ترى متوقعا لما لا بد من حلوله فشمس الوجود على شفا وماء الحيــاة الى نضوب ونجم العيش الى افول وظل التلبث الى قلوص » .

ولا بدع ان يجيل كاتبنا نظره حوله ويلقيه على جيرته واقاربه ويصيح صيحة من اقفرت دنياه من الاصفياء والاصدقاء لانه كان يضع الصداقة بمكان اسمى من ان يلحقه عموم الناس . والدليل على هذا اننا نراه ينوه بنوع من الصداقة عزيز المنال اذ يقول : (قلت لابى سليمان محمد بــن طاهر السجستانى : انى ارى بينك وبين ابن سيار القاضى ممازجة نفسية وصداقة عقلية ومساعدة طبيعية ومواتاة خلقية فمن اين هذا وكيف هو ؟ فقال يابنى اختلطت ثقتى به بثقته بى فاستفدنا طمأنينة وسكونا لا يرثان على الدهر ولا يحولان بالقهر ، ومع ذلك فبيننا بالطالع ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبة ومظاهرة غريبة حتى انا نلتقى كثيرا فى الارادات والاختيارات والشهوات والطلبات وربما تزاورنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد ما افترقنا فاجدها شبيهة بأمور حدثت لى فى ذلك الاوان حتى كانها تسائم بينى وبينه ، او كانى هو فيها او هو انا . وربما حدثته برؤيا فيحدثنى بأختها فنراها فى ذلك الوقت او قبله بقليل او بعده بقليل . فقلت هل تجد عليه فى شىء او يجد عليك فى شىء ؟ قال . وجدى به فى الاول حجبنى عن موجدتى عليه فى الثانى . على انه يكتفى منى فيما خالف هواى باللمحة الضئيلــة واكتفى انا ايضا منه فى مثل ذلك بالاشارة القليلة ، وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكناية عن غيرنا كاننا نتحدث عن قوم آخرين ويكون لنا فى ذلك مقنع واليه مفزع . وقلما نجتمع الا ويحدثنى عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى الى شفتى ولا ندت عن صدرى الى لفظى ، وذلك للصفاء الذى نتقاسمه والباطن الذى نتفق عليه ، والظاهر الذى نرجع اليه والاصلى فيه والفرع الذى تشبثنا به . والله ما يسرنى بصداقته حمر النعم) .

ومعذور من يطمح الى هذا المثل الاعلى اذا استصغر كل صداقة لا تسمو الى هذه الذورة وساء ظنه بمن لا يستطيعون التفانى فى حب الصـــديـــق » .

هذا نموذج وسط من مقالات النقد الادبى لا هو بالطويل الممل ولا بالقصير المخل ، ومع ذلك فانه ينبىء عن نظرة فاحصة تجوس خلال الاثر المنقود وتنفذ الى اعماقه فتصنفه وتحلله وتبرز مواطن القوة والضعف فيه ، ولا تكتفى بذلك بل تربط بين معطياته ، وما تعرفه عن صاحبه وهو شىء كثير فتستخلص من ذلك احكاما وقضايا لها فائدة جلى فى تقييم الاثر ومعرفة نفسية مبدعة . ولا يتطلب من المقالة النقدية اكثر من هذا . اما عن اسلوب المقالة ولغتها فانهما من قبيل ما يسمى بالسهل الممتنع ، والنقد يتطلب التركيز والوضوح فلا مجال فيه للخيال والتفصح ، وهذا من الفوارق الجوهرية بين المقالة الادبية الخالصة والمقالة النقدية .

وهذه مقالة بعنوان الفنون والحضارة لعبد السلام العلوى وهى الى التعريف اقرب منها الى النقد والادب الخالص : « يكاد الجيل الجديد ، جيل الطاقة الذرية والطائرات الصاروخية ان تشتبه عليه المصالح ، وتضطرب فى نفسه الاوضاع . فيكفر بقوانين الكون ، تلك القوانين التى سارت على ضوئها الاجيال السابقة فابدعت لنا ما ننعم به من مدنية ودين وعقائد ، ليتوجه بفكره ويتطلع بقلبه الى هذه الحضارة المادية الآلية التى تكاد فى يوم من الايام اذا لم تغير سيرها وسرعتها واتجاهها ان تعصف بها الارض عصفا فاذا هى هباء فى الفضاء .

لم يعد الناس وخاصة الشباب يتحدثون عن الكون ونواميسه والدين واسراره والمجتمع وحالاته ، وانما ظلوا يرقبون تلك القوى الكامنة فى النار والحديد وما هو من قبيلهما كان شيطان الهدم الذى سيطر على العالم فى هاتين الحربين الاخيرتين قد ملك عليهم مشاعرهم فلم يعودوا يفكرون فى شىء سواء .

فكيف بعد هذا لا نحمل القراء على الضحك والسخرية اذا ما طمعنا فى حمل خيالهم الشارد الجموع الى الشاطىء الآخر ، ذلك الشاطىء الهادىء لنحدثهم عن الفن والفنانين واثرهم فى الحضارة ، تلك الحضارة المهددة فى كل حين بالانقراض والفناء . فليحسبوا اذن هذا المقال حديث خرافة ، وليتفضلوا بالاطلاع عليه ، فما اكثر ما تسرى الخرافات عن الحائرين وان لم تحمل اليهم شيئا جديدا .

فنحن بالرغم عن هذا لا نظن انه يوجد فى العالم المائج المضطرب رجال اسعد من الفنان الذى يقضى بياض يومه وسواد ليله فى ابداع الجمال على اختلاف الوانه ، وصوره ، ولهذه السعادة اسباب عدة اهمها ان الكاتب الذى يجهد فكره ليزيد فى ثروة اللغة معنى جميلا وخيالا رائعا ، والرسام الذى يقضى نهاره امام لوحته والوانه ليخرج الى الناس صورة بديعة ، والموسيقى الذى ينفق عمره بين عوده وبيانه ليأتى بلحن رقيق شجى ، كل هؤلاء واشباههم يجدون لذة ومتعة لا تساويهما اية لذة فى هذا الوجود .

والسر فى ذلك ان فى اعماقنا ميلا شديدا الى الايجاد ، وطموحا عظيما الى الابداع ، فمتى بلغنا الى اختراع شىء من الاشياء وكان هذا الاختراع جميلا ظفرنا بمثل ذلك السرور الذى لا تشعر به الا الام حينما تزيد نسمة حية فى هذا العالم . والغريب ان هذا السرور لا يشعر به الفنانون المبدعون وحدهم بل يعكسونه على كل من يقرا كتابتهم او ينظر الواحهم او يسمع الحانهم ، ولما كان السرور الداخلى واللذة الروحية اعلى ما يطلب الناس كانت للفنون قيمة لا تعادلها قيمة ، وربما قيل بان لذة الفن لا يكاد يشعر بها الا افراد قلائل ، اذ ليس كل انسان فنانا بل وليس كل انسان قادرا على فهم الاعمال الفنية حتى تحصل له هذه القدرة المقصودة وهـذا السرور المنتظر . نعم لكن غايتنا وغاية الحياة العالية ان يصير كل فرد فنانا فيمـا يعمل لانه متى بلغ المرء الى هذه الدرجة انقرضت بالنسبة اليه كل اسباب الحزن والشقاء فى هذه الحياة ولم يبق الا السرور والفرح وذلك شىء لا يستهان به ومن ثم تنقرض فى هذه الحياة كل الصعوبات والمشاق ولا يبقى فى العيش ما يثقل على القلب والروح فيقذف بالانسان فى مهواة الالحاد والتمرد على الخالق او يلقى به فى ظلام اليأس القاتل حتى يمد يديه الى روحه فيزهقها ، وكيف يتخيل الانسان امة ليس فيها الا الفنانون ؟

فالفن اذا نافع فى حياة الانسان وان ظهر بعكس ذلك لاول وهلة ، لانه ينبوع اللذات السامية المهذبة ، ولا تقف انفعالاته فى الافراح الروحية والعقلية وحدها بل تتعداها الى ما وراءها بكثير اذ يكاد الفن يلقى فى كل آن درسا على النـاس يريهم الحياة الحقيقية حياة الروح التى وجدوا لها فى هذا العالم والتى يجب ان يعملوا لها بكل ما لهم من حول وقوة ، كما انه

بربهم معنى الحياة الغامض الذى يمرون به فلا يبصرونه ولا يفهمونه ، ويهديهم بعد ذلك الى الصراط السوى والنهج الاقوم .

فالفنانون هم الذين يصنعون عقلية الامم التى يعيشون فيها ويكونون شخصيتها ويعطونها مظهرا تتجلى به بين الامم . فاذا ذكرت عصر الموحدين او المرينيين بالمغرب فكرت اول ما تفكر فى صومعة حسان والكتبية ومدرسة العطارين ومدرسة ابى عنان وما الى ذلك من الآثار ، لان هذه المبدعـات الفنية هى التى تختصر لنا عقلية تلك الاجيال الماضية وتعبر عنها تعبيرا سويا جامعا فى وسع كل انسان ان يفهمه على قدر عقله وثقافته . فالفنانون اذن او آثارهم تعمل عمل الكاتب والمؤرخ بل ربما فاقته اذ تزيد على منفعة الاخبار لذة الجمال ومتعة السرور .

والفنان كيفما كان شأنه يتناول مادته من اعماق حياة شعبه وامتـه فهو ولا شك مخلد لهما ولشخصيتهما فى عصر معين ، غير انه حينما يزيد فى هذه المادة من نفسه المبدعة الخالقة يزيدها وضوحا وقوة وروعة تضمن لها الخلود او على الاقل البقاء الطويل . والفنانون بذلك يزيدون فى ثروة الشعب المعنوية ، ويضاعفون قوته الداخلية ويكونون تاريخه ومثله العليا وغاياته السامية فى العيش . ومن هنا يتجلى لكل اريب ان الامة التى لا تملك فنانين يعبرون عن شعورها واحساسها ويخلدون آثارها ويختصرون نفسيتها بطريقة خفية رتيبة تضم اللذة والمنفعة ، انما هى امة غارقة فى بحور التوحش مدلجة فى ظلام المادة ، وان قلنا ان عيشها اقرب الى عيش العجماوات منه الى حياة الانسان المتمدن لم نبعد فى ذلك عن الصواب .

واين توجد امة جديرة بهذا الاسم لا تفكر الا فى الاكل والشرب وما فى معناهما مما تقوم به معيشتها المادية ثم تهمل الجانب الروحى اهمالا كليا فلا تغنى ولا ترقص ولا تتزين . انها والله غير موجودة ، فزنوج افريقيا واستراليا ـــ وهم اكثر الناس توحشا ـــ نراهم يقضون جل اوقاتهم فى الغناء والرقص والالعاب وكل ما يجلب لهم السرور ويدخل عليهم الفرح . كما اننا نرى نساءهم يتزين بالودع والمحار ويتحلين بالاسورة والخلاخل متى وجدن الى ذلك سبيلا ، ومن هنا ندرك ان الفنانين ليسوا باشخاص غير عاديين كما يزعم بعض الافراد بل هم اكثر الناس تيقظا واتزانا ، ولئن اتوا فى

ابداعهم بما لا يرضى بعد المفرطين فى المادة فانما يعبرون عن حاجة ماسة بالامة اجمعها وهى الشعور بالجمال اذ هم وحدهم يستطيعون الافصاح عنها فهم اذن السنة الشعب وصوت الامة التى يعيشون فيها وينتسبون اليها ومتى فقدهم اى مجتمع كان اخرس ينادى فلا يسمع له نداء ويحاول ان يفضى بما فى نفسه فلا يستطيع .

والفنانون كالسياسيين كل منهم موجد مبدع غير ان السياسيين القادة لا يبدعون الا فى الناحية الزمانية وقليل منهم من يتعداها . اما الفنانون فهم وان كانوا مخصوصين بالجانب الروحى والجانب العقلى فأثرهم يتعدى هذا النطاق فيشمل فى الغالب ما هو من قبل الجانب الآخر وانت اذا دققت النظر اكثر من هذا وجدت السياسيين يستخدمون القوة والارهاب فى الامتثال لاوامرهم والخضوع لارادتهم اما الفنانون فهم يسخرون وسائل اخـرى تفوق الاولى رقة ولباقة اذ يتناولون الناس من الجانب المعنوى فيأخذونهم بالجمال والسرور واللذة وكلما حسنت الاسباب حسنت النتائج .

وكل من يولى الفنون شيئا من دقة النظر وحسن التمييز يجدها تلقى علينا دروسا دائمة فى التربية والاخلاق ، وتبين لنا حقيقة الحياة التى يجب ان نعمل لها . فالكتاب يهذبون عقولنا واذواقنا بما يزيدون فى ثروة اللغة والادب من حيث الاخيلة الرائعة ، والافكار الصائبة والتصورات العجيبة التى توجهنا احسن توجيه فى حياتنا ، وتفتح لنا المجال لحياة روحية سامية ننسى فيها اتعابنا واحزاننا وجميع ما يحيط بنا من شقاء فى هذا العالم القاسى لنتمتع بالجمال المطلق ولو حينا من الزمان ، ونشعر باللذة الفنية بعد ما فقدناها . والرسام يهذب بصرنا بما يظهر لنا من الصور البديعة الاخاذة . والموسيقى يرقى سمعنا بما يقدم اليه من الانغام العذبة الساحـرة ، والنحات والمهندس كلاهما يعطينا بيانا شافيا عن فكرة التوازن والانسجام وهلم جرا . وكل فكرة دارت فى خلد الانسان وكان شأنها ان ترفع الشعب والامة فى سلم الحضارة والرقى ولم يستطع ان يعبر عنها بجلاء ووضوح الا والفنون الجميلة تعبر عنها وتظهرها الى الناس مجسمة ملموسة على كثير من حواسهم الروحية والمادية .

ومن مزايا الفنانين التى تظهر عظمتهم وتزيد سموهم ان الناس قلما

يحفلون بهم فى حياتهم اذ يقضون اعمارهم غالبا فى المحنة والشقاء فاذا ماتوا وانقرضوا انهال الناس على آثارهم بالتعظيم والاكبار ، فما هو النفع المادى الذى فاز به المتنبى فى حياته ؟ وما هو الاجلال الذى لقيه لامرتين فى أواخر عمره ؟ وما هى الحفاوة التى تمتع بها روسو بين معاصريه ؟ فالفنانون اذن ينشرون بيننا مزية من اسمى المزايا الا وهى النزاهة والنظر الى الدنيا بعين ملؤها غاياتها السامية ومثلها العليا .

ولم يغل الرافعى اذ قال (الفنان نبى هذه الديانة الرقيقة التى من شريعتها اصلاح الناس بالجمال والخير) .

وعظمة اية امة لا تقاس الا بمقدار ما انجبت من الفنانين والآثار الفنية . لا بمقدار ما اخرجت الى العالم من ابطال يشنون الحروب بين الناس بدل ان ينشروا السلم ، ويشهرون العداء والبغض عوض ان يشهروا الوئام والمحبة ، فالفنانون بما يقدمون الى الانسانية من آثارهم الجميلة الراقية يرفعونها درجات فوق المادة وما يتصل بالمادة ليفكر الشخص ولو حينا من الزمن فى حياة علوية جديرة بروحه فينسى معها آلامه واتراحه ليتفرغ بمجموعه الى التمتع بالجمال المطلق واللذات السماوية ، ولولا الفن والفنانون لكانت حياة الانسان كحياة العجماوات او اقرب اليها اذ قلما تتعدى حدود الاكل والشرب وملذات الجسد . ومن منا ينكر تأثير قطعة موسيقية راقية على اعصابه او يكابر فى نسيان الاتراح والسهو عن كل ما يحيط بالمرء من مظاهر الحياة القاسية حينما يحضر تمثيل رواية جميلة ؟ وها نحن نرى ان للفنون تأثيرا محسوسا على كل ما لا يمكن ان يتوصل اليه الانسان فيؤثر فيه تأثيرا محسوسا مباشرا . فالفنون اداة التأثير على الناحية الروحية والعقلية منا ، اداة التأثير على كل ما يتمرد على القوات الخارجية كيفما كان شأنها .

وتاريخ الامم بمعناه الصحيح انما هو تاريخ فنانيها من كتاب وشعراء وموسيقيين وغيرهم . اما حروبها وانتصاراتها وهزائمها فهى من ناحية انسانية محضة ، فى درجة ثانية اذ قليل من الناس من حارب لنشر غايات سامية ومثل عليا كما حارب اجدادنا المسلمون من قبل . وانمـــا يحارب الناس لنشر افكار او نزعات كلها انسانية واغراض والضمير الانســانى والتاريخ العادل لا يبحثان عما كان صالحا لامة دون امة ولعصر دون عصر

بل ينقبان دائما عما كان فيه الخير والنفع للانسانية جمعاء بصرف النظر عن الجنسية والوسط والعقائد .

ولقد اصاب ابن خلدون فى قوله : (ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للاشخاص) ونظريته الصائبة فى سير اعمار الدول هى ايضا مع كل العجب نظرية العلم الحديث فى الفنون . فسمو الفن يرافق سمو الدولة وانحطاطها ويتاثر بقوتها وضعفها ، فتاريخ امة من الامم يمكنه ان يرسم بخط اعقف تدل اعلى نقطه فيه على سمو الفنون فيها وبلوغها الغاية القصوى .

وهناك قانون من قوانين الكون يشمل كل مخلوق فى هذا العالم يقضى بان تكون للفنون طفولة وشباب وهرم وموت . واعظم الدول هى التى طال فيها شباب الفنون وامتد فانجب كتابها وشعراؤها ونحاتوها ومهندسوها ومصوروها اعمالا جليلة خليقة بهذا الشباب الريان . ومن اكبر هذه الدول دولة اليونان ، فلقد بلغت فيها الفنون شبابها حوالى القرن الخامس قبل الميلاد قرن بيركليس ، فابدع فنانوها ما لا يفنى على تعاقب الازمان وهذا الشباب القوى المبدع هو الذى لا يزال يضمن لها البقاء بل الخلود . وان كانت قد انقرضت منذ عشرات القرون ولولا ذلك الماضى الفنى المجيد لما وجدت من يذكر الاغريق بما يذكرون به اليوم .

واعظم جريمة ، يرتكبها شعب من الشعوب هى عدوله عن تراث اجداده الفنى واستخفافه بهذا التراث كيفما كان شانه ، ثم العمل بكل ما فى وسعه لان يحيى حياة ميكانيكية عصرية ترتكز فى جميع نواحيها على المادة والآلات .

وانه ليشبه ان يكون بين دورة الفن فى العالم وبين دوران الشمس صلة متينة لم ينتبه اليها احد حتى الآن فلقد ازدهرت الفنون فى الصين والهند طيلة قرون عديدة قبل الميلاد ، ثم خبا اوارها فيهما ، وطلع كوكبها واضاء فى البلاد اليونانية والرومانية ، ثم اشرق فى الاندلس بعد ما مر عن طريق المغرب ومنها تالق فى اوربا الغربية ثم جاوز المحيط فلمع فى الربوع الامريكية. غير انه ظهر فى مظهر غريب ان لم نقل مخيف . وربما انعكست الاسباب فاتى ذلك الشعاع يقصد الشاطىء الآخر ليعيد الينا عصر الموحدين والمرينيين

بما كان فيهما للمغرب من عظمة انسانية وسمو فنى . ومن يدرى ؟ . . »

لعل هذه المقالة الممتعة فى غنى عن التعليق لما فيها من احاطة وشمول للموضوع الذى تناولته ، ولقد برهن كاتبها على ثقافته الفنيــة واطلاعــه الواسع بمالا مزيد عليه . وهى على طولها فى الجملة تتزاحم فيها الافكار الجميلة ، وتفيض بالشعور المهذب ، لم تترك وجها من وجوه الاشادة بالفن وبيان أثره فى نهضة الامم الا ابدته ولم تدع طريقا من الاعجاب بالفنون المختلفة وتحبيبها الى النفوس الا سلكته ، وهى مقالة يواكب فيها الخيال الحقيقة ، وتقترن الموضوعية بالذاتية ، تقتبس من الشرق والغرب والقديم والحديث ، وتؤلف بين عناصر الموضوع على تباين مصادرها بلباقة وحسن تأت حتى ليحسب القارىء انها جميعا من منبع واحد . وذلك كله فى عبارة طلية واسلوب اخاذ مما يمكن معه القول بأنها نموذج للمقالة الادبية التــى استوفت شروط الكمال او كربت تستوفيها .

واخيرا هذا لون آخر من المقالة الادبية يختلف عن الالوان السابقة فى المادة والعرض ، هو فى مادته من خالص الادب الذى يعبر عن الشعور الذاتى للكاتب وانفعاله النفسى ازاء الاحداث والاكوان ، وهو فى عرضه لهذه المادة يصطنع اسلوبا رمزيا رشيقا يكاد يختص به الاديب محمد الصباغ من بين ادباء المغرب . ومنه ما كتبه عن فصل الخريف :

« وشى وشى بالغمام يا ريشة الفضاء سمائى ، وهبــى يا ريــاح وحاصرى الاغصان والاعشاب ، وارقصى مع الاشجار وانسجى يا شمس على الحقول كفنها ، ودعى القمر يكتب على ضريحها : ماتت شهيدة الجمال وضحية الربيع ومن يمت فداء للربيع يولد كل ربيع .

وانت يا امطار قد طالت عطلتك فى المصايف على الشواطىء وفى قمم الجبال فهلا عدت الى غدرانك وانهارك وسواقيك تحملين لها اورتارها ونضارة شجوها وهلا خلعت عن نفسك حلة السراب التى كنت تكتسين بها فى هجير الصيف وقيظه ، ورجعت الى بذورك وجــذورك واعشاش ترابك ؟ انسيت وقد كان رشاشك على موعد مع سقوط الاوراق ؟ ها هى الاشجار تذهب الحقول وتوشىء شاسعات الربى والمزارع بمناديل اوراقها .

اوراق واوراق واكداس أوراق ، ولا ارى الا الاوراق منتشرة مبعثرة على بساط الارض . ولا اسمع كذلك الا خشخشة الاوراق ، وكان الموجود ، وكل ما يتوفر عليه الوجود شجرة تهزها عاتية الرياح فتسقط اوراقها على الارض هامدة ثم تحملها الى قبرها المولول .

هبى هبى يا رياح ، وثورى وولولى ، واعصفى فى لحمى ودمى وعروقى وافكارى وخيالى ، فانا كذلك شجرة من اشجار الخريف نابتة فى ملاعبك ومغانيك الهائجة .

هزى بأناملك الثائرة جذعى واغصانى ، تساقط على الارض اوراقى التى افسدتها الانانية الجامحة والنيات الفاسدة ، والافكار والمطامع الجشعة، واذبلها الغرور والعدو وراء الشهرة والمال وحب الظهور .

اعصفى يا رياح ولا تتركى فى اغصانى ورقة واحدة من اوراقى التى اذبلتها الشهوات والنزعات السود تناثرى عنى يا أوراق الحقد والبغض والكراهية والخطايا والآثام ، وعرينى كذلك من أوراق النفاق والبهتان والذل والخضوع والمين والعبودية والخوف ودعينى هكذا : جذورا نابتة صامدة فى جوف الارض غير سمينة ولا هزيلة ولا متعفنة . وجذعا قويما صحيحا واغصانا ندية مثمرة ناضجة تطعم وتروى الجبال والاعالى والنجوم بحاتمية وسخاء ، وتوزع النسائم المطيبة فى الاصباح والامساء على ساكنى السهول والاوداء ومجنحاتها .

هذا هو فصل الخريف فصل الرياح المطهرة ورذاذ الامطار المحيبة والنسمات الرقيقات اللطيفات . اخرجوا من مساكنكم ايها الناس ، وافتحوا ابوابها ونوافذها لهوج الرياح لتعصف بأوراق نقوشها وزخرفتها الكاذبة ومراياها الخداعة ، واسرتها ومخداتها ذات النيات المبيتة والشهوات الزائفة ، وموائدها المرتفعة بالجشع والنهم . افتحوها على مصراعيها للرياح لتصدم بأوراقها الزائفة ، وتجنح بها مع اوراق الخريف الى غير رجعة ، اخرجوا وسارعوا الى مطهر للرياح وافتحوا لها صدوركم . واعرضوا عليها اجسامكم كيما تسقط اوراقكم الذابلة . اخرجوا ولا تتأخروا ليلا يدخل عليكم فصل الشتاء واجسامكم ما زالت تحمل اوراقها المريضة الصفراء » .

ومنه ما كتبه عن مصطاف كتامة :

« يا كاف يمر بالذهب فيكتسى الخيال بالثلج ، وتاء تكتب فينزلق القلم فى الملاعب والمنحدرات . والف يصور فيعشوشب بالظل ، واما الميم والتاء فموجة ومجذاف يقلعان بك الى مرافىء الازل وشرفاته .

يا كاتمة اسرار البحار فى اغصان ثلجك ، وبائحة بما فى صدر التراب من منابعك ، وناقشة نجوى الخضرة على سكينة نسيمك فى نجوة من الرياح والقلق ، وفى اعتناق ابدى مع السلام والفرح .

على جذور ارزك يقيس الهواء طوله فيجده قصيرا ، وقصيرا جدا كنظرة البنفسج ، وفى جذورها يتغلغل الابد ، فيتيه فيضيع فيغرق فى رماد الظلام . وعلى اغصانك يغفو النسيم كجدائل من أريج ، فيحلم بصديقاته الفراشات تهدهده وتداعبه وتوشى اظفاره وشفاهه بألوانها .

واخطو وكأنى عن القطن اخطر ، او فى اراجيح من السكينة اطيش ، حبالها علقت فى اقراط النجوم وخلفى وامامى وعن يمينى وشمالى مظاهر ومظاهرات من اشجار الارز ، من صبايا وصبيان ، عمرهم سبعة أو عشرة اغصان ، من فتيات وفتيان ، من شيوخ وكهول يمشون وعلى ظلالهم الشائبة يتكئون . مظاهرات هنا وهناك ، وكلها تمشى صامتة وتقف صامتة، وتصيح صامتة ، وفى صمتها الاخضر اليانع الطويل ، نداء السلام والامل والجمال .

كلما وقع اصبعى على حجر أو صخر او تراب الا وتفجر الماء من حوالى ينابيع من ذوب التمر والبرتقال والاعناب حتى احسبنى وقد ارتويت ، قصبة سكر ، وكلما جال بصرى وتخطى تائهات المدى وتسلق فى شفافية الصفاء السماوى الا ورايت من خلاله منابت الكون ومهود الوجود ، فصول تحبو ، وبحار ترضع ، وجبال تتكور ، واودية تنشق ، وسهول تنبسط ، وكواكب ونجوم تشتعل فتتالق ، وامم وشعوب تتنفس فتولد .

ويعود بصرى من سمائك المنفوشة مبللا بدمع الجلال والخشوع ،

فأرى الخرفان والحملان على وجه سهلك وكأنها وشمات من الياف ، ترعى وتقضم اعشاب الثلج آونة ، وآونة أخرى تعطو الى اغصان ارزك لترتوى من معين النجوم فتغدو طيورا من فضة وحرير .

من عمر الشوق وبياض النجوى واحمرار الهوى كونت ، فكان للجمال فيك تكبيرة الصـــلاة » .

ان هذا اللون من المقالة يمثل اتجاها جديدا فى النثر العربى اطلاقا ، وقد كان ميلاده أولا على يد الادباء السوريين واللبنانيين المهاجرين الـى أمريكا ، فيما بعد الحرب العالمية الاولى ، ولا يقتصر على النثر بل يشمل الشعر ايضا ، ومن ثم أطلق على الادب الذى ينزع هذا المنــزع الادب المهجرى ، وكان اول من اخذ بطريقته عندنا الكاتب محمد الحداد ، فقد داب على نشر مقالات تحمل طابع الابداع فى الخيال والوصف لمجالى الطبيعة والتعبير الذاتى عن المشاعر الانسانية الحزينة اى ما يسمونه بالرومانسية، وكان ذلك فيما قبل سنة 1930 ثم تعاطى الصباغ الكتابة على هذه الطريقة فبرع فيها ، وزاد فأضفى ظلالا من الرمزية تتمثل فى هذه المجازات المبتدعة، والاستعارات المنتزعة من المعقول للمحسوس والمتخيل للمنظور ، فزاوج بين المذهبين كما يفعل بعض اقطاب الادب المهجرى ، لان الرمزية عندهم ليست موضوعية بمعنى انها لا تتقمص روح العمل الادبى ، وانما هـى اسلوب من اساليب الاداء للموضوع المعين بعنوان كامل فى كلمتى صاحبنا المعنونتين بالخريف وكتامة وبذلك جاءت كل منهما رومانسية فى موضوعها رمزية فى اسلوبها ويكثر الصباغ من المزج بين الالوان والتملى بالطعوم والطيوب والانغام حتى يجعلك وانت تقرا له كأنك جالس الى مائدة حافلة بأنواع المأكولات والمشروبات ومباخر الند والعود والصندل تفعم الجو بالروائح الذكية ، والموسيقى تشنف سمعك بألحانها الشجية ، وهذه هى رمزيته المحببة التى ينقل اليك بواسطتها فكرته الاساسية ويشركك فى تجربتــه الشعورية فلا تجد صعوبة فى تفهمه مهما غالى فى الرمز ، وكثيرا ما يفعل ذلك ، لان الموضوع معين كما قلنا ، والزهور والطيور والجبال والاودية والبحار والانهار والنجوم والكواكب وكل مظاهر الطبيعة لها فى كتابــة الصباغ صور بديعة وتماثيل عجيبة تكاد تبوح بسر الوجود ، وتنطق بتمجيد



الخالق ، فهو بجمالها مفتون وبسحرها ماخوذ يقف امامها وكانه عابد فى محرابه ، الم يختم كلمته عن كتامة بتكبيرة الصلاة ؟ وبالجملة فادب الصباغ نثرا وشعرا ، ويجدر بنا أن ننبه على أن له شعرا منثورا ، هو من الادب الذى ذهب مع التيار الجديد المتمثل فى ادب المهجر بكل اندفاع .

القصة والمسرحية

ومن اشكال النثر او الفنون التى حدثت فيه لهذا العهد ، القصة والمسرحية . ونعنى بالقصة ما يشمل الحكاية الصغيرة والكبيرة المعبر عن اولاهما احيانا بالاقصوصة ، وعن الثانية بالرواية . اما المسرحية فالمراد بها الرواية التمثيلية سواء كانت كبيرة او صغيرة . ولا حاجة الى القول ان هذين العمليين الادبيين بصفتهما الفنية المصطلح عليها عند الغربيين ، لم يكن لهما وجود فى الادب العربى قبل النهضة الحديثة . وقد بدات المحاولات الاولى لمعالجتهما فى الشرق منذ وقت مبكر فى القرن الماضى ، وكان الاعتماد اولا على الترجمة للاثار الغربية المشهورة فى هذا الصـــدد ، او علـــى الاقتباس منها ولم يظهر اى عمل شخصى متكامل فى القصة او المسرحية الا بعد الحرب العالمية الاولى . اما فى المغرب فان تلك المحاولات لم تبدا الا بعد هذه الحرب ، وكان الباعث عليها فى القصة قراءة بعض المترجمات منها أو الاطلاع عليها فى لغتها الاصلية بالنسبة لمن يحسنون لغة اجنبية . وفى المسرحية مشاهدة بعض التمثيليات التى شخصتها فرق مصرية وتونسية قدمت للمغرب فى ذلك العهد ، فأثارت انتباه الشباب المتعلم لتأسيس فرق وطنية عملت هى ايضا على الاقتباس من الروايات الغربية المشهورة او وضع تمثيليات تعالج احوال المجتمع على قدر الاستعداد الفنى الذى كان لها . ولم تظهر تجارب ناجحة فى الميدانين الا على يد الخاصة من ادباء الجيل الجديد الذى نتحدث عنه ، اى فيما بعد سنة 1930 .

ومن اوائل الرواد فى هذا الباب الشاعر محمد القرى (ت 1356) . ان هذا الاديب وهب حياته الفن واتصل بالفرق الوطنية الناشئة ، فكان يمدها بارشاداته ، ويسبك الروايات التى تقتبسها ، ويضع لها الحوار والاناشيد المناسبة . والف عدة روايات منها اليتيم المهمل التى مثلت على مسارح المغرب غير ما مرة ، ولولا استشهاده فى أوائل هذا العهد لاتى منه

كاتب مسرحى اصيل .

وهناك رواد آخرون فى الترجمة خاصة عن موليير واضرابه من الادباء الفرنسيين كالمهدى المنيعى وعبد الواحد الشاوى ومحمد بن الشيخ ، ولكن تلك الجذوة خمدت بعد قليل فذهبت آثارها ضياعا . وكان بامكانها أن تؤثر تأثيرا ايجابيا فى اتجاه كتابة القصة والمسرحية اتجاها صحيحا لو انها احتفظت بحرارتها الى حين . وجاء عقب ذلك الجيل الذى قدر له ان ينهض بالمهمة بعد ان يتخذ لها عدتها من ثقافة انسانية عميقة واستعداد فنى كامل . فبدات اعماله تظهر للوجود ، وكان غالبها مما يحظى بالنجاح او يقاربه . وكثر الانتاج فى هذا الباب كثرة نسبية فاصبحت القصة الصغيرة تكاد لا تخلو منها جريدة او مجلة . ولخرج بعض الكتاب مجموعات قصصية مثل وادى الدماء لعبد المجيد بن جلون وقصص من المغرب لاحمد البقالى وصور من حياتنا الاجتماعية لمحمد الخضر الريسونى . على ان القصة الكبيرة لم تعدم من يعالجها وان كان النجاح فيها قليلا . وممن لهم فيها مزية ظاهرة عبد المجيد بن جلون : فان قصته (فى الطفولة) نالت اعجاب النقاد وبرهنت على مقدرته الفنية وبراعته فى تصوير المناظر والاشياء وتحليل المواقف والمشاعر ، ولئن كانت فى الواقع انما هى حكاية لنشاته الاولى وتنقله فى صباه ما بين انكلترة والمغرب فان ما اسبغه عليها من ظلال سحرية وما رسمه فيها من انطباعات فطرية جعلها تفيض بالحيوية وتبلغ حد الابداع . وبذلك طارت شهرته كقصصى ممتاز فغلبت على ما له من مواهب اخرى فى الشعر والنثر .

والواقع انه بتملكه لناصية الفن القصصى ونجاح تجاربه سواء فى القصة الصغيرة او الكبيرة اصبح هو القاص الاول فى المغرب ان لم يزحزحه عن مكانته هذه كتاب آخرون تتفاوت حظوظهم فى النجاح ، ولكنهم لم يقفوا عن الانتاج كما وقف هو منذ زمن .

وظاهرة الانقطاع عن كتابة القصة تكاد تكون عامة بين الذين زاولوها واجادوا فيها ، مثل احمد بنانى وعبد الرحمن الفاسى وعبد الله ابراهيم وسواهم . ولعلهم انما كانوا يعطون الامثلة على استطاعتهم ان يلجوا فى كل باب من ابواب الانتاج الادبى حتى أضيقها مسلكا . ولم يكونوا جادين

فى اختيار الفن القصصى وسيلة للتعبير عن افكارهم ، ولا ان يصبحوا فى يوم من الايام مختصين بكتابة القصة . وعلى كل حال فان محاولاتهم الناجحة مما اضاف الى الحصيلة القصصية فى المغرب ذخائر لا تنكر .

وبصفة عامة فان جهود الادباء تتوزع بين النظم والنثر والقصة والمقالة وغير ذلك من ضروب الانتاج الادبى ، ولا نجد اديبا انقطع الى كتابة القصة خاصة او كان اهتمامه بها اكثر من اهتمامه بالالوان الاخرى من الادب ، فهذا عبد العزيز بن عبد الله يكتب المقالة والبحث ويؤلف قصة طويلة مثل غادة اصيلا . والحاج محمد بنونة يحرر المقالة والبحث وينظم الشعر وهو صاحب مسرحية عيشة تنديشة وغيرها ، وعبد الخالق الطريس الذى كتب مسرحية انتصار الحق بالباطل يشتغل بالسياسة كما هو معلوم ، وقاسم الزهيرى ومحمد العربى الخطابى واحمد زياد كل منهم يعد صحفيا وناقدا وكاتب قصة . وابو بكر اللمتونى يتعاطى قول الشعر وكتابة القصة . ومثله عبد الكريم بن ثابت واحمد البقالى . وعبد القادر المقدم له تمثيليات منوعة وهو يعد من الشعراء . وعبد القادر السميحى وهو كاتب وجدانى له كذلك تمثيليات مشربة بروح الرمزية . وهكذا لا نستطيع ان نعد كاتبا تمرس بالقصة او المسرحية الا وهو يصرف من طاقاته الفكرية فى مناح اخرى ما لو خصصه او اكثره بأحد العملين لتفوق فى ذلك ايما تفوق ولقامت قواعد الفنين على اساس من التجربة الصادقة والمعاناة المنتجة . ولهـذا فالواقع هو ان كلا من القصة والمسرحية فى ادبنا ما يزال فى طور التكوين . واذا كانت هناك محاولات ناجحة فليس معناها ان الطريق قد طويت وان الامر قد استقر فى نصابه بالنسبة الى هذين الفنين من النثر . وكل ما هنالك ان البداية حسنة وانها تدل على مستقبل زاهر فى هذا المجال ، يتوافق وما حققناه من تقدم فى المجالات الاخرى .

ولعله مما يكون سابقا لاوانه الحكم على هذه الاعمال والقول بان اصحابها ينتمون لهذا الاتجاه او ذاك فالحقيقة ان الاتجاهات متعددة وان كانت النزعة الواقعية اكثر ما تكون بروزا من بينها . ولكن ما دامت قواعد الفن كما قلنا لم ترس على اساس بمعنى ان المحاولات الجادة لادبائنا فى هذا الميدان ، ما زالت تتعثر بمختلف العوائق ، فان من المستحسن تاخير الحكم

حتى تتوفر دلائله ، والاكتفاء بالاشارة الى ما يكون فى العمل من نزعة ظاهرة او خفية ربما لا تكون اصيلة فى نفس الاديب ، وانما اوحت بها طبيعة العمل ، وبهذا لا نجازف بتقديم نتائج مقدماتها غير صحيحة .

ونعطى الآن بعض النماذج من القصة الصغيرة تثبت مشاركة كتابنا فى هذا اللون من الادب ، واستيعاب النثر المغربى فى تطوره ، لجميع الاشكال المستحدثة فى النثر العربى ، سيرا مع قافلة التجديد فى وطن العرب الكبير . وليكن النموذج الاول هو قصة وادى الدماء لعبد المجيد بن جلون :

« اقمنا خباءنا على مرتفع فى الحقول ، وكانت الزروع الخضراء تحيط بنا فى كل اتجاه الى ان تغيب خلف الافق البعيد ، فيخيل الينا والنسائم تميس بها اننا نقيم فى جزيرة تتراقص حولها امواج ناعمة صغيرة خضراء وكأن كل شىء يدل على ان الاقدار سوف تبتسم فى تلك السنة لهذه البلاد التى يرتبط تاريخها بنسبة ما سقط فيها من الامطار وانه ليخيل اليك ان فى استطاعتها ان تسقط دولة .

وتفتحت قلوبنا الصغيرة للربيع ، وكانت الطبيعة تقدم الينا اعز ما فقدناه فى المدينة ، وهو الحرية ، كانت تتمثل لنا فى السماء والارض وفى كل كبيرة وصغيرة بينهما ، وكانت الحياة جديدة بالنسبة لنا ، ولذلك كنا نتأمل باغتباط كل شىء نراه : نجمة فى السماء ، سنبلة بين السنابل بل طائرا فوق غصن ، كل شىء نراه كان يسترعى انتباهنا .

ولم يكدر علينا هذا الصفاء الا قدوم جباة الضرائب الفرنسيين ، فما كادوا يصلون حتى نادوا بجمع كل الفلاحين والرعاة ليستخدموهم فى اقامة معسكرهم ، وفى شق الطريق لهم بين الزروع . والحقيقة انهم لم يكونوا فى حاجة الى كل هذا لانهم كانوا يقدرون الضرائب بنظرة من النظرات . ولو سمعت الجباة يتحدثون اليهم لحسبتهم اصحاب الاراضى يتحدثون الى العمال والمستخدمين . كانوا صخابين جبارين قاهرين . ولكن رئيسهم كان يفوقهم فى ذلك فقد كنا نتسلل الى قريب من معسكرهم لنتسلى بالنظر اليه وهو يصيح ويلعن ، ويضرب الهواء بيده والارض برجله ولا يرى الا غاضبا مزمجرا .

لم يكن من الغريب فى المغرب ان تستتر شمس الربيع خلف ربائب بيضاء . فأبريل ظليل كما يقول الناس هناك بل ان فى ذلك ما يزيد الربيع بهجة وجمالا . ولكن حدث ما انسانا جباة الضرائب وصخبهم فقد تلاحقت السحب بالسماء الى ان اصبحت دكناء كئيبة ، وانذرت الارض اليانعة الخصبة بالتلف والبوار · وبين عشية وضحاها غارت انوار الربيع المتألقة خلف سحب قاتمة كانها قطع من الظلام ، وساد الحقول سمت رهيب كما لو كانت تشعر بأن كارثة توشك ان تنزل بها وتتلف اثمارها ، وجلس الفلاحون والرعاة ينظرون بعين الرعب الى طلائع العاصفة . وهبت فجأة ريح صرصر عاتية ، وازداد الجو ظلاما ، ثم تساقط رذاذ ما لبث ان انقلب الى مطر غزير ثم انطلقت العاصفة من عقالها ترعد وتبرق وتمطر ، فملأ ذلك قلوبنا حسرة واسى ، فان ساعة واحدة من الامطـــار كافيـــة لاتلاف محصول السنـــة كلهـــا .

عللنا النفس بأنها عاصفة عابرة ، ولكننا بتنا نسمع هديرها الى الصباح ، واستمرت طول اليوم التالى ، واخيرا عرفنا اننا انقطعنا عـــن المدينة . وانه قد اصبح من المستحيل علينا عبور الطريق الزراعية راجلين او راكبين لكثرة ما تكدس فيها من الاوحال ، وصمد خباؤنا للعاصفة سبعة ايام كاملة ، ثم بدات المياه تتسلسل اليه ، ولما نفذ زادنا وذهب احد الرعاة ليأتينا بغيره من قرية تبعد عنا بمسافة نصف ساعة ، غاب عنا حوالى عشر ساعات . والحقيقة اننا وجدنا بعض اللذة فى ذلك ، ولكن الامر طال فتسرب الرعب الى نفوسنا ، فبدانا نشعر باننا مهددون بخطر مسيطر . وماذا يكون لو انهار ما بقى من خبائنا · على ان الشىء الذى خفف عنـــا بلوانا قليلا هو ان جباة الضرائب وقعوا فيما وقعنا فيه · فكانوا يتسلون بالنظر الينا كما نتسلى بالنظر اليهم . وربما تبادلنا بعض الاشارات التى لا معنـــى لهـــا ·

لم يعد فى استطاعتنا ان ننام بعد الليلة العاشرة اذ ابتل كل شىء فى الخباء ، فجلسنا نتحدث ساهرين · كانت الليلة تبدو لنا اشد هولا مـــن الليالى الماضية ، ولم تكن العيون تدرك وسط الدياجى سوى ضوء خافت فى اتجاه خباء جباة الضرائب · وكنا نقفز فى احاديثنا من موضـــوع الى

موضوع ، شأن من تحدثوا عشرة ايام ، بيد ان اعرابيا من الرعاة استطاع ان ينقلنا بموضوع جديد واى موضوع . قال لنا وهو يشير بيده فى ضوء البرق : انظروا هل ترون ذلك الوادى . ساحدثكم عنه ، انه وادى الدماء .

كان كل شىء ، حولنا يبعث الرعب فى النفوس ، ولذلك حمل هذا الاسم الى قلوبنا معنى رهيبا . كان يتحدث والسماء تبرق ، وكنا نرى على ضوء البرق ذلك الوادى البعيد وكأننا لم نره من قبل ، وهو انحدار هائل يقع عند سفح جبل قديم محطم ، وقد امتلأ بالصخور الكبيرة المبعثرة. وسألنا الاعرابى بصوت واحد ، ولدى الدماء . فقال نعم ، وادى الدماء . كانت تقوم هنا فى الزمن القديم قرية يحكمها حاكم ظالم حياته تعج بالدماء والفضائح والسرقات وكان هذا الوادى هو المجزر التى يذبح فيها ضحاياه ، فتكونت نتيجة لذلك فى اعماقه بركة من الدماء ، وبلغ من تهتك ذلك الحاكم الطاغية انه اقام حول هذه البركة القصور والبساتين ، وجعل منها مرتعا لاهوائه الجامحة وكان يمد البركة دائما بالجداول من دماء الضحايا ولكن ذات ليلة بينما كان الحاكم فى احدى السهرات على حافة بركته الحمراء يشرب الخمر ويغازل النساء ، قام مترنحا لينظر الى وجهه فى صفحة البركة على ضوء القمر ولكن يا لهول ما حدث ، فما كاد يصل الى حافتها حتى امتدت اليه آلاف الايدى من اعماق الوادى ، هى ايدى ضحاياه وجذبته وهو يصرخ الى الاعماق حيث اختفى الحاكم الى الابد . وما زال الوادى محفوفا بالاسرار منذ ذلك الزمان فما يوجد احد يستطيع ان يقترب منه . ذلك انه يستدرج اليه الظالمين دائما حتى اذا اقتربوا منه اختطفتهم تلك الايدى وجذبتهم الى الاعماق .

وارتفع صوت الرعد ليضاعف هلعنا ، ولكن عيوننا المرعوبة كانت مثبتة فى الوادى لكى نراه كلما اضاء البرق السماوات . يا للفجيعة ! لم يكن الاعرابى يتحدث عن خرافات الاولين . اننا جميعا نرى اعماق الوادى ، وليست هناك صخور ولا فراغ ، بل انه يطفح بذلك السائل الاحمر المروع ، نراه كلما ابرقت السماء يغلى بالدماء ، فأصابتنا رعشة اخرست السنتنا .

وانطلق الرعد مدويا صاخبا كما لو كان قد اهاجته قصة الاعرابى ،

وانحدرت أصداؤه تتدحرج الى الارض لتتردد فى اعماق الوادى رهيبة مفزعة ، كما لو كان قد اجتمعت فيه ثلة من العمالقة اغرقوا فى ضحك ساخر مهول ثم انطلق الرعد مرة اخرى فرد عليه الوادى فى ضوء البرق ردا آخر مفزعا ، ولم تنجل عنه نوبة الفزع الا بعد ان هدأ الرعد قليلا .

ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد فقد سمعنا فى الصمت الذى اعقب الرعد صياحا مزعجا وكان من الواضح انه صوت انسان يصرخ وما زال يقترب ويقترب الى ان بدانا نميز ما يقول : تبا لك يا بلاد العواصف والرعود ! ويل لك منى غدا ! لامزقنك اربا ، واذرونك فى الرياح ! آه ، انى جننت هل تسمعين ايتها الرعود ؟ انا مجنون انا مجنون .

ثم تعالى الرعد مرة اخرى فأعقبه الصوت بضحك متواصل اليم ، ثم بدا ان صاحب الصوت قد اقترب منا وفعلا راينا على ضوء البرق انسانا يزحف الينا وجفلنا حين اقتحم علينا الخباء ملطخا بالاوحال منفوش الشعر محمر العينين منتفخ الاوداج فعرفناه . انه هو ، رئيس جباة الضرائب وفى اللحظة عينها وصل اعوانه واشاروا الينا ان بعقله خللا ، فلا داعى لمقاومته او الرد عليه ، بينما كان هو يصيح فى وجوهنا ، انا لا تخيفنى رعودكم بل اننى احتقر عواصفكم ولا اسمح لها بأن تحاصرنى ، لاقتحمن الاوحال والبرك الى الطريق المعبدة دون ان اشارككم مصيركم المخجل . موتوا انتم هنا ليجدوكم بعد العاصفة جثثا ملطخة بالاوحال يتعثر فيها عابروا السبيل هل انتم فاهمون ؟ لن يقال غدا ان عاصفة مراكشية اردت فتى من فتيان فرنسا . ثم رفع يده مهددا ، فتأخرنا خطوة الى الوراء وقد اندكت نفوسنا لهذه الاهوال التى احاطت بنا .

حاول اعوانه ان يمسكوا به ولكنه وكزهم وقفز من بينهم الى الاوحال فساروا فى اثره وهناك تنفسنا الصعداء وحاولنا أن نضحك لكى نقنع انفسنا بأن الازمة النفسية التى كنا فيها قد انقشعت ، ولكن احدنا التفت على ضوء البرق وقد راى رئيس الجباة يزحف فى طريق الوادى واشار الينا صامتا فرايناه وتبادلنا النظرات . ولكن الاعرابى الذى افزعنا بقصته المزعجة لم يستطع ان يكتم شعوره فصاح الم اقل لكم انظروا ان قصص آبائنا صحيحة دائما . ان الوادى المنتقم يجذب الظالم اليه ، لن يجبى

ضرائب بعد اليوم ، سوف يصل الى حافة البركة الحمراء فتتخطفه ايدى ضحاياه الذين افقرهم وشردهم واذلهم . سوف تتخطفــه كمـــا تخطفت الحاكم الظالم من قبل ، وكما ستتخطف كل ظالم عات فى المستقبل ، بـــل ان الجباة جميعا سائرون نحو الوادى ليلحقوا بضحاياهم ، سوف تتقاضى منهم تلك الايدى المخيفة ثمن الزروع التى افسدوها والتى سرقوها والتى اغتصبــوهــا .

ونظرنا فاذا بهم يسيرون خطوة خطوة وسط الاوحال نحو الوادى الرهيب ، الوادى الذى يغلى بدماء الضحايا ودموع العذارى وصراخ الاطفال وانين الامهات وعويل الشيوخ . وكان الرعد يخف والمطر ينحسر كلما اقتربوا . ولم يبق بعد ذلك من العاصفة سوى برق صامت ينير لهم الطريق الى وادى الدماء » .

هذه اول قصة فى مجموعة وادى الدماء للكاتب وهى كفيلة بأن ترشدنا الى معالم فنه ، وتصور لنا احساسه ازاء الاحداث وانعكاس هذا الاحساس على العمل الادبى الذى يقدمه الينا مفرغا فيه كل ما يملكــه من طاقة وقدرة على الابداع والاتقان . ولعل تصوير الواقع او النزعة الواقعيـــة عند الكاتب مما لا يحتاج الى تدليل . ان الاستعمار اى استيلاء امة قوية على امة ضعيفة واستذلالها واستغلالها لهو اكبر مصيبة تصاب بها امة فى حياتها، انه يدوس كبرياءها ويحرمها من الاستمتاع بخيراتها ويعوقها عن النهوض والتقدم ، والامة المستعمرة بما تحسه من غضاضة وما تراه فى كل مكان من آثار للمستعمر تتحدى شعورها بالكرامة الانسانية والحرية الطبيعية، لا تفكر الا فى وسائل الخلاص من هذا الشر المستطير والداء الوبيل ، ولا تفتأ تقلب قضية الحرية على جميع وجوهها وتتعلق بما يمكنها من قهــر عدوها واسترجاع سيادتها ولو كان وهما من الاوهام أو حلما يراه النائم فى الخيال وقد كان هذا هو واقع الامة المغربية ايام الحماية ، فالكبير والصغير والمتعلم والجاهل وساكن المدينة او البادية كلهم كانوا يعيشون هذا الواقع المرير ويتجرعون غصصه ولا تطيب لهم حياة ولا ينعمون بصفو كلما اصبحوا وامسوا وهم يرون الاجنبى الدخيل يحكم بأمره ويسيطر على بلاد الآبـــاء والاجـــداد .

وذلك هو ما عبر عنه عبد المجيد بن جلون فى مجموعة قصص وادى الدماء وفى هذه القصة بالخصوص احسن تعبير . ان هؤلاء فتية فى سن الشباب والمرح واللامبالاة . وقد خرجوا الى البادية فى نزهة ربيعية ، قصد التمتع بجمال الطبيعة ومناظر الحقول الزاهية ، ولكن الوجود الاستعمارى يلاحقهم فينغص عليهم صفو نزهتهم ، ولا تلبث النزهـــة ان تنقلب الى اجتماع وطنى يتضامن فيه ابناء الحاضرة مع ابناء البادية ويتبادلون الراى فى هؤلاء المستعمرين الطغاة وسبيل التخلص من سيطرتهم الظالمة .

ويصف ابن جلون عجرفة جبـــاة الضرائب الفرنسيين واستخدامهم للاهالى استخدام العبيد وتهور رئيسهم وحركاته الطائشة بما يعلمه كل مواطن شاهد الفرنسيين وثاقفنهم ايام حكمهم للبلاد وتمكن قدمهم فيهـــا . ويمر ريشته الفنية على المناظر والاجواء ويهىء القارىء لاستقبال الاحداث والوقائع المهولة التى حدثت اثر الثورة النفسية العارمة التى اضرمها فى صدور اولئك الشبان ورفقائهم البدو ، تصرفات المستعمرين واعمالهـــم الجائرة ويعمل الخيال الواسع عمله فى الباس الاوهام لباس الحقائق فيجعل الطبيعة تثور ثورة مدمرة ، كأنها تتجاوب مع نفوس اصحابنا المتلظيـــة بالغيظ والالم ، ومن خلال البروق والرعود والامطار الطوفانية يرى الجماعة وادى الدماء الذى حدثهم عنه احد البدو وحكى لهم قصته ، فاغرا فـــاه لابتلاع الظلمة والمجرمين ملوحا بآلاف الايدى ، ايدى الضحايا والمعذبين من سكانه ، لاختطاف المستعمرين والمستغلين . وهنا يصل العمل الفنـــى الى الذروة فى الملاءمة بين الواقع بما فيه من مرارة وثورة وحسرة ، والخيال الذى يحقق الاحلام ويشفى غلة النفوس الظامئة الى التشفى والانتقام . وتنحل العقدة وتنتهى القصة نهاية رائعة .

وفضلا عن هذه الحبكة الفنية المتقنة فان فى القصة ملامح من رمزية معبرة تتمثل فى اسم وادى الدماء الذى يراد به ارض المغرب ، والحاكم الظالم الذى يعنى هؤلاء الاجانب المسيطرين من رومان وبيزانطيين وغيرهم، فقد هووا جميعا فى وادى الدماء هذا الى القعر ، ولقوا مصيرهم الذى هو مصير كل ظالم متعد ، فما بكتهم السماء ولا الارض بل هدات ثورة الطبيعة وسكنت العاصفة ولم يبق منها (سوى برق صامت ينير لهم الطريق الى وادى الدماء) ومما لا شك فيه ان الكاتب يرمز بهبوب العاصفة الى

ثورة الشعب ، وان وقوع ذلك فى البادية اشارة الى مكمن الثورة ، حيث يتوقع الخلاص على يد رجال القبائل الاشداء مساعير الحروب وابطال المعارك ، وقد حقت الكلمة وانتفض ابناء المغرب الاحرار ، حاضرين وبادين انتفاضتهم التاريخية التى امسكوا فيها بخناق الاستعمار حتى لفظ أنفاسه وذهب الى غير رجعة .

تلك هى قصة وادى الدماء ، وذلك هو عمل عبد المجيد بن جلون فيها . فلا غرو ان كانت هى اول قصة فى المجموعة القصصية التى تحمل اسمها ، فالكتاب يقرأ من العنوان كما يقولون . على أن بقية قصص المجموعة وهى عشر تحمل كلها هذا الطابع ، ولولا ضيق المقام وارادة التنويع لما اكتفينا منها بهذا المثال فعلينا ان ننظر فى عمل آخر لغيره من باب القصة الصغيرة ايضا . وليكن هو قصة خابية لا تمتلىء لاحمد بنانى .

« قرب حلول فصل السواح واخذ تجار البضائع القديمة بسوقهم المعروفة بفاس يعدون عدتهم وينشرون كل صباح بضائعهم المختلفة على ابواب دكاكنهم وينسقونها تنسيقا بديعا محتفظين بما كساها من غبار ووسخ وصدأ ، لتستلفت انظار السواح المنتظرين . وذات صباح بينما هم منهمكون فى عملهم هذا ، اذا بالشارع قذف بأجنبى غريب البزة غريب المنظر تدل قامته الطويلة على انه من بلاد ناطحات السحاب ، يمشى الهوينا ويمعن النظر يمينا وشمالا تحسبه يطوف بمتحف عجائب الدنيا ، يلقى نظرات الاستعجاب والاستطلاع على الاشياء البسيطة العادية كأنه فى عالم لا قبل له به مما يدل على ان هذه رحلته الاولى فى البلاد الشرقية التى يتخيلها الاوروبيون والامريكيون كلها اسرار وعجائب غرائب . فمثل هذا السائح ينتظره التجار بفارغ الصبر اذ مثله من يبذل الثمن الغالى فى اقتناء البضائع البسيطة اذا قيل له ان عهدها يرجع الى قرون او انها تتصل بحادثة تاريخية او بحياة احد سلاطين المشرق . فما أن وقع بصر التجار عليه حتى صار كل واحد يستدعيه لزيارة دكانه ويستهويه ويخاطبه بلغة تكاد تكون انجليزية . ويلبى الامريكانى دعوة الجميع فيدخل الى الدكاكين ويرى ما يعرضه عليه اصحابها من زرابى رثة واوانى من نحاس بالية واخرى من خزف مشقوق وبضائع من الجلد غريبة الشكل ناصعة الالوان ، فيبتسم

ابتسامة الاستحسان ثم يخرج دفترا من جيبه ويكتب ما يكتب ويقوم منصرفا.

ويأتى كل يوم فيزور الدكاكين ويقيد فى دفتره ، والتجار مستبشرون خيرا بذلك ، اذ لا محالة انه يقيد البضائع التى استهوته ويقيد اثمانها حتى اذا استقر رايه وذوقه ، وقابل بين الاثمان واوشك على الرحيل اخذ البضائع وترك الدولار المنشود .

وتتوالى زياراته ولا يشترى شيئا ، فيخاف التجار ان يغادر المدينة قبل أن يبتاع منهم شيئا : فأى بضاعة يا ترى تستهويه ؟ ربما لا تستهويه الا الاشياء النادرة العتيقة التى ليس لها ند ولا نظير ، وهل ذلك عسير على تجارنا الماهرين ؟ فما هذا الامريكانى أول سائح استعصى عليهم امره واستغلق عليهم لغزه .

جاء يوما الامريكانى كعادته فدعاه احد التجار للجلوس وقال له عندى خاتم ليس بخاتم الحكمة ولكنه لا يقل عنه قيمة فله قصة لو علمتها وعلمت طرافتها لبذلت المال فى سماعها قبل ان تبذله لاقتناء الخاتم نفسه . ان هذا الخاتم كان لا يفارق اصبع السلطان الشهير المنصور السعدى ، ثم انتقل الى اصبع اعز جواريه ولهذا قصة غريبة . واغرب منها المغامرات التى ارتكبتها للحصول عليه ، وذلك .. فينصت الامريكى الى القصة ويبتسم ثم يقول ثانكيو وينصرف .

ويلاحظ احد التجار ان هذا الامريكى لا يحمل دليل الطرق ولا آلة التصوير كعادة السواح بل هو يتأبط دائما كتبا واوراقا . فربما كان مهتما بالشؤون الفكرية واخبار العلم والعلماء اكثر من اى شىء آخر فيستدعيه للجلوس ويقول له اتريد ان اتوجك لا بتاج الامراء والملوك . ولكن بتاج العلم والعرفان ؟ هات راسك لاجعل عليه هذه القلنسوة ، انها ثقيلة انها وسخة ولكن لو علمت اى راس كانت تقيه لحمدت الله على هذه السعادة التى لم تتح لغيرك . انها قلنسوة كانت لا تفارق راس المؤرخ الشهير ابن خلدون ، فيلقى الامريكى نظرة على مرآة امامه فيرى كيف صار منظره مشوها غريبا فيبتسم ، وينزع القلنسوة المباركة من راسه ويردها لصاحبها ثم يقول ثانكيو وينصرف .

ولا يخرج الامريكى من الدكان حتى يناديه تاجر آخر فيجاذبه اطراف الحديث ثم يقول له سمعت ولا شك بالخليفة هارون الرشيد ، اذ لا يذكر الشرق عندكم الا مقرونا باسمه ، فيهز الامريكى راسه ويستمر التاجر فى حديثه — ترى كل هذه البضائع التى يغص بها دكانى ؟ انها لا تعدل قيمة هذه الجبة . ويجعل المفتاح فى صندوق كبير ويخرج منه جبة من الطيلسان ويقول نعم هذه جبة كان يرتديها ذلك الخليفة العباسى . فيلمسها الامريكى ويبدى حركة استحسان ثم يقول ثانكيو وينصرف .

وتمر ايام ويلتجىء التجار الى وسائل اخر ربما يكون لها التأثير القوى على الامريكى فتندى يده بالدولار فيدخله احد التجار الى قعر دكانه ويسر له فى اذنه انى سأذهب بك الى مكان ترى فيه ما لا عين رات . ولكن لا أريد ان يراك الناس معى فأعرض نفسى للتهلكة فاتبعنى عن بعد . فيقبل الامريكى ويخرجان فيقطعان الاسواق والشوارع ثم يصلان الى درب ضيق مظلم لا يسمع فيه الا هدير الماء ولا يتراءى فيه الا لمعان اعين هرة سمعت بخطاهما فالتجأت الى زاوية » ويفتح التاجر بابا ويدخلان ثم يغلقه ويجتازان دهليزا فاذا هما بصحن فيفتح التاجر بيتا ثم يجعل المفتاح فى صندوق ويقول لو علم اهل الحى انى اتيت بك الى هنا لقتلونى وقتلوك معى . ان ما ستراه اعز تراث ورثته عن اجدادى الكرام وهو أنفس ما يدخره مسلم . انظر ماذا ترى فى الصندوق ؟ لا ، لا تمسه ؟ لا تلوثه بيدك انه شىء مقدس . فيمعن الامريكى النظر طويلا ثم يرفع راسه واذا بالقرب منه سيف طويل علاه الصدا ، جعل فى اطار من زجاج تحوطه اروقة فاخرة. فيقف الامريكى منتصبا برهة من الزمان ، والتاجر بجانبه لا ينبس ببنت شفة ثم يقول التاجر الآن علمت انك تقدر الاشياء النفيسة حق قدرها . لو كنت تحسن العربية لقرات ما هو منقوش على هذا السيف . وانكشف لك الامر فى الحين . فينظر الامريكى ويمعن النظر فيما يحوط به ويتناول القلم ويكتب فى دفتره ثم يقول ثانكيو وينصرف .

•

ان شان هذا الامريكى لغريب . فمن عادة الامريكانيين ان يبذلوا عن سخاء لاقتناء سقط المتاع وابخس البضائع البلدية ، وهو يرى الاشياء الغريبة النفيسة النادرة فلا يمد يده الى جيبه ، لقد عرض عليه تاجر

مفاتيح غريبة ما رآها ولا سمع بها أحد ، وهى مفاتيح دار اجداده بالاندلس . فلفتت نظره وامعن فيها البصر وفحصها فحصا دقيقا ثم قيد ما قيد فى دفتره ولكن لم يزد على ان ابتسم وقال ثانيكو .

وصباح يوم اشترى أحد اولئك التجار جريدة سيارة ليرى هل تبشر بقرب مجىء باخرة سواح . واذا به يقرا ويمعن فى القراءة ويضحك ويستغرق فى الضحك . ثم ينادى زملاءه فيلتفون حوله ويقول لهم اريحوا انفسكم اذ يستطيع كل واحد منا ان يخترع ويزيف أغرب الاشياء وابعدها عن الحقيقة لتستهوى السواح ولكن لا نستطيع ولو اجتمعنا كلنا ان نخترع او نزيف ما يسعى اليه صاحبنا الامريكى . اذ هذه الجريدة تقول انه يبحث عن جزيرة ، نعم جزيرة . انظروا فيتناولون الجريدة فاذا هى مصدرة بمقال طويل متوج بصورة ذلك السائح الغريب ، جاء فيه ان هذا الامريكى هو العالم المشهور طوماس العضو للمجمع العلمى بأمريكا . قدم للمغرب مبعوثا من قبل جمعية الابحاث التاريخية والاجتماعية المتعلقة بعصور البشرية الاولى ليقوم بالبحث عن الاتلنطيد وهى الجزيرة التى يعدها العلماء والفلاسفة فردوسا مفقودا . والى الآن لم يهتد أحد الى تحقيق موقعها . وغاية علمهم عنها ان الحكيم افلاطون ذكرها فى احد كتبه ووصفها بما توصف به جنات الآخرة من هناء وسعادة وبذخ ونعيم . مع تحقيقات جغرافية وتاريخية مما يدل على أن هذه الجزيرة ليست من وحى الخيال بل كان لها وجود ثابت لا شك فى ذلك ولا مراء . الا ان الارض طوتها أو غمرها البحر ، فجزيرة مثل هذه تشتاق اليها نفوس العلماء والفلاسفة ويودون لو يهتدون الى موقعها لا ليتمتعوا بنعيمها اذ هى ولا شك عفتها ايدى الايام ولكن ليوقنوا انه كان قبل هذه المدنيات المعروفة مدنية اخرى فيفتح لهم المجال لابحاث علمية قد يكون لها الشأن الخطير فى تاريخ الفكر البشرى . ولذلك فمنذ ذكرها افلاطون وهى موضع اهتمام العلماء والباحثين والمثقفين والشعراء حتى علماء السحر والروحانيات ، ونيفت الكتب التى الفت حولها على الفين ولكن بدون جدوى ، وفى كل عصر من العصور يكثر الكلام حول هذه الجزيرة ويظن الناس ان المشكلة كادت تنحل .

وفى المدة الاخيرة حظيت هذه المسالة بعناية خاصة من المجمع العلمى

الامريكى اذ حاضر احد اعضاء هذا المجمع رصفاءه ببحث كان له رنين فى الاوساط العلمية ذكر فيه ان الاتلنطيد يمكن الاهتداء اليها بوسيلة غير مباشرة ربما كانت اجدى وانفع من ابحاث الجغرافيين والمؤرخين . وذلك ان سكان الاتلنطيد كان من عادتهم ان يجعلوا الحمقى بمارستانات يظلـون سحابة اليوم كله يملأون خوابى مثقوبة فكلما وضعوا فيها الماء من اعلى سالت من اسفل ، فيظلون يملأونها وهى لا تمتلىء فيكون لهم فى ذلك مـا يشغلهم عن ارتكاب افعال الحمقى ، ثم ذكر المحاضر ان علماء الاخلاق والعادات كانوا يظنون ان هذه العادة انقرضت لانهم ما وقعوا عليها عند امة من الامم او سمعوا عنها فى قطر من الاقطار : ولقد وقف هو عليها اخيرا فى كتاب الف عن المغرب حديثا ذكر صاحبه ان بمارستان سيدى فرج بفاس خابية مثقوبة يلزم الحمقى بملئها دوما واستمرارا من دون ان يهتدوا الى الخرق الذى بها ومن اهتدى الى ذلك يوما واشتكى ، استدلوا به على انه عاد الى رشده فيطلق سراحه ، وختم العضو حديثه ملفتا نظر زملائه الى اهمية هذا الاكتشاف البسيط فى حد ذاته العظيم لما ربما سينتج عنه ، لا سيما وبين الاحتمالات القوية ان بقايا الاتلنطيد هـى الجـزر الخالدات التى على مقربة من شواطىء المغرب .

وقد كان لهذا الحديث وقع عظيم فى نفوس اعضاء المجمع ولاحت لهم بارقة امل فاشرقت وجوههم المتجعدة ، فتداولوا بينهم طويـلا ثـم اجمعوا رايهم على ان يكلف صاحب البحث بشد الرحلة للمغرب ، هـذا البلد الغريب الذى لا زال به حمقى يملأون الخابية التى لا تمتلىء كما كان يفعل ذلك حمقى سكان الاتلنطيد منذ عدة قرون .

كان هذا سبب مجىء العالم طوماس لفاس . فكان كما راينا يمر كل يوم بسوق البضائع القديمة فى طريقه الى المارستان ، يظل سحابة اليوم يبحث وينقب ويقابل بين ما هو مسطر فى المؤلفات التى يحملها معه وبين ما هو معد للحمقى من سلاسل وعصى من كلخ وخوابى مثقوبة . ويقف الساعات الطويلة مفكرا مشدوها امام الخابية التى لا تمتلىء ينكب عليها طويلا ثم ينتصب واقفا وينظر اليها تارة من قريب وتارة من بعيد . ويلقى عليها تارة نظرة الفنان المستوحى الهامه وتارة نظرة الفيلسوف الهائم فى

عالم التدقيق والتحليل والمقابلة والاستنتاج وقد لا تكفيه رؤيـــة العين المجردة فيتوج انفه بنظارات ضخمة تكسبه غطرسة العلـــم وطغيـــان العـــرفـــان .

وقد كان مقدم المارستان يصده عن الاقتراب من الحمقى خوفا من ان يلحقه سوء منهم ولكن الحمقى مع مرور الايام الفوه والفهم فصار بظل بينهم آمنا مطمئنا . وكان طوماس اذا رجع الى الفندق الذى يأوى اليه سهر الليالى يسود الصحف ليواصل المجمع العلمى الامريكى بمذكرات تلغرفية يحررها فى لغة رمزية حتى لا يفهم احد غير اعضاء المجمع هذه الابحاث القيمة التى ترمى الى اكتشاف الجزيرة الضائعة .

وفى كل يوم كانت ترد على طوماس البرقيات والرسائل العديدة من الجرائد الكبرى ودور السينما بأمريكا يلتمس منه اصحابها ان يوثرهم بباكورة اكتشافه ذاكرين انهم رهن اشارته ليرسلوا اليه مبعوثا خاصا من امريكا ليتلقى منه تصريحا او يلتقط صور الناحية التى كـــان اهـــل الاتلنطيد يعيشون فيها . والى ذلك فان الجرائد بأمريكا كـــانت تشعـــر من حين لآخر ان العالم يتمخض عن اكتشاف خطير مشيرة بذلك الى نتيجة البحث الذى يقوم به طوماس .

ومرت ايام فاذا مذكرات طوماس تنقطع عن المجمع فينتظر الاعضاء ويطول انتظارهم فيبرقون لطوماس فلا يجيب . ثم يبرقون لامريكى شهير بالمغرب يلتمسون منه ان يخبرهم عن طوماس فيبحث عنه فى الفندق وفى الاسواق فلا يجده . فيذهب الى المارستان ومنه يتوجه توا الى مكتب البريد فيرسل للمجمع العلمى الامريكى البرقية الآتية : بحثت عن العالم طوماس بمارستان سيدى فرج بفاس فألفيته منهمكا بين الحمقى يمـــلأ الخابية التى لا تمتلىء » .

فى هذه القصة تتبين مقدرة احمد بنانى على الوصف والحكاية ، فهو يستوعب الشاذة والفاذة مما يقع تحت البصر او يخطر بالبال ، فى رسم لوحاته والتحدث عن اشخاصه . وينظر ويمعن النظر — على حد تعبيره — حتى لا يبقى محل للملاحظة او ما يستدعى الاهتمام . فالميزة

الاولى لفنه هى هذه الحاسة المتيقظة التى يتعاون فيها عمق الشعـــور ودقة التسجيل ، على اعطائنا صورة متكاملة لما يعرضه مــن نمـــاذج بشرية وعوالم محيطة بها . ومن ثم فهو يستهدف ان يرضى الفن اكثر من اى شىء آخر . فلا تبحث فى ادبه عن التزام ، ولا تتأثر خطاه ناشدا تجربة واقعية او حدثا ملهما . انه ينظر للحياة من زاوية اخرى ، حيث يستكشف ما فيها من عبث او سخرية وتظاهر كاذب بالجد وامعان فى النفاق . فلا يفكر ان يصلح الفساد او يقيم الانحراف ، وانما يكون همه ان يصدق التعبير عما رآه ولو بتجسيم الوقائع لتبدو كما تصورها هو ، وان ينقل قارئه الى الجو الذى عاش فيه التجربة ليمتعه ولو برهة من الزمن بما راى وما سمع ، ضاربا فى ابعاد الرؤية والسماع الى الحدود التى تنتهى اليه عنده . واذا لم يكفه التصوير ليؤدى كل ما يحسه فانه يعمد الـــى استغلال المواقف واستنطاق الاحداث ، حاضرة وماضية . وفى المعطيات الفنية التى يستخلصها منها ما يجعل عمله يبلغ مدى التأثير والاعجاب .

واحمد بنانى بنظرته الخاصة للحياة يكسو فنه نسيج رقيق مــن السخرية والاستخفاف بكثير من المواضعات الاجتماعية . فهو من هذه الناحية يعتبر ناقدا للمجتمع ، ولكنه كما قلنا لا يهمه ان يراجع المجتمع اخطاءه بل لعله يبررها ويلتمس لها المخارج والعلل . الا تراه يقابل مـــا بين البيئة المغربية ، وخاصة فى فاس العاصمة العلمية للمغرب ، ممثلة فى طبقة تجار العاديات منها ، والبيئة فى اوروبا وامريكا مبعث الاشعاع الحضارى والتقدم العلمى ممثلة فى طبقات السياح ، وما ينطوى عليه كل فريق من نقائض وعيوب ؟ فهو يقول بلسان الحال ان هذه هى الحياة، وهؤلاء هم البشر ، والتدجيل كثير ، وليس من دجل بمهنة كمن دجل بعلم .

والعقدة عند احمد بنانى انما تأتى فى المقام الثانى من الاعتبار ، بعد الحبكة الفنية . ولذلك فانا نراها قلقة فى يده تهم بالانفلات منه . ولكنه يداريها جهد ما تكون المداراة ، حتى يضلل القارىء ثم يحلها فجاة من حيث لا يكون الحل متوقعا . وهذا امر واضح فى هذه القصة . وفى قصص اخرى له يكاد لا يستمسك له امرها فتخرج القصة فى شكل صورة ، هى وان لم تفقد عنصر التشويق فانها لم تستكمل شروط القصة على ان فن الوصف

الذى هو عمدة اعماله انما ينبثق من ناحية الفكر والملاحظة لا من جهة البيان واسلوب التعبير ، ولذلك فان سحر الكلمة بل وصحتها ينقصانه احيـانـا .

ولنورد الآن مثالا للمسرحية تتميما للبحث ، ويضطرنا ضيق المقام للاقتصار على نموذج واحد ، وهو لعبد القادر المقدم بعنوان دقات الساعة ، ويتضمن حوارا بين فتاة واخيها فى حديقة منزلهما ذات صباح باكـر ، وساعة كبيرة فى المنزل تسمع حركتها :

هى — الا تزال تعتزم تلبية الدعوة ؟

هو — (يفكر قليلا ثم يجيب) لا مانع من ذلك .

هى — ولكنى اراك فى هذا الصباح على خلاف العادة التى عهدتك عليها فى سائر الايـام .

هو — (متسائلا) اى عادة ؟

هى — أن تبادر الى حماماتك تنثر لها نصيبا من الحبوب فتتطاير من حواليك ترتل تحيات الصباح فى وداعتها المحبوبة ، حتى اذا ما اذنت لها فى التحليق حومت فوق اشجار الحديقة ثم سبحت فى فضاء الرياض المجاورة لضيعتنا . وكم يحلو لى ان اترقب هذه الساعة المبكرة لاشهد هذا المنظر الرائع الذى يسوده جـو من الانسجام والتفاهم بين انسان رفيق وطيـور مجنحـة بشوشـة عطـوفـة .

هو — آه .. لا تتغير عادة المرء الا اذا طرا عليها امر ذو بال و ..

هى — (تقاطعه) وهل حدث لك مثل هذا وانت لم تغادر المنزل بعـد ؟

هو — (يتوقف عن الجواب لحظة ثم يقول) على كل حال لست خالى البال كما عهدتنى قبل اليوم .

هى — وهل الامر من الخطورة بحيث تحتفظ بسرك ؟

هو ــ هو كذلك .

هى ــ ولو كنت شقيقتك المخلصة .

هو ــ ليست المسألة مسألة اخلاص او . .

هى ــ (تقاطعه) او خيانة .

هو ــ (فى صلابة) لا ، لا .

هى ــ انت وما بدا لك .

هو ــ ومن اللائق ان لا تنساقى مع الظنون ، غير انى استطيع ان اطمئنك بانى لن اقدم على مغامرة حرصا على سلامتى .

هى ــ وحماماتك ؟

هو ــ ما شانهـــا ؟

هى ــ هل تعتزم مقاطعتها منذ اليوم ؟

هو ــ ساحاول تلقينها عادة جديدة .

هى ــ وكيف ذلك ؟

هو ــ اذا دقت ساعة اللقاء ولم يتم فانها ستحلق وتحلق ثم تنطلق سابحة حرة طليقة . وبهذا تكتسب عادة جديدة .

هى ــ (تتوقف عن الكلام لحظة ثم تصيح) ها هى ، ها هى تحوم حول المكان باحثة عنك ، انظر اليها (تصفق الحمامات باجنحتها وهى تهدل هديلا) .

هو ــ ولكنى آخذ فى تنفيذ ما قررت .

هى ــ انها فى انتظار دقات الساعة ، فى انتظار لحظة اللقاء ، فهى على ما يظهر تفهم معنى الزمان وتحافظ على الموعد .

هو ــ جربى منذ اليوم ان تحولى دون سماعها دقات الساعة .

هى ــ لا يستطيع مخلوق أن يوقف سير الزمان .

هو ــ انت محقة فيما تقولين . انا شخصيا اشعر بدبيب الزمان يتمشى فى كيانى ، واكون احيانا فى غمرات الانشراح واشعر بعقرب الزمان تلتهم ساعتى الهنيئة . فلا البث ان اشرف على نهايتها وهى سريعة الانقضاء .

هى ــ ان دقات الساعة تهدد كل شىء بالانتهاء . واشد الناس اشفاقا منها على ما اظن اولئك الذين يحسبون للزمان حسابه ويقدرون العواقب حق قدرها .

هو ــ اخشى ان تدق الساعة قبل ان اتأهب للموعد المقترب .

هى ــ ومتى هو .

هو ــ قريب ، قريب جدا .

هى ــ الا تلبس بذلتك الجديدة اذا كان لذلك موجب ؟

هو ــ ارجو ان تعدى لى الحقيبة واجعلى فيها البذلة وبعض الاقمصة وما يليق بها من اربطة الرقبة واحرصى على ان تستمر حالة البيت طبيعية من غير ان يطرا عليها ما يشوش بالى .

هى ــ اذن انت على اهبة السفر ؟

هو ــ ان شاء الله .

هى ــ لم تحسن مفاجأتى فى هذه المرة .

هو ــ يبدو انك تمانعين فى سفرى . وهذا ما توقعته سلفا ولا احسبك الا مشجعتى على تلبية الدعوة . اليس كذلك ؟

هى ــ بلى ، انى فاعلة ذلك اذا كان للدعوة موجب ، وقد يهون على الامر اذا كان هذا الموجب مشرفا والا كان عبثا واغفر لى هذا التدخل فانما اريد تبصرتك بالعاقبة وليس من اللياقة ان القنك مبادىء الجبن ولكن الوقت يتطلب من المرء ان يتزن فى خطاه والا يبرم ما يعسر نقضه عند اللزوم .

هو ــ قبيل دقات الساعة اعلن لك سرى ، واود ان اوصيك خيرا بنفسك اولا ثم بالبيت ثانيا . ابذلى قصارى جهدك فى ان تعطى لحماماتنا فرصة كى تكسب عادة التحليق فى الفضاء، ولا تدخرى وسعا فى ان تحولى دون سماعها دقات الساعة فانها تذكرها لحظة اللقاء حتى لا ترسل هديلها حنينا والتياعا .

هى ــ وهل تلومها اذا فعلت ؟

هو ــ اخشى ان يتسرب الى قلبى ذلك فتخور عزيمتى فيما انا ماض اليه ، وانت ادرى بعواقب الخور فى ميدان الواجب.

هى ــ اذا ابيت الا ان افعل فما يمنعنى شىء واحد وهو عجزى عن ايقاف عجلة الزمان عن المضى فى سبيلها . فهمت .. ؟

هو ــ نعم ، نعم ، (فى حنان) شجعينى ما استطعت الى ذلك سبيلا

هى ــ وهل ترى ان واجبى يقف عند هذا الحد .

هو ــ كل له واجب ينتظره ، فليتريث حتى تدق ساعته كما ستسمعين عما قريب دقات ساعة واجبى انا .

هى ــ (تضع يدها على قلبها متأثرة من الموقف) لم اعتد قبل قبل اليوم ان اجزع لدقات الساعة . قلبى يخفق خفقانا . انها لحظة رهيبة . ولعل للحديث الذى دار بيننا فى موضوع الزمان والساعة اثرا فى هذا الجزع . ولكن لا مناص من التشجيع .

هو ــ وهذا قلبى بدوره يختلج فى صدرى اختلاجا شديدا ، ارجوك الا تستمرى فى الحديث عن الساعة (فترة صمت ــ تسمع حركة عقرب الساعة) .

هى ــ انها تقترب (فى تأثر) الا تبوح لى بسرك قبيل الساعة ؟ الى اين ، الى اين ؟

هو ــ الى تلبية الواجب .. الواجب المشرف ــ الى التعبئة

العامة .. الى نصرة الحق (دقات الساعة) .

هما معا — دقت الساعة ، دقت الساعة (الحمام يرفرف بأجنحته ويرسل هديلا مؤثرا مشجيا) .

هى — الى اللقاء يا ماحى (اسم الفتى) الى اللقاء هنا او هناك !

هو — الى اللقاء يازكية ، الى اللقاء القريب ان شاء الله (محرك السيـــارة) .

فى هذا النموذج الصغير اكثر من دلالة على اتجاه المسرح المغربى والادب الذى ينشأ فى ظلاله فالروح العامة التى تهيمن عليه هى البساطة فى الاخراج والاداء . ولم يكن بد لمسرح ناشىء غير ذى تقاليد معروفة ان يتجنب الاساليب المعقدة والدروب الملتوية للظهور بالمظهر الباعث علـى الاحترام واللائق بالرسالة المقدسة التى يحملها وليس المراد بالبساطة هنا السطحية بل عدم التكلف . فالمنظر كما فى النموذج عادى . منزل يقع وسط حديقة وبجانبه حظيرة حمام . والحوار يجرى بكيفية طبيعية بيـن شاب تعرب اقواله عن حاله الذى كان الى العبث اقرب منه الى الجد ، ولكنه بدا يفكر فى واجبه كمواطن صالح ، وبين شقيقة له تحيطه بعطفها وتتمنى له النجاح فى مستقبله الزاهر ، انما هذا الحوار تتخلله افكـار ومعان فيها لمحات فلسفية وانسانية وهو على هدوئه يعبر عن صراع فى نفس الشاب بين الحق والباطل انتهى بالاستجابة لنداء الضمير والاقصار عن سلوك سبيل الغى . فلم يخل من تأمل يبعد به عن السطحية ويجعله يتعمق فهم الحياة ولو بلمسات خفيفة .

ثم الغاية من كل ذلك هى التجنيد ، تجنيد الادب ولا سيما المسرحى منه لخدمة الاهداف القومية . فالمسرح المغربى اصلا لم ينشأ الا لهذه الغاية ، والادب الذى ينجز من اجله لا بد أن يسير فى طريقه ، ولذلك نرى المسرحية مجندة للدعوة الى التعبئة العامة . انها مسرحية صغيرة من فصل واحد قصير ولكنها مع ذلك تحتوى على فن وترمى الى هدف . وما

احسن ما وقع التعبير عن عبث الشاب فى اول المسرحية باشتغاله بتطيير الحمام ، وتحوير ذلك التعبير نفسه فى آخرها بحيث صار رمزا الى سلام الاسرة واستقبال حياة جديدة ملؤها الجد والنشاط .

ونظن اننا لسنا فى حاجة الى التنويه بلغة الحوار وسلامتها من المآخذ بل هى لخفتها مما زاد فى قيمة هذه المسرحية الصغيرة الحلوة .

الشعر واتجاهاته الجديدة

لعل الشعر ، وهو اشد الفنون الادبية تقيدا بالمأثورات والمساطر، اكثرها خضوعا للتجديد والتطور . وذلك من اجل انه كلما ثقلت شروط العمل ، اى عمل كان ، كلما حاول العاملون التخفف منها . ويصدق ذلك فى الاعمال الادبية كما يصدق فى الاعمال المادية ، وفى الشعر بالــذات كان التحول الذى طرا على المادة الشعرية اعنى الافكار والموضوعات لاول ما ظهر الاسلام ، عاما شاملا بحيث انه ما اظل العصر العباسى حتى صرنا نرى شاعرا مثل ابى نواس يقول فى مطلع احدى قصائده مستخفا بادب القدماء . (صفة الطلول بلاغة القدم . .) .

وكان اختراع الموشحات فى الاندلس مظهرا آخر من مظاهر التجديد والتطور للشعر ، استهدف تحويره من ناحية الشكل والبناء ، فالغى شرط التزام القافية الواحدة فى القصيدة التى اصبحت تسمى موشحا ، وجوز ان يلتقى فيها بحران من بحور الشعر بدون أن يدل ذلك على عجز او تلفيق ، بل انه كان اكثر انسجاما مع الطبيعة الغنائية للشعر ، لاستجابته للانغام الموسيقية التى تتبدل بحسب مقتضيات الفن آونة بعد اخرى .

وقامت النهضة الحديثة فهزت الشعر هزا عنيفا تناول بنيانه من القاعدة ، فكان الشعر الحر والشعر المنثور فضلا عن اندفاع الشعراء فى العمل بمنتهى الحرية طبق المخطط الذى وضعه الاندلسيون من نظم قصائدهم على اكثر من بحر وبمختلف القوافى . هذا فى القــالب ، وفى المحتوى ظهرت فنون من القول وصور من البيان لم يكن للشعر العربى بها عهد كالشعر القصصى والتمثيلى ، وامتد النفس فى وصف الطبيعة والتعبيــر عــن ادق المشاعر الانسانية والعواطف القلبيـــة ، واختفت الموضوعات الشعرية القديمة او كادت وما بقى منها لاقتضاء المناسبات

الاجتماعية بقاءه ، صار وسيلة لبث الافكار الاصلاحية وبعث الـــروح الوطنية . ومن ثم وجد هذا الباب الجديد من الشعر القومى او الوطنى الذى خلف باب الحماسة فى الشعر العربى القديم والذى قلنا عنه سابقا انه طغى على جميع الاغراض الشعرية فى هذا الجيل حتى كـــاد يكون هـــو الشعـــر كلـــه .

ولم تكن هذه الظاهرة خاصة بمشرق او مغرب بل انهـــا وسائـــر الظواهر التى قبلها مما برز بروزا واضحا فى شعر المشارقة والمغاربة على السواء . فلننظر فى حظ الشعر المغربى منها جميعا اذ كان هو الذى يهمنا فى هذه الاحاديث .

ونبدأ بما تفتقت عنه القريحة المغربية اولا من الشعر الوطنى ، وهو هذه الاناشيد التى كانت تغذى الفكرة الوطنية عنـــد التلميـــذ فى المدرسة ، والشاب فى المعمل والمتجر والحقل ، والمواطنين عموما على اختلاف طبقاتهم ومهنهم فنجدهم يرددونها فى كل مكان وفى كل احتفـــال ولو انه احتفال عائلى بأنغام موسيقية حماسية كأنهم الجنـــد يتأهبـــون لخوض معركة حربية . ولعل اول نشيد من هذا القبيل هو نشيد للمكى الناصرى يقول فيه :

فؤادى الـــى وطنـــى قـــد صبا   تعشقتـــه منـــذ طـــور الصبـــا
ودينـــى فى حبـــه رغبـــا   فيـــا وطنـــى عنك لـــن أرغبا
ويا وطنـــى لا تخف انـــى امين   واخلف وعـــدك انـــى امـــين
كفيل بنيـــل منـــاك ضمين ..

ثم نشيد لعلال الفاسى يحيى فيه الملك والعرش وهو :

يـــا مليـــك المغـــرب   يـــا ابـــن عـــدنـــان الابى
نحـــن جنـــد للفـــدا   نحمـــى هـــذا الملـــك
عـــرش مجـــد خـــالـــد   مـــاجـــد عـــن مـــاجـــد
قـــد بنـــاه الاولـــون   فى شمـــوخ الفلـــك .. الخ

انهما نشيدان يعبران عن الاتجاه الذى سار فيه الشعر الوطنى منذ

ظهوره بالمغرب ، وهو التغنى بحب الوطن والدعوة الى خدمة قضيتـه ورفع شانه بين البلاد ، مع تمجيد العرش والجالس عليه والاعتزاز بهما باعتبارهما مظهر السيادة الوطنية ورمز الوحدة المغربية . وللسيد علال فى هذا الصدد ، كما لغيره ، اناشيد عديدة جرت على كل لسان . فمنها له نشيـد يقـول فى اولـه :

كلنـا مـن عـربـى	خـالـص او بـربـرى
قـد تعلقنا بعرش علوى	واعتصمنـا بلـوائـه
كلنـا فى سره او جهـره	هـاتـف يـحـيـا
مـن عطفـه نـرجـو	رفعـة المـغـرب
مـن اجلـه نـدعـو	ايهـا السلطـان

عـش

ومنها نشيـد طويـل للحـاج محمد بنونـة اولـه :

ايهـا الشـعـب تقـدم	للعلـى خلف الامـام
فخرنـا تـاج المعـالى	عزنـا شبـل الكـرام

وآخـر لمحمـد بـن الرضى منـه :

يا صاحب الصولة والصولجان	تمـل بالملك وعـش فى امـان
محصنـا مـن عاديات الزمان	فى ظل خفاقين ، احمـر قـان
وقلب شعب دائـم الخفقـان	من حبه المشغوع بالتـوقـان

لصاحب الصولـة والصولجان

ان التجاوب بين الشعب والعرش وتضامن الملك مع الوطنية كانـا اساس العمل لتحرير البلاد من قبضة الاستعمار وذلك هو سر نجاح القضية المغربية ذلك النجاح الباهر الذى قضى على كل امل للمستعمر الماكر فى استغلال وسائل الدس العديدة التى اتخذها للتفرقة بين الامة وعاهلها الكريم ، ولذلك كثر الضرب على هذا الوتر فى هذه الاناشيد ، كما ان محاولة المستعمر للتفرقة بين العنصرين البربرى والعربى جعلت من وكد الوطنية العمل على توحيدهما والتقريب بينهما وهى ظاهرة تشبه ما وقع فى الشرق

العربى من التأليف بين المسلمين والمسيحيين والقضاء على جميع اسباب الخلاف بينهما لمواجهة العدو الدخيل بكلمة موحدة وصفوف متراصة ، ولهذا نرى كلمة عربى وبربرى تردد فى بعض الاناشيد كنشيد (كلنا من عربى خالص أو بربرى) المار آنفا لعلال الفاسى وكهذا النشيد الآخر له ايضا :

صوت ينادى المغربى	من مازغ ليعرب
يحدو شباب المغرب	للذود عن حوض الوطن
لبيك يا صوت الجدود	انا لشعبنا جنود
كل يرى حفظ العهود	والموت من دون الوطن
انا شباب الامة	منا حراس الوحدة
نحمى كيان الملة	من كيد اعداء الوطن
لا نرتضى بالتفرقه	ولو علونا المشنقه
ولو غدت ممزقة	اشلاؤنا فدا الوطن

والاناشيد كثيرة يطول تتبعها لا سيما وقد اصبح لكل هيئة سياسية ومنظمة طلابية او رياضية نشيد يخصها وكلها تدور فى هذا الفلك ، فلنكتف بما ذكرناه منها ولنستعرض بعض النماذج الاخرى من الشعر الوطنى غير الاناشيد . انه اذا كان الشعر ديوان العرب فى القديم ، فان هذا اللون منه احرى ان يكون اليوم ديوان الحركات التحريرية التى نشأت فى العالم العربى منذ النهضة الحديثة . فهو يمثل تطورها من شعور بالغضاضة لسيطرة الاجنبى وتحكمه فى البلاد والعباد ، الى دعوة للمقاومة والتسلح المادى والمعنوى لاحياء المجد الدائر ، ومجاراة الامم الناهضة فى الاخذ بأسباب الرقى والتقدم ، الى الثورة الدامية التى تحقق للشعب مطامحه العليا فى الحرية والاستقلال من الطريق الطبيعى الذى لا يتوصل الى تلك المطامح الا منه ، وبين هذه المراحل مقامات للذكرى والاعتبار والاشادة بجهود العاملين وتسجيل الخطوات التى قطعتها الحركة الوطنية فى مجالات الكفاح من اجل غاياتها النبيلة ، كان الشعر الوطنى يبدىء فيها ويعيد ، ويقيم الدنيا ويقعدها بما له من تأثير على النفوس وتكييف للمشاعر وفق رغبات الامة وضد تصرفات المستعمر الدخيل . والادب العربى ان كان

قد سجل فى تاريخه الحفيل صرخات شوقى وحافظ ومطـــران والرصافى والزهاوى وشكيب ارسلان واضرابهم من رواد الشعر الوطنى فى القطاع الشرقى للوطن العربى فقد بقى عليه ان يسجل الصرخات المماثلة التـــى اطلقها زملاؤهم فى القطاع الغربى . وبعضها هو ما نثبتـــه هنـــا خاصا بأدبـــاء المغـــرب .

يقول المهدى الحجوى معلنا ثورته على حياة الذل والاستعباد :

حرام على الحر الخضوع الى الرق حرام وارض الله واسعة الطرق
حـــرام على نفس الابـــى مذلـــة وفى الذل موت للشهامة والخلـــق

ويقول محمد الجندى يصف ما فعله العدو المغير بالبلاد :

عن يمينى وعـــن شمالى قيود وامامـــى جيـــل معنـــى شريد
يتلاشى مـــع الزمـــان ويفنـــى ويعـــانى مـــا لا يعانى العبيـــد
ضرب الســـد حولـــه ورمـــاه بسهام الـــردى رقيـــب عتيـــد
فكأن البنيـــن سرب ضحـــايـــا والفراعين للوجـــود تعـــود
وكأن المغيـــر امضى عقـــودا مع هذا الزمـــان ليست تبيـــد
وكأن الشبـــاب منـــا هبـــاء ونفـــوس الاحـــرار شىء زهيد
وكأن الحيـــاة حـــق لقـــوم دون قـــوم والعيش عيش رغيد

ويقول المختار السوسى مشفقا من سوء المصير الذى آل اليه الشعب بعـــد ماضيـــه المجيـــد :

حتى متى شعبـــى يعبده الجهل كان لم يكن قطب السيادة منقبل
كان لم يكن بين الشعوب محكما اذا قال يحنى الراس من راسه يعلو
كأن لم يكن فينا المرابطى الذى به تم الاستعلاء للشعب والطول
وابناء عبد المؤمن الطالعون فى سما الارك شوسا لاينهنههم صول
وابنـــاء يعقوب المرينى من بنوا لنا واشادوا ما به يمحى الجهل
كأن لم يكن فينا اقتدار ونظـــرة مسددة ترمـــى الصعاب فتنحل
واى نفوذ فى اختـــراع تمديـــن يدعمه الدين المطهـــر والعـــدل
وحزم وعزم واقتحـــام معامـــع يمهدها اللدن المثقف والنصـــل

اجل ، اننا كنا وكنـــا وهكـــذا يقول لسان العلم من قوله الفصل
ولكن اذا القيت يومك نظـــرة فكم لوعة تذكو وكم زفرة تعلو
تشاهد ما يرفض قلبك حســـرة عليه ويستذرى الدموع فتنهـــل
لتسقطعلى الارض السماوات ولتقم قيامة شعبى فالهلاك ولا الـــذل
فقد ضاق بالشعب الجهول خناقه وقد ساء محياه وقد طفح الكيل
فهلك يريح البال اولى من ان ترى ملايين سبعا لا شعور ولا عقل

والصرخات من هذا القبيل كثيرة ، وكلها تفيض لوعة واسى وتتحرق حزنا وجوى على عثرة الجد بالبلاد وخيانة الحظ لها بعد حياة المجد والعظمة التى عرفتها زمانا طويلا ، ولكن الشعر الوطنى لم يقتصر على هذا الموقف السلبى من البكاء والرثاء وانما جند نفسه بالدعوة الى العمل لانتشال الامة من وهدة السقوط واحلالها محل العزة والكرامة اللائق بها ، وكذلك نلتقى معه فى صور اخرى من الغيرة الفعلية والحماس البناء . فهذا المهدى الحجوى يقول مغريا بأسباب النهضة :

الى متى نترك التعليم مهجـــورا ونحسب العلم فى الافرنج محصورا
الى متى نستلذ النوم واحزنـــى وغيرنا يطلب الدستور والشورى
متى نفيق وعين الدهر شاخصة تقضى على كل من قدبات مغرورا
هبو الى المجد يا ابناء من رفعوا للمجد صرحا بعلم كان منشورا
هبو الى المجد يا ابناء من حكموا اقصى البلاد بسيف كان منصورا

ويقول المكى الناصرى مهيبا بشباب الامة للعمل الجدى والسعى المفيد :

حق البلاد علـــى بنيهـــا حق يقـــدســـه الالـــه
حتى متى وبنـــو البـــلاد علـــى قـــداستهـــا جناه
مجـــد تهـــدم هـــل لـــه مـــن بينكم قـــوم بنـــاه
عـــز تحطـــم هـــل له فيكم مغـــاويـــر ابـــاه
داء تفـــاقـــم هـــل لـــه منكـــم اطبـــاء اســـاه
الخطب جـــل وليس غـــ ـــير بنـــى البلاد لها حماه
احيـــوا البـــلاد وعلمـــوا شبـــانهـــا كيف الحياه
هـــذا الشباب ذخيـــرة بـــل ليس من ذخر سواه
كـــم كـــان يمشى مسرعا لو لم يحـــل سبل الطغاه

مدوا الشباب نفوا به ... لا خوف ان سرسم وراه
يا ايها الشبان سـ ... ـيروا انكم جند النجاه
سيروا امام الشعب حتـ ... ـى تبلغوه ذرى علاه
ضحوا بكل جهودكم ... حتى يرى فيكم مناه
لا تيأسوا او تستريـ ... ـحوا واذكروا ابدا رجاه
لا تحسبوا شعبا يمو ... ت اذا غفا فيه انتباه
ان النفوس كمينة ... فيها جراثيم الحياه

ويقول عبد الكريم سكيرج منددا بحياة التواكل والخمول :

ما بال قومى لم ينهض بهم عمل ... والناس كلهم بالعلم قد عملوا
تقاعدوا عن فنون نال غيرهم ... تحصيلها وهم عن نفعها غفلوا
لكن رايتهم وفى نحورهم ... كم سبحة وهم بسردها اشتغلوا
هذا له خلوة وذا بجلوته ... وذا بزاوية اخرى له خول
ما فى الزوايا خبايا بينهم وجدت ... بل فى الزوايا رزايا عند من عقلوا
تكاثرت فى نواحى القطر وانتشرت ... على اختلاف شيوخ عندهم وصلوا
من كل ضامن اسرار لتابعه ... وكل فتح وانوار لها انتحلوا
لا، لا اوضح ما سنوا وما افترضوا ... من بعد ما اتضحت بالمصطفى السبل
فليتهم شيدوا مدارسا بدلا ... من الزوايا وقالوا علموا وسلوا
فالعلم اجمل وصف الشخص فى زمن ... به تبصر دون قومى الدول

انها نداءات منبعثة من ضمائر حية وقلوب واعية تناشد الشعب أن يهب من سباته الطويل وينبذ الخمول والكسل ولا ينقاد للمشعوذين والمضللين الذين يهمهم ان يبقى على ما هو عليه من الذل والخنوع ، لبقاء استغلالهم له وتسخيره لمنافعهم الشخصية وتدعوه لمؤازرة شبابه الناهض والعمل معه يدا فى يد لاسترداد مجد البلاد الضائع والسير بها فى طريق النجاح والتقدم حتى تلحق بركب الحضارة وتقف فى مصاف الشعوب الراقية . وان كانت هذه الطريقة طويلة وشاقة عند من يريد طى المراحل ويستعجل الظفر بالنتيجة المرغوبة من حصول الامة على حريتها واستقلالها وتقريرها بنفسها امر مصيرها فنراه يدعو الى الثورة الدامية والوقوف فى وجه المستعمر الغاشم وتحدى سلطته والاستخفاف بقوته ، وهو لون آخر من الشعر الوطنى كان مما اذكى عزيمة الشعب وبعث حميته حتى خاض

معارك الفداء وحرب التحرير . ومن صوره قول عبد القادر حسن :

رويدكم يافتية الشعـــب لا ارى — لكم ان ظلمتم ان تسروا وتكتموا
لئن كان أمر السجن والنفى فيكم — عظيما فان الصبـــر للذل اعظم
وان حياة المرء فى غير عـــزة — امر من الضغط الـــذى يتوهم
وكـــل ضيـــاع للحقوق مذلـــة — وعسف، ومن ذا يرتضى الذل منكم
وما المـــرء الا نفسه فليعزهـــا — فان فاز عاش الدهر وهو مكرم
بنى الشعب لا عاش الجبان بارضنا — ولا ضم ما منه قد اشتق معجم
بنى الشعب قوموا طالبين حقوقكم — ولا تسمعوا للخائرين فتندمـــوا
بنى الشعب هذا شعبكم بات يشتكى — من القوم ويلات فهـــلا سمعتم
بنى الشعب ما اسديتم لستناسيا — ولكن آمـــالى على أن تتممـــوا
فكونوا حماة الشعب من كل حادث — فاجدر من يحمى حمى الشعب أنتم

وقول عبـــد الكبير الزمرانـــى :

اذا وطن الابـــاة دعـــا تعادوا — جمـــوعا للاجابـــة لا فرادى
ينـــال الناس ما قصدوا ولكن — اذا ركبـــوا لمقصدهـــم جيـــادا
وكان الديـــن قائدهـــم وكـــانت — بروح الذيـــن قادتهـــم شـــدادا

وقـــول الحـــاج محمـــد بنـــونـــة :

رباه كى تبقى عرايـــين الاسود — بـــلا زعيـــــم ؟
وشعبنـــا يرسف ظلما فى القيود — ولا رحـــيـــــم ؟
ومجدنا بين السيـــوف والبنـــود — مجـــد قـــديـــم ؟

ومن المظاهرات الكبرى التى كان للشعر الوطنى فيها جولات عظيمة ، عيد العرش الذى اصطلح على الاحتفال به يوم جلوس الملك الراحل محمد الخامس طيب الله ثراه وهو يوم 18 نوفمبر ، وقد سبقت الاشارة الى ما كان لهذا العيد من اهمية باعتباره اعلانا عن استمرار الدولة المغربيـــة وتدعيما للكيان السياسى للبلاد . وقد كان الشعراء يتنافسون فيه ومن لم يقل شعرا طوال العام لا بد أن يقوله بهذه المناسبة ولو لاجل التنفيس عن مشاعره المكبوتة . واحدثت جوائز للمتفوقين من الشعراء الذين يتبـــارون

فيه كانت تسلم اليهم فى احتفال شيق . وهكذا انقلب الشعر الذى مهما قيل فيه ، لا يعدو ان يكون من قبيل المدح المعهود للملوك ؛ الى شعر اجتماعى يعبر عن عاطفة شعبية وفكرة قومية ويمارس تجربته الادباء اصحاب المبادىء والافكار اكثر مما يمارسها الشعراء المداحون وطلاب المنافع والجوائز . وكان مما يتضمنه هذا الشعر الاشادة بمواقف الملك من النهضة وتشجيع الحركة الوطنية وما قطعه المغرب فى ايامه من مراحل نحو التقدم والازدهار فى جميع الميادين ، وبذلك يكون سجلا من سجلات التاريخ القومى والنهضة الحديثة لا سيما وقد كان طابع هذا الشعر هو الصدق الذى تتفاعل فيه العواطف مع الواقع فيجسم التأثير الذى تحدثه مبادرات الملك واعماله فى نفوس الافراد والجماعات من مختلف طبقات الشعب بدون ان يكون مغاليا فى ذلك ولا مجاملا كما هو المعهود فى امداح الملوك وشعر المناسبات . والامثلة التى نسوقها من هذا الشعر تعطينا اكثر من دليل على قيمته هذه . فاليك منه ما يقوله محمد الحلوى فى احدى قصائده الكثيرة فى هذا الصدد :

سليل الملوك الفاتحين تحية ... من الملا الاعلى يرتلها الشعر
تطيف بها الاملاك فى ملكوتها ... وتشدوبها الدنيا ويزهو بها العمر
ويحملها العيد السعيد عرائسا ... غلائلها نور وهالتها نور
وترسلها الافواه فى كل مسمع ... زغاريد تشفى كل اذن بها وقر

* * *

ابا النصر هذا يومك الخالد الذى ... نرجى به يوما يفك به الاسر
فمن لى بأن ارتاد فى عرصاته ... فتمتع الحاظى ازاهره الخضر
وكيف أرضى النفس وهى مشوقة ... اذا عشقت زهرا تملكها زهر
اذا قلت هذى زهرة علوية ... مبللة الاعطاف اعراقها نضر
فتنت باخرى عطر الجو نشرها ... وانسى صريع الكاس ما تفعل الخمر
وما حاجة الغواص بالبحر مزبدا ... اذا كان لماعا على الشاطىء الدر
تبارى رجال القول فيك فابدعوا ... وابدعهم قولا تملكه الحصر
وكانوا كمغتر راى النهر جدولا ... فلما استقل الماء الجمه النهر
شمائلك الازهار فواحة الشذا ... ووجهك وجه الروض يغمره البشر
عصامية فى نبعة من نبوة ... وعزة ملك ملؤ ابرادها الفخر

واشراقة يعلو محيـــاك نورهـــا وتجلوه صبحا كلما ابتسم الثغر
وكم سامع قد مارت الاذن عينه رآك فسامى عنده الخبر الخبر
وصدر امات الحقد والغم ربـــه حللت به فارتاح وانشرح الصدر
عركت العوادي وهي جامحة الهوى فأعجبها ان لا يهون ابنها البكر
وصارعتها والجو اســـود قاتم وقد دب فى الآفاق واندلع الشر
بثاقب فكر تستضيء به الدجى ونافذ عزم لا يقاومـــه الصخر
فولت فلول الشر يقتلها الاسى واوجههم صفـــر وأيديهم صفـــر
وكم فتلوا حبل المكائد بينهـــم لنيل منـــى احلى مناهلها مـــر
ولما ارادوهـــا والقوا حبـــالهم اليك فألقيت الهدى بطل السحر
وارسلها الشرق المعذب صيحة مجلجلة فى الخافقين لهـــا زأر
ففى الله ايام تدانت على النوى وفى ذمة التاريخ ما فعلت مصر
فأقسمت بالعرش المهيب وتاجه على المفرق الوضاء يكلاه الدهر
بما فى الحنايا من تباريح حبكم ومن ذمم مخفورة ضمها الصدر
وبالامل الغالى وما خفقت لـــه قلوب وما سالت دمـــاء له حمر
يمينا لانت القائد الملهم الـــذى يصول بلا جيش فيطلبـــه النصر

* * *

ابا النصر تمم ما بدات فما بقى لفوزك الا قاب قوسين او شبر
فحقق اماني امة ضاق ذرعهـــا وارهقها الحامى واثقلها الامـــر
تريد حيـــاة تحت تاجك حـــرة وتطلب حقا ليس عن نيله صبر
ستبذل فى آمالها كل ما اجتنت قواها فان عزت فأرواحها مهر
فان تبغها سلما فللسلم سعيها وان تذكها نارا ففيهـــا لها جمر
فقدها الى الشط الامين سفينة تقاذفها فى سيرها المد والجـــزر
وخضها فعين الله يقظى ونوره دليل ونجـــواه المعونـــة والازر

لعلنا لا نحتاج ان نشير الى ما تتضمنه هذه القصيدة من مدح موجه ، ومن تسجيل للمواقف التى وقفها الملك دفاعا عن حرية شعبه وحقه فى الحياة الكريمة وربط ذلك بجهاد المواطنين وتضامن الشعـــوب العربيـــة والاسلامية مع تنويع اساليب القول فى ذلك واختيار احســـن الكلمـــات المعبرة ، مما جعلها كالخطبة الرائعة ، تثير مكامن الوجدان فى النفوس ، وتضرب على الوتر الحساس فى قلب كل وطنى غيور ، وبذلك كان هذا

اللون من الشعر احد الوان الشعر الوطنى الذى يعبر عن شعور الجماهير وان ظهر بمظهر ذاتى ، لان ذاتيته ذابت فى الاحساس العام المشترك الذى جمع بين الملك والشعب والشاعر . ومنه ما يقول محمد العثمانى :

لولاك يا ملك القلوب واهلها ... ضل السبيل الى القلوب رجاء
مرت علينا فترة حجبت بها ... عنا الرجاء سحابة سوداء
حتى جلاها نور رايك فانجلت ... والمشكلات شموسها الآراء
اضفيت منه على البلاد اشعة ... يمشى بها العميان والبصراء
فكانه يجرى القضاء وفاقه ... وتبين قبل وجودها الاشياء
سعدت بلاد امرها يعنى به ... قبل الامور ملوكها الحكماء

***

يا من تبوا بالجدارة والحجى ... عرشا عليه من الجلال لواء
جنباته شرع الكتاب وهديه ... وحلاه وحدة امة واخاء
ملكه باسم الحق لما شيدت ... اركانه الاجداد والآباء
وبنت قوائمه على اسس الهدى ... بالمشرفى بناته البسلاء
الفاتحون الارض وهى معاقل ... والناشرون الامن وهو وطاء
والمنجبون بناة مجد ناطحت ... قرن السها شرفاته الشماء
ملك بنوه على الجحافل والقنا ... وحمت ذراه الغارة الشعواء
والنصر ينزل والسيوف رسوله ... والحق تتلى آيه الغراء
للحق آى لا ترى الا اذا ... كتبت كتائب والمداد دماء
فاذا مراكزه رقاب اباته ... واذا بنود شعاره حمراء
ما اكثر العشاق فى طلب العلا ... لكن قليل طالب اتاء

وما يقوله الصديق العلوى :

طف بالاريكة واقض ما ... يقضى الولاء من الشعائر
وانظم قصائد من شذا الا ... خلاص او نفح الازاهر
عرش على انواره ... مذ كان هذا الشعب سائر
مجد تقنع بعد اسما ... عيل والدنيا مصائر
قد كان جرار الجيو ... ش وكان للنزوات قاهر
قد كان للاقصى ملا ... ذا منذ قام وكان ناصر

جارت عليه يد القضا ء ولم يكن فى الحق جائر
وكذا يباح حمى الاسو د اذا تقلمت الاظافر

* * *

وطلعت نورا يقتفى آثار اباء اكابر
بسم الزمان على جبينك للبلاد وكان كاشر
وافيت فانجاب الظلام ولاح نورك فى البصائر
ضنت بك الايام قبل ولحت فانتشرت بشائر
واتى اليك الشعب فى اشباله جذلان ظافر
قد اعلنوا لك عن ولاء العرش فى شتى المظاهر
الناشئون يشع حبهم وحب النشىء طاهر
والطامحون لمجدهم عقدوا عليك له الخناصر
هذا الهتاف صدى شعو رهم بمالك من مآثر

فها نحن اولاء نرى هذه القصائد ، وكأنها ترجمة لما يجول فى نفوس المواطنين من معانى الايمان بالذات والثقة فى المستقبل ، ممثلة فى العرش والجالس عليه لا مدح مجرد لشعراء متكسبين فى ملك من الملوك ، ولهذا جعلناها من الشعر الوطنى اذ كانت به امس واليه اقرب . والحقيقة انه لا حد لشمولات هذا الباب من الشعر ، ففى معركة الحرية ودعم الكيان القومى كان كل عمل يرمى الى النهوض بالبلاد فى منحى من المناحى الاجتماعية والثقافية يجد صداه فى الشعر باعتباره عملا وطنيا يحق التنويه به وتشجيع القائمين عليه ، حتى قيام نخبة من الشبيبة الوطنية بتمثيل بعض الرويات التاريخية على المسرح استحق تحية الشعر ونظم القصائد التى سارت على الالسنة زمنا طويلا . فمن قول علال الفاسى فى ذلك :

كل صعب على الشباب يهون هكذا همة الرجال تكون

* * *

يا شباب البلاد احييتمونا فلنا فيكم رجاء متين
ولنا فى الشباب خير ظنون حققت فى الشباب تلك الظنون
اخبروا القوم اعلموهم بانا قد حيينا واننا سنكون

قــد ملكتم اعجابنــا فاديمــوا | سيــركم واعملوا ولا تستكينوا
واحفظــوا ما ورثتم مــن لسان | فهــو روح الحيــاة والاكسجين
لغة العــرب اتقنوهــا فمنهــا | كــل مــا تبتغونــه يستبيــن
ما يضير الشباب شيء اذا مــا | رضى الشعــب عنهــم والدين
اعملــوا واقدموا ولا تتــوانوا | وانــا بالنجــاح بعد ضميــن

ومــن قــول المختــار السوسي :

شبــاب المغرب الاقصى يفيــق | ليحى المجــد والحسب العريق
اراهم يطمحــون الى المعــالى | وما يرتقــى البلاد ومــا يــروق
ويجرى فى دمــائهــم شعــور | تثــور بــه الشراين والعروق
فيشتاقــون للمجــد المــولــى | ويذكــرون والذكرى تشــوق
رمــوا بالنظرة العليــا عصورا | لرايــة مجدهم فيهــا خفــوق
فقاموا يرسمون لنــا حــلاهــا | ووجــه الشعب حولهم طليــق
وفاس واهلها جــذل وبشــر | كأنهــم تميــد بهــم رحيــق
يقــوم بذلك التمثيــل نشــا | هــو النشا الطمــوح المستفيق
بجــاش ثابت والكــل يــدرى | ثبــات النشــا اول مــا يفيق
وعــزم لا يفــل واى شيء | يفــل يــد الشبيبة او يعــوق
ورد السيــل عن مجراه ادنــى | مــن ان يرتــد نشأ يستفيــق
ففاقــوا ما يظــن ومــن يقده | نبــوغ المغرب الاقصى يفــوق

ونهضة الفتاة وتعليمها مما كان له فى الشعر الوطنى اصداء ، فقد ادرك الجميع من اول وهلة ان المراة لا بد ان تساير الرجل فى حركة البعث والتجديد ، وان تخلفها عن الميدان ايذان بالهزيمة ، فانها الام المربيــة والاخت المواسية والزوجة المشاركة فى السراء والضراء ، ولا يمكن للحركة ان تنمو وتسير فى طريق النجاح بدون مساعدتها ومعاضدتها وبالفعل فقد كان للمراة المغربية دور مهم فى جميع مظاهر النشاط الوطنى حتى انهــا شاركت فى اعمال المقاومة والفداء واصيبت بما اصيب به الرجل من اذى السجن والتعذيب ، فلا غرو ان يهتم الشعر الوطنى فى البــدء بتطورهــا وتحررها من قيد الجمود والخمول فمن صرخاته فى ذاك قول عبد الكريم سكيــرج :

مـــا للفتـــاة تغيرت احـــوالها	وتضاعفت مـــع ضعفها اهوالها
فكأنهـــا شعرت بهضم حقوقها	لمـــا تصدر فى العلا امثالهـــا
فبكت وقالت ليس لى مـــن غيرة	ان لم افق من كان دونى حالها
ما لابنة الغرب التفوق وهى من	جنسى ولكن اصلحت احوالهـــا
لو يعتنى قومـــى بتربيتى ارتقت	رتبـــى واخـــلاقى يتم كمالهـــا
أو بالجهالة ظـــن قومى عفتى	والنـــاس اقـــرب للخنا جهالها
ان التـــى لم تحتفـــل بتـــادب	ولو انهـــا صينت تسوء فعالها
واذا المعارف هذبت اخلاقهـــا	اعطى لها مـــا تستحق رجالها
من موقظ الآبـــاء من غفـــلاتهم	لتقـــر منهم اعينـــا انجـــالهـــا
الاب الفتـــاة اذا ابيت رقيهـــا	يوما ستاتـــى ما به اذلالهـــا
هى بنت صلبك ان تصلبها على	جذع الهوان اهنت حين تنالهـــا
ماضر لو علمتها مـــا ينبغـــى	ليتـــم بعـــد جلالها اجـــلالهـــا
وتكون عندك زهـــرة الدنيا التى	كملت وقد سلب العقول جمالها

وقـــول عـــلال الفـــاسى :

نهضت تمد الى المعالى سلمـــا	وتود كالفتيـــان ان تتعلمـــا
سئمت حياة الجاهلات وساءها	ان لا تنال من المعـــارف مغنما
فأتت الى الميدان تطلب حظهـــا	من ذلك الحق الذى لن يهضما
لكنهـــا لمـــا تصـــادف مـــوردا	صفوا ولا شخصا بهـــا متهمما
ودعت الى ارشادهـــا لمرادها	فابـــى عليهـــا القـــوم ان تتكلما
حملـــوا عليهـــا حملة جبـــارة	اضحت بهـــا لا تستطيع تظلمـــا
يا قوم ما هاتى الجهالة منكم	انى ارى سيل التعصب مفعمـــا
ربـــوا الفتاة على المعالى انهـــا	ان هذبت تنح السبيـــل الاقوما
انا سئمنـــا عيشـــة مبتـــورة	ما ان نطيـــق بها نظاما محكما
لا تحسبوا ان الفتـــاة كمتعـــة	خلقت لنـــا كيما نلذ وننعمـــا
لكنها شطر الحيـــاة فان تـــدم	فى الجهل كانت شطرها المتجهما
كم سجل التاريخ مجدا ساميا	لنسائنـــا ومواقفا مـــا اعظمـــا
فى العلم والعرفان فى حذق اللغى	فى الدين والاخلاق فى حفظ الحمى
فى كل ناحيـــة ضربـــن باسهم	وظهـــرن فى كل المعانى انجمـــا
لا ينبغى ان نمنع الاوطان مـــن	مجهودهن مدى الحياة ونحرما

وتقول عبد القادر حسن وهى قصيدة صاغها فى شكل حوار بين فتى وفتـاة . قـال :

حققـى السبق فى مجال الكمال   واضربـى فى الحياة خير مثـال
واسلكى فى الوجود نهجا سديدا   واطلبى فى الحيـاة غر الفعال
واطلبى الخلق والطهارة مهمـا   كلفـا مـن ضروب الاستبسال
واذا ما دعيت للسـوء يومـا   فانفـرى أن ترى بوجه مـذال
واغمرى البيت بهجـة وسرورا   وانظميه نظما عـزيز المنـال
واحفظيه بحكمـة واقتصـاد   واجعليـه يسير نحـو الكمال
بهجـة البيت بسمة منك تعلو   ه فخليـه غايـة فى الجمـال
واجعلى زوجك العزيز يرى فيك   امانـى الحيـاة فى اقبـال
واغتدى مـلء قلبـه وازيلـى   عنـه مـا قد يحسه من مـلال
انت للزوج فى الحيـاة شـريك   فلتكونـى كذاك فى كـل حـال
يا فتاة العلا لانت عماد الشعب   فى رفـع مستـوى الاجيـال
انت للطفـل معهد لا يضاهـى   يدفـع النشىء للعـلا والنضال
فلتكونـى للطفـل امـا واستا   ذا وكونى له الصديق المثـالى
هذبيـه وكونـى فيـه حبـا   لحيـاة مليئـة بالجـلال
عوديه علـى النظـام وربـى   فيـه نفسـا كثيـرة الآمـال
واغرسى فيـه كـل خلق كريم   وادفعيه نحـو العـلا والكمال
عوديه صـدق الحـديث لينشا   صادق القـول صادق الافعـال
حذريه النفاق والجبن والوهـ   ـم وباقـى خصائص الانـذال
نفريـه مـن الدنـاءة والـذ   ل وعيش المجـون والانحـلال
علميـه الثبات فى الحـق مهمـا   كلف الحـق مـن عنـا ونضال
علميـه الاباء والعـزم والبـأ   س وباقـى شمـائـل الابطال
يا فتاة العلا لانت عماد الشعـ   ـب فى كـل غايـة وكمـال

قـالـت :

يا فتـى المجد اننى طوع شعبى   اتحـرى رضـاه فى افعـالـى
اخلص الـود للبـلاد وارجـو   كـل مجـد لهـا وكل جـلال
غير انـى انـوء منـذ بعيـد   بضـلال يفـت فى اعمـالـى
كيف اسمـو وكيف يسمو اناس   تخـذوا الجهـل رائد العمـال

وقصارى امـــر الفتـــاة لديهم	ان يروها ترضى ميول الرجـــال
ورآهـــا الكثيـــر آلـــة لهـــو	فهـــى سلواه من عنـــا الاشغال
وهى فى البيت خادم لا يلاقـــى	اى عطـــف منـــه ولا اجـــلال
وهى زوج واى معنى راوا للزو	ج يسمـــو بها من الابتـــذال
وهى ام وليـــس لـــلام فيهـــا	من معانى التقديس اى مثـــال
يا فتى المجـــد قل لقومى انـــى	سوف اسمو متى ارادوا كمالى
علمونـــى وهـــذبونـــى تـــرونى	فى العـــلا والطموح خير مثـــال

والى هنا لم نورد الا نماذج من الشعر الوطنى او ما هو منه بسبيل . واننا اذ نكتفى من ذلك بهذا القدر نحب ان نلفت النظر بمزيد من التأكد الى ما فى تلك النماذج من جديد ، سواء فى اصل الموضوع الذى تناولته او فى الافكار التى تضمنتها ، فالدعوة الى تحرير المراة ومساواتها للرجل فى الحقوق موضوع جديد على الشعر لم يسبق ان خاض فيه البتة ، ومدح الملوك على الطريقة التى راينا فى قصائد العرش من ربط فكرة القوميـــة بالدولة وتمثل الدولة فى العرش والجالس عليه ، اسلوب جديد ايضا نحى بهذا الباب من الشعر ، وهو باب المدح الذى يعد من اوسع ابوابه ، منحى شعبيا عاما خرج به من دائرة الفرد التى كان يتعثر فيها بين المجاملة والنفاق الى دائرة الجماعة التى تجعله فى خدمة الصالح العام ، وهكذا باقى النماذج الاخرى فانها جميعا ذات اتجاه جديد لم يكن للشعر المغربى او قل العربى مساس بها من قبل ، فاصبحت من اهم اغراضه واعظـــم مقـــاصـــده .

وننظر فى ابواب اخرى من الشعر الوجدانى كالوصف وما اليه لنتبين الاتجاهات الجديدة التى اخذ شعراؤنا بها انفسهم فى وصف ما يرون من مشاهد ، وتصوير ما يحسون من مواجد ، وخلق الاجواء الشعرية التى يحلقون فيها بخيالهم ، ويرددونها فى احلامهم ، هياما بربة الشعر التى لا تلمح الا فى جمال الطبيعة ، ولا تزور الا مع طيف الخيال . فمن ذلك قول عبد المجيد بن جلون يجتلى محاسن الطبيعة ويود لو يفنى فيها :

من لى بكوخ فى الخمائـــل نـــاء	وسط الطبيعـــة امنـــا الحسناء
بينـــى وبين العصر بون شاسع	انا فى الخمائل وهو فى الصحراء

وايمم الوادى لاغسل عنده | ما قد تعلق بى من الاحياء
وتكون احضان الطبيعة ملجئى | من عالم الاقسام والاجزاء
الفجر تنضح مهجتى انداؤه | حتى تعود شريفة الاهواء
ان الفضيلة فى النفوس وانما | هى زهرة تحتاج للانداء
والشمس تسكب فى فؤادى نورها | فيعود مثل الشمس فى اللألاء
انا والحبيب نظل طول حياتنا | نحيى معا فى هذه الافياء
نجرى ونفتح للطبيعة اذرعا | مشتاقة لربوعها الخضراء
وعلى ضفاف النهر نجلس ساعة | لنرى مثال وجودنا فى الماء
ونردد الالحان فى اجوائها | فتهافت الاطيار للاصغاء
اما الثقافة فهى سفر خالد | مجلوة فى القبة الزرقاء
فاذا اطل البدر سحرى السنا | وبدت نجوم الليل فى العلياء
وتخطرت فى الجو ارواح مر | فرقة على الازهار فى الظلماء
وطوى الهدوء العالمين فلست تسـ | مع فى الطبيعة غير صوت ناء
هو همسة الآناء فى جوف الدجى | من عالم الاجداث والاشلاء
نمنا على الاعشاب كالافراخ فى | اعشاشها ملتفة الاعضاء

انها الطبيعة الام فى روعتها وجلالها ، وفى الخمائل الملتفة والوادى العميق ، فى انداء الفجر واشعة الشمس ، فى الظلال والافياء ، فى القبة الزرقاء ، فى القمر والنجوم ، فى هدوء الليل ، فى نفح الازهار ، فى صوت الابد يسمع من بعيد ، فى كل مجاليها المنظورة والمتخيلة يهيم الشاعر حتى يجتوى عالم الاقسام والاجزاء ، ويؤم الوادى ليغسل ما تعلق به من اوضار الناس ، انه يتمثل الفضيلة زهرة ندية ، وهى مغروسة فى النفوس لكن البعد عن حياة الطبيعة يذبلها ويذويها ويرى الثقافة هى ما يقرأ منشورا فى سفر الطبيعة من بدائع السماوات والارض فما به من حاجة الى ثقافة العصر الذى اصبح اهله يعيشون فى صحراء . وشتان بين عيشه فى الخمائل وعيشهم فى الصحراء .

ان الشعر العربى لم يكن يحتفل بالطبيعة هذا الاحتفال ، وهو ان كان قد وصف جوانب شتى من محاسنها ولا سيما الربيع والازهار ، فقد بقى عليه ان يجلوها وحدة كاملة وكلا لا يتجزأ ، وهذا ما فعله الشعر

المعاصر ، وكان من السابقين الاولين الى ذلك امير الشعراء المرحوم احمد شوقى الذى وصف الطبيعة فى الآستانة بقصيدته المشهورة التـى يقــول فى اولهـــا :

تلك الطبيعة قف بنـــا يا سار　　حتى اريك بديـــع صنع البارى

وقصيدة شاعرنا ابن جلون من هذا القبيل . ومثلها قصيدة لعبد الملك البلغيثى يقــول فيهـــا :

يا سائلى عنشرابى اين يعصر لى　　وعن نديمى وللخلصان فقــدان
وعــن دنانى وقينباتى ومتكئــى　　كاننى وعتــاد اللهــو صنوان
اذ لا يرى شاعر الا لــــه مــدد　　للشعر من ذاك انى عنه غنيان ؟
هون عليك فما خمرى ولا سكبى　　ماء الكروم ولا مــــرد ونسوان
وانمــــا الكون جلى لى طبيعته　　فهمت فى حسنها والعشق اديان
ساجلتها نظرات الحب فانبعثت　　وللطبيعــــة فى عينــى انســـان
امعنت فيها ولا هجر يطاردنـــى　　فاينمـــا ملت مالت وهى بستان
اظل فى معرض منها يساجلنى　　بكل مفتتــن والحسن عريان
الفتهـــا ولهـــا فى كــل آونة　　تبدل فيــه للمشغوف سلــوان
لا كالمليحات ان غرن من خلق　　فانمـــا هو للمعمــود عصيـــان
ارى الطبيعة نشوى لا تغيرنــــى　　بى ما بهـــا فكلا القلبين هيمان
يا ليتنى عينها فى الكون مبصرة　　او سمعها وبهذا الخلق نقصان
لو امتزجنا فهمنا بعضنا فغدا　　للشعر من بيننا جيل وبنيـــان

＊＊＊

قصرت عن فهم ما تطويه لهجتها　　ومعجم الكون لم يدرسه انسان
ولم ازل اتلقــى من مناظرهـــا　　ما فيه للشعر فرقان وتبيـــان
لجأت للطير اذ غنى فقلت لـــه　　يا من له بين هذا الجو خلصان
الفت اغصان هذا الدوح من زمن　　وللنسيم بهـــا وجــد وتحنـــان
وللجــداول والحصبـــاء معتبـــة　　وللفراش بزهر الروض وجدان
والليل ساج ونور النجم يوقظه　　يظنــه نائما والليــل يقظـــان
فهل سمعت حديثا دار بينهمـــا　　ماذا طوى منه اعلان وكتمـــان

فقال تسأل عن اشيـاء يجهلها ... مكلم الجن فى الدنيا سليمـان
وليس يعلم مـا كنت سرائرها ... الا عليم بسر الكـون رحمـان

والطبيعة فى المغرب من اجمل ما خلق الله . انها لوحة لا تستطيع ريشة اعظم فنان فى العالم ان ترسم مثالا لها . غير ان الشعراء من الجيل الجديد حاولوا ان يحكوا فى شعرهم الوصفى بعض مظاهرها . ومن ذلك قول محمد الحلوى يصف جبال الاطلس وقد جللها الثلج :

ابا الهول لا تشمخ بانفك انما ... اقامتك ايـد ناحتـات مواهـر
فظنك اقـوام الهـا مجسـدا ... وارجف اقـوام بانـك ساحـر
حياءك لا تشمخ وحولك اطلس ... رفيع الذرى للهول والموت قاهر
تعالت كأمواج المحيط هضابـه ... وعـزت روابيه على من يناظر
متوجة بالشمس والثلج هامهـا ... واعظم تاج لـم تنلـه الاكاسر
يصوغ لها وشى الربيع مطارفا ... ربيعية تهفـو اليهـا المشاعر
هضاب بنت اوتادها يد صانع ... صناع وارساها على العـز ماهر
فلله اهـرام الثلـوج مشعـة ... يدهدهـا فيض من النور غامر
عرائس بيضاء الغلائل حسنها ... وضىء ورياهـا المحبب عاطـر
اذا ما رآها الشيخ فى ميعة الضحى ... تجلت لعينيه الليالى الزواهـر
فعاش بمرآى الثلج والشمس ساعة ... يراجع فيهـا عمـره ويذاكـر
ولله غيـد رائعات على الربى ... رقيقات ما ضمت عليه الخواصر
وجوه غذاها الثلج فهى وضيئة ... وهامت بها الانسام فهى نواضر
زهت بالجمال الاطلسى وترفعت ... عن البرقع الخداع فهى سوافر
مفاتن لم تحلم بها ارض عبقر ... وجنات حور لم تلدها الحواضر
ابا الثلج حدث طالما انت ناطق ... بليـغ ولقنـى فانى شاعـر
وانت الصدى الحاكى وان بعد المدى ... ورمز لـماض توجته المفاخـر
اشابت نواصيك الخطوب وخضبت ... رباك دمـاء انبتتهـا الازاهـر
ربى اقسمت ان لا تذل جباهها ... لطاغية ما عاش فيهـا برابـر
اذا ركبوا كانوا ربى تمتطى ربى ... وان طربوا فالحلم والجود غامر
تؤلفهم والفاتحيـن شمـائـل ... وتربطهم والمسلميـن اواصـر

وحديث الحلوى عن الاواصر التى تربط بين المسلمين فى سياق هذا الوصف الرائع للاطلس الجبار ، كانه اعتذار عن حديثه اولا على سبيل

الزراية باعجوبة ابى الهول ، وكم فى اعماق النفس العربية من معان تفىء الفرد العربى الى اخيه مهما ند احدهما عن الآخر ، لذلك كان هذا الادب هو التعبير الصادق عن شعور الوحدة الذى يجمع بين ابناء العروبة ويؤلف اقطـــارهـــا تأليفا .

ومنــه قــول محمــد مكــوار يصف الطبيعــة فى مصيف مــوزار مــن قصيــدة :

طف بالحقول على الازاهر غدوة ... وارشف رضاب ثغورها اعــلالا
واستقبلن غزالة الكون التــى ... تعطى العوالم بهجــة وكمـــالا
انظر لها بسطت نسيج شعاعها ... ذهبا على ظهــر الثرى يتــلالا
بزغت على وجه الغدير مشعة ... فكسته من أنوارهـــا سربـــالا
وتمـــازجت بمعينـــه فحسبته ... نورا يموج على الثــرى سيالا
رقصت على نغمات صوت خريره ... رقصاتهـــا وتــر نحــت ادلالا
فكانــه الفنـــان وقـــع لحنــه ... فأجـــاد توقيعا وابـــدع قـــالا
انـــى ليطربنى الخرير اذا شـــدا ... لحن الطبيعة مـــا يسام مـــلالا
اعذب بمورده وفرط صفـــائـــه ... فكانــــه البلـــور ذاب فســـالا
ان حـــل سهـــلا سار فيه تهاديا ... ارايت قط مـــن الجمـــاد دلالا
او حل وهدا خلتـــه متصببـــا ... جيشا يقـــارع دونه الابطـــالا
تتطايـــر القطـــرات منه كأنهـــا ... لمـــع الاسنـــة يمنـــة وشمالا
تنساب منه على الحقول جداول ... يجرى مرقرق مائهـــا سلســـالا
كتب النسيم على صفاء بياضها ... بلغى الطبيعة للغصون مقـــالا
ادى به لهف الغديـــر للثمهـــا ... فاستسلمـــت لتنيلـــه الآمـــالا
لتمـــازج الثغـــران هذا لاثـــم ... فمهـــا وهذى تحتسى جريـــالا
يا ساعة يممـــت فيهـــا ربـــوة ... بلغت ذكاء بهـــا السمو زوالا
فجعلت سندس ارضها متـــربعا ... وتخذت ديباج الغصون ظـــلالا
وهنالك اتســع المجـــال لناظرى ... من حيث يقصر عن مداه كـــلالا
واجلت طرفى فى البطاح فسحية ... وفككت عـــن تفكيرى الاغـــلالا
فقطعت من ابعادها القصوى ولم ... ابرح مكـــان تربعى ، اميـــالا
مـــا بـــين خضراء الازار غنيـــة ... بالنـــور أو صفرا الردا معطالا
اضحت لقطعان الخراف مراعيا ... تغدو وترحل نحوهـــا ترحـــالا

ومسارحا تبدى فنون نشاطهـــا ... فى مأمـــن لا تعـــرف الاوجـــالا
ويهزنـــى طربا ثغـــاء نعاجهـــا ... تدعـــو لرضع ثديها الانســـالا
تلهو وتركض حرة فى السهل ان ... شاءت وحينا تعتلـــى الاجبـــالا
احبب بمـــوزار ولطف هـــوائه ... لمـــن ابتغاه للاصطياف مجـــالا
يقضى النهـــار ترفهـــا وتمتعـــا ... بمنـــاظـــر تنسى الغـــريب الآلا
ومن العجائب ان تـــرى ينـــايرا ... فى الصيف يسحب ذيله مرفـــالا
يحتل من غشت مقـــر جـــلاله ... ويـــذل جنـــد لهيبـــه اذ لا لا

ونتجاوز نطاق وصف الطبيعة لنلتقى مع شعرائنا فى وصف اشياء اخرى من مظاهر الحياة الجديدة كشاطىء السباحة فى الصيف الذى يقـــول فيـــه محمـــد الحلـــوى :

اين من عينى هاتيك اللئـــالى ... خاطرات فى بـــرود مـــن دلال ؟
غانيـــات عـــن مباهاة الحلـــى ... بحلـــى السحر واسرار الجمـــال
يتهافتـــن فـــراشـــات علـــى ... ثبـــج المـــوج كمقتـــد مـــن لآل
ويدهدهـــن شعـــورا حجبـــت ... زرقـــة المـــاء بأمـــواج عـــوال
يتبـــاريـــن كاســـراب القطـــا ... خافقات هدهـــا رحب المجـــال
وكـــأن البحـــر ممـــا فـــوقـــه ... ضاق ذرعا فارتمى فـــوق الرمال
مزبـــدا يحمـــل فى مـــوكبـــه ... تيصرات الحسن عذبات الوصال
ايـــن من عينى دميات الصبـــا ... طافرات حولنـــا طفـــر الغزال
يتحـــاصبـــن بـــدرى الحصى ... ثـــم يهجمـــن علينـــا بالنبـــال
لابســـات زردا يستـــر مـــا ... ضمه الصدر كابطـــال النـــزال
خفـــت الارواح منهـــن فمـــا ... تلمس الايدى سوى جسم خيال
خشع الرمـــل فســـوى خـــده ... موطئـــا يلثـــم اقـــدام الجمـــال
فبـــدت آثـــارهـــا مطبـــوعـــة ... قبـــلا تشرق مـــن غير اتصـــال
غابت الشمس فألقـــت جسمها ... بين احضـــان محب فى اقتبـــال
ثم ذابت مـــن لظـــى اشواقه ... فبدت تبـــرا مـــذابا فى جـــلال
يا عشايا البحر والنـــاس على ... الشاطىء الافيح صرعى فى اختبال
مـــن منـــاد او منـــاج ضـــارع ... او سبوح لاعب (بالفوتبـــال)
او مـــوار جسمـــه فى نفـــق ... يتقـــى غـــارة اســـراب الجمال
او مغـــن يتلقـــى لحنـــه ... من بنات البحـــر او بنت الشمال
لشفـــاء الغيـــر فيهـــا سكـــرة ... صحـــوها سكر بمعتوق الدوالى

سرت النشــوة فى الجــو شذى	عبقريا يشتهــى نجوى الظــلال
عــيــت الالســن الا اعيــنـــا	بلــغ الحب بهــا اسمى مقــال
رنــق النــوم عليهــا فغفــت	تشبــع الــروح بأحلام الوصال
وخيــوط الشمس تبدو شبكــا	بيــد الافــق طواها باحتيــال
وسجــا البحر وفى احشــائــه	حرقــة الحب واعــراض الدلال
متعــة تصبــى وكــون حالــم	وهــوى يصمى وسلم فى تتــال

ان هذا الوصف الحى لمتعة الشاطىء لفى غنى عن التنويه بما فيه من جدة ، فالموضوع من اصله جديد فى الادب العربى ، وقد تناوله شعراء مجددون من اشهرهم الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد فى قصيدته خليج استانلى وغيرها ، وشاعرنا الحلوى لم يقصر فيه عن اجادة ولا سيما هذه الحركة التى نقلها عن الشاطىء الى قصيدته فتمثلت فى البحر الذى نظمها عليه ، وهو بحر الرمل المضطرب المتوثب ، وفى الصور التى عرض بها معانيه من فراشات واسراب قطا ، ودمى حية تطفر طفر الغزلان وغير ذلك، انها حركة اضفت على الوصف حيوية جعلته بمثابة معرض للجمال فى شتى معانيه واشكاله ، ويسرف الحلوى فى التجديد حتى يستعمل لفظ الفوتبال الاجنبى للتعبير عن كرة القدم ان لم تكن القافية هى التى الجأته اليه .

وهذا وصف للعبة كرة القدم لعبد الملك البلغيثى وهــو أيضا مــن الموضوعات الجديدة كما لا يخفى :

يا ابنة الريــح والادم	سلوة العرب والعجــم
لــك فى كــل اسرة	من ملوك الــى خــدم
نشــوة لا تقــل عــن	نشــوة الخمــر والنغم
كــم تحييــك ارؤس	ثــم بالرجــل تستلــم
انت فى حلبــة الرهــا	ن بك الجمــع ينتظم
والصراع الشديد انت	له الخصــم والحكــم
اشبعوا جسمك الاليم	مــن الضرب واللكــم
تتلقــاك ارجــل	جلــم بعــده جلــم
فاذا انــت بينــهــم	فى انقــلاب وفى صدم
قسموا الفــوز بينهم	ثــم خصــوك بالالــم
نظــرت صوبك العيــو	ن وفــى لحظهــا نهم

وسحـــرك الــدائــم دواء مـجـــروح
عــد للفتـــى الظمـــآن يـــا خمــرة الـــروح

وقـــول محمـــد البوعنـــانـــى :

كفــى مقتــى اختلاس النظــر ورد الســلام بكــل حـــذر
ولقيتنـــا والرقيـــب بعيـــد نذيـــر عتاب الهـــوى مختصر
فان عتـــاب العشيقـــين قـــد يواسى الجـــروح ويقضى الوطر
ونزع النقـــاب ولثـــم الثيـــاب ولمس الاكـــف وشـــم الشعـــر
وخفـــق الفـــؤاد وطلق الخيال وعنـــد التنهـــد غض البصـــر
وبسمـــة شكر وسكتة عـــذر ونظـــرة ذعـــر لشىء ظهـــر
اراك بجنبـــى وكلـــى عفـــاف كأنـــى نبـــى ولســـت بشـــر
وذلك مـــا عودتنـــى تقـــاك وقـــد كنـــت اجهلـــه بالفكـــر
فلست انـــا حاضرا فـــى ذراك ولكـــن ضميرى الذى قـــد حضر
سلى كيف كنت قبيـــل هـــواك فقـــد كنت فردا كثيـــر الصور
وهـــا صورتى اليـــوم واحـــدة لانـــك واحـــــدة كـــالقمـــــر

ومن الشعر الوجدانى ما يهيم صاحبه فى أودية الخيـــال ويتعلـــق باللامنظور من عالم الماورائيات حيث ينشد سعادة النفس وطمانينة القلب، وهو شعر الذين غلبت عليهم النزعة الفلسفية فلم يفصل بينه وبين النظر الفلسفى الا خيط رفيع من النسج الفنى الذى أكسبه صفة العمل الادبى وأدناه من رحاب الشعر ، ومنه قول علال بن الهاشمى الفيلالى :

ليتنـــى كنت فى الحيـــاة صلاة اتسامى فى الغيب لله نجـــوى
كيف احيى ؟ ومن انا ؟ ولمـــاذا جئت للكون اسكب الدمع شجوا؟
هل انا زهـــرة على شط نهـــر تسكب العطر فى الاثير وتذوى ؟
ان اكن منك يا تراب ، فروحى كملاك لا ترتضى الارض مثوى
رب سامح غوايتـــى يوم انزو فى قيود الحياة يـــاسا وبلـــوى
يـــوم احيى كما يشاءون منـــى لا كما تلهم الغيـــوب وتهـــوى
يوم يجنـــى على حياتى جنـــاة بيـــدى يوم احسب العمـــر لهوا
يوم نهـــر الحيـــاة يغمر روحى وهى ظمآى تأتى السراب لتروى
يوم نفسى فى هيكل الحب تغزو مبدأ الفرد وهى بالذات نشوى
يوم ريح الغيـــوم تنسل ريشى وهى توحى: رفرف الى الجو سلوى

لست ادرى سر الحيــاة ولكـــن ... كيف اشكو من عالم الناس شكوى
فى دمى واقع الحيــاة احاطـــو ... ه بحلم وكان لى الحلم مهـــوى
فى يدى ارغن الخلـــود اماتـــو ... ه وقد كان يوسع الكون شدوا
فتهاوت الهـــة الشعـــر صرعى ... من صدى الروح ضاع فى غير جدوى
من خيالى صغت الجنان فقالوا ... شاعر شاء للتقـــاليــد محـــوا
فى فمـــى كلمة الوجود سيحكيها ... زمانى من صرخة الكون ادوى
رفرفى يا صلاة روحى الى اللـــه ... ونيهـــى فى وهلة الغيب زهـــوا
واطلقى الروح من تقاليد كـــون ... انت من عالم الطلاسم اقـــوى

ومنه قصيدة لعبد الكريم بن ثابت بعنوان خلود ، يقول فيها :

كان ليـــل والدجـــى يحضننـــا ... ولقـــد هامت بنـــا احـــلامنـــا
نحـــن كنـــا سبعـــة لا نلتقـــى ... حيثمـــا الاحـــلام لا تجمعنـــا
قـــد سرينـــا نقطع الليـــل وما ... احـــد يســـأل مـــا غـــايتنـــا
ربطتنـــا وحـــدة الـــروح ومن ... ينفصم الـــروح التـــى تربطنـــا
وسرينـــا وسرى فـــى نشـــوة ... زورق مـــؤتلـــق يحملنـــا
قلت للصحب تـــرى يـــافتيـــة ... ايـــن مرسانـــا ومـــا مطمحنـــا
فانبـــرى يسخـــر منـــى بعضهم ... قائـــلا كيـــف اذا تســـألنـــا
نحـــن قـــوم كتب اللـــه لهـــم ... ان يسيروا بـــوركت سيـــرتنـــا
نحـــن نرجو الحب والخلد ومن ... يرتجـــى غيـــرهمـــا يتـــركنـــا
صحت ذا ربـــاننـــا يخبـــط فى ... عشـــوة الليـــل وقـــد يغرقنا
ارشـــدوه ايـــن يـــأوى انـــه ... تطعـــة مـــن جسمنا تصحبنـــا
وتعـــالت فى الدجـــى اصواتهم ... ايهـــا العاقـــل لـــم تنصحنـــا
فلتـــدع رباننـــا يســـرى بنـــا ... هـــو ادرى بالـــذى ينفعنـــا
وصمتنـــا نسمـــع اللحن الـــذى ... بـــات يزجيـــه لنـــا ربـــاننـــا
مـــا سمعنـــا مـــذ خلقنـــا مثله ... كـــان لحنا مشـــرقا يسكرنـــا
بعـــد مـــا انهى لنا اللحن الذى ... كـــان لونـــا رائعـــا يخلبنـــا
تـــرك المـــركب يجرى وحـــده ... دون مجـــداف فثـــارت نفسنـــا
وانـــزوى فى الركن يبغى نشوة ... ضاحكا منـــا عســـى يرهبنـــا
قمت للمجـــداف ابغـــى نجـــوة ... حيث قـــد مـــال بنـــا زورقنا
فرنت لـــى (منيتـــى) قائلـــة ... انت يـــا صاح اذا مرشـــدنـــا
لا تسلنـــا عـــن امـــانينـــا ولا ... ايـــن نسرى لا ، ومـــا ينفعنا !

قـد مللنـا الارض والناس وما ثم فوق الارض مـا يفرحنـا
سر الى النـور السماوى وسر عـل خلـدا دائمـا يشملنـا
فالهـوى والنور والسحر ومـا ينطوى الفن عليه قصدنـا ..

وثم الوان اخرى من الشعر الجديد كالشعر السياسى الذى يقال على مستوى الاحداث العالمية وبالاخص احداث العالم العربـى . والشعـر الاصلاحى الذى يتناول بالنقد انحلال المجتمع وفساد الاخلاق نتيجة الغزو الاستعمارى والانغماس فى مساوىء الحضارة الغربية . فمن الاول قول عبد الرحمن الدكالى يقرر ان فكرة منع الحرب لا تتحقق الا باعطاء الشعوب حريـاتهـا :

ان عهـد استعباد شعب لشعب قـام يبكـى مؤبنـا غربـانه
كـرة الارض حـرة فليغـادر كـرة الارض مـن يريد اهانه
ساسة السلم فى الورى قد سعيتم لسلام ، فهل ملكتم عنـانه ؟
انـه العـدل بين كـل قوى وضعيف قـد بثكـم احـزانه
انـه نصرة الذليـل اذا مـا جـاء يشكـو اليكم اشجانـه
ليس اسطولكم على كل بحـر وسـلاح شكلتـم الـوانـه
يمنـع الحرب ان تشـن ولكن يمنع الحـرب عدله سبحانـه
يمنـع الحرب أن تنـال حقوق يمنـع الحرب أن تداس الخيانه
يمنـع الحرب ان يرى كل شعب مستقلا يسعـى ليصلح شانـه
لا ضعيف مستعبـد لا قـوى مستبـد لا اثـرة لا استكانـه
حـرروا هـذه الشعوب وهاكم لانتشـار السلام الف ضمانـه

ومنه قول محمد العربى الآسفى يستنكر قرار الامم المتحدة بتقسيم فلسطيـن :

امـة العرب حان وقت العراك فى سبيـل الوفا وصون حمـاك
نحـن جند يهوى الفداء ويهوى موتـة العز فى ظـلال ربـاك
سوف تدرى وسوف يدرى اناس عاضدوا الظلم فى سبيل شقـاك
اننـا العضب فى يديك وفـاء لعهـود مقطـوعـة لعـلاك
اننـا النـار والدمـاء لقـوم خذلـوا الحق رغبـة فى رداك
نحـن قـوم نرى الممـات بعز خـير فخـر نحـوزه ومـلاك

دول الغرب اسمعي صوت شعب — عربي قد طال منه التشاكي
مجلس الامن ان حكمك جور — وضلال ومبعث للعراك
هياة العالم الموحد سيري — واجعلي العدل من اساس بناك
ان حكما امضاه اهلك زورا — ونفاقا لمصدر لفناك
اسخط الحق فهو منه شرار — مستطير يثور ضد بقاك
خلق الياس فى الضمائر ما قد — سجلت فى رضا اليهود يداك
فمن العار أن تقولي كلاما — يبعث البشر ثم يرمى وراك
ومن العار ان تقومي بفعل — ينقض القول فى زمان صباك
هل تظنين ان سيفك امر — يبعث الرعب فى قلوب سواك
لا تظني ان التحامل امر — سوف نمضيه عن رضا للقاك
لا تظني ان المدافع تغريـ — ـنا على الصمت خشية من لقاك
نحن لا نرهب المدافع لكن — نرهب الحق وحده لا قواك

ومن الثاني قول المدني الحمراوي مخاطبا الشباب المنحرف :

يا شباب البلاد مهلا فاني — قد رايت الشباب فى استهتار
لا ارى نجحكم اذا لم تصونوا — شرف النفس من فسوق وعار
قد راينا جموعكم تتهاوى — فى حياض الخنا بدون استتار
فاستطابت من الهوى كل لون — يتنافى مع الحيا والوقار
واستحلت من الفجور صنوفا — حرمتها شرائع الكفار
كم راينا على الطريق شبابا — تتل العرض جهرة فى نهار
فاذا ليم قال حرا اراني — ايـن فحش من عفة الاحرار
انما الحر من يصون عفافا — ويجافي مخازي الفجار
انما الحر من تحرر حقا — قلبه من قبائح الاوزار
فاعد ايها الشباب صوابا — كاد يفنى فى غمرة التيار
وتعلم من الحياة دروسا — تنذر المرء ان لها باندحار
انما هذه الحياة صراع — لا يرى الفوز فيها غير الخيار
ويح من غره الشباب فأمسى — يتلف العمر بين حان و (بار)
يرشف السم من شفاه مراض — ويضيع الرشاد حول القمار
فاذا ادبر الشباب توالى — غمه بين علة وافتقار

* * *

يا شباب البلاد مهلا فهذى — ادمع الشعب كالسيول الغزار

كالحياة البكر فى احشاء حامل
تلتهـب
علموه بعدها اى يقين
وشكوك سبحت من فوق الواح الظنون
منذ نوح ، منذ آلاف السنين
منذ ان كانت حياة ونجاة فى السفين
علموه ان من ينهض يصلب
فوق اغصان من الزيتون ينصب
ثم يعلوه من الشوك المذهب
الف اكليل وترعاه النجوم
فى وجـوم
باسمات مثل عرجون قديم
لا يريم ، والنسيم
اذ يهب

* * *

واتى صبح تمطى فى كسل
وملـل
بعد ليل انهكته الشهوات
والقبـل
فتذكرت وما كدت شبابى ، فاذا بى
لـم ازل
ذلك الطحلب لفته الفلاة
واذا اعجاز نخل خاويات ، والحياة
هيكل قامت عليه العانسات
كالظـلال
فى ابتهـال
كالنصـب

وهذا نموذج آخر لمصطفى المعداوى (ت 1381) وهو من الشعر الوجـدانـى :

يا أيها الطيف المرفرف فوق اهداب الخميلة
يا نسمة العطر المموج فى ابتسامات الجميلة
يا طيف سعد عابر
هلا مررت بخاطرى
لى فى حماك قصيدة
غذيتها بمشاعرى

* * *

يا ايها الطيف المموج من بعيد
يا سائرا عبر الفضاء الواسع
ما زالت الذكرى معى
تهفو فتنسج من ضياك لناظرى
صـــورا جميلـــة
صور الزمان العابر
فى فجرها المتوثب
ما زلت احمل ظللها
فى ناظرى شعاع امسية بعيدة
كانت لنا حبا واحلاما سعيدة

* * *

يا ايها الطيف الملوح كالشعاع
يا بركة فضية الشطآن فى الشراع
ترى حان الوداع
هلا وقفت هنيهة حتى اراك
وارى الحياة على شفاهك تبتسم

* * *

يا ايها اللحن المزغرد فى الفضاء
ما كدت استمع النداء
حتى اختفيت وراء دنيا من ضباب
ولم تعد الا صدى يخبو رواه

يا ايها اللحن الطروب
ما غاب منشدك الحبيب
عنى ولا نضبت رؤاه
يا ايها الطيف المودع ربعنا
لى فى حماك قصيدة
ازلية لا كالقصائد
غنت تموجها حمامه
فى دوحها المتطاول
غنت حمامـــه
بيضاء فى ثوب السلام
مـــن الف عـــام

* * *

يا ايها اللحن المغرد فى الفضاء
عد للكمان .. لقلبى المتاجج
عد للوشاح لسحرك المتموج
عد فالصباح اطل والزهر انتشى

* * *

يا ايها الطيف المودع ما حدا بك للذهاب
يا نغمة غجرية حنت لعودتها الهضاب
يا نسمة عطرية متوثبه
يا طيف سعد عابر
هلا مررت بخاطرى
لى فى حماك قصيدة
غذيتها بمشاعرى

* * *

ونموذج ثالث لمحمد الهوارى وهو ثورة على الظلم الاجتماعى :
الحرف أعصار تربى فى دمى
الحرف بركان يعربد فى فمى

الحرف آلاف الجيـــاع بأمتـــى
الجـــائعـــون كاخوتى

* * *

الحرف آلاف الجياع بأمتى
المهرقون رحيق أعمار شتيه
الساكبون دماءهم دوما ضحيه
الذابحون رقابهم
بمذابح الصمت المهين
السائرون عيـــونهم
بعفونة الذل الذليـــل

* * *

الحرف نار من سعير
الحرف وهم مستطير
بعيون الجائعين
بقلـــوب الساكتين
بعيون آلاف الجياع بأمتى
أعمارهم خلقت تباع
كى يحرثوا .. كى يحصدوا
ويقدموا كل الذى قد يحصدون
لصاحب الارض الكبير

* * *

الحرف آلاف الجياع بأمتى
الساهرون مع النجوم
عبـــر السهـــول
عبـــر القـــرى
فى قـــريتـــى
والنائمون على الثـــرى
بمـــدينتـــى

اوردنا هذه النماذج كاملة لنكتفي بها عن كثرة الامثلة لاعطاء فكرة عن مدى نجاح هذا اللون من الشعر في المغرب فهي كما نراها تجارب لا تقل قيمة عن كثير مما ينسج على هذا المنوال في المشرق . واضطراب الميزان في بعض الابيات هو من عدم اقامة عمود هذا الشعر في جل ما ينشر منه لان قواعده لم ترس بعد على وضع ثابت . وفيما عدا الوزن نرى اللغة والاسلوب لا يختلفان هنا وهناك انها في الواقع لغة شعرية ممتازة غنية بأخيلتها واستعاراتها المبتكرة وان يكن في بعضها غرابة ولكنه نهج أصبح مطروقا لا سيما مع ملاحظة الاقتباس من اللغات الاجنبية كاقتباس الحرف للادب . واما الاسلوب فهو اسلوب الحكاية وكان ما كان ، ويعتبر في هذا الشعر من فنون البلاغة ، لذلك فالنماذج التي قدمناها متوفرة على جميع عناصر التجربة الناجحة أو القريبة من النجاح لهذا الاتجاه الجديد في مبنى الشعر العربي ومعناه ايضا . ونحن نعتقد أن هذا اللون من الشعر وان كان في حاجة الى كثير من الصقل سيكتب له انتشار كبير .

ونختم هذه المحاضرة بمثال من الشعر المنثور احاطة بالموضوع من جوانبه واستيعابا لوجوه التجديد التي دخلت على الشعر ولو انه انما يسمى شعرا باعتبار مضمونه . وهذا هو المثال لعبد القادر السميحي بعنوان « قل انك تحبني » :

في ذلك المساء
من الربيع
وقلبي دافئا
بالحنين
مثل احلام الصغار
ليلة العيد
جئت الى
وليس معك غير الحب
في ذلك المساء
من الربيع
وتحابينا

كما لا يتحاب احد من قبل
منذ ذلك المساء
مـــن الربيـــع
فقل انك تحبنـــى
تحبنـــى . .
ايمكن أن ينسى ذلك المساء
مـــن الربيـــع
ايمكـــن . . ؟
ايمكن أن تختنق الكلمات
بدفء الـــدمـــوع
ايمكـــن . . ؟
فقل انك تحبنـــى
تحبنـــى . .
كيـــوم حبنـــا
فى ذلك المساء
مـــن الربيـــع

الشعر القصصي والتمثيلي

من نافلة الكلام القول بأن هذين اللونين من الشعر جديدان فى الشعر العربى ، فقد سبقت الاشارة الى ذلك اكثر من مرة ، ودرج الكتاب ومؤرخو الآداب على تعليل خلو الادب العربى نثرا وشعرا من القصة والتمثيلية بما لا مجال لذكره هنا . الا انه مما يلفت النظر استمرار هذا الفراغ بالنسبة الى الشعر القصصى بعد النهضة الحديثة ، مع انه الفن الذى يمكن ان يعثر له على جذور فى الشعر العربى القديم . ولقد نشط انتاج القصة والمسرحية الآن ، وظهر كتاب مبرزون فى هذا الميدان ، كما وجد الشعر التمثيلى ووقع الاقبال عليه منذ ان رفع رايته امير الشعراء احمد شوقى . ولكن الشعر القصصى الذى كانت بذوره فى شعر الجاهلية على وشك الانبات ، وقدم لنا عمر بن أبى ربيعة فى صدر الاسلام تجارب ناجحة منه ، ولم يفتأ الادباء يحاولون النظم فيه ، ومنهم من وفقوا الى نماذج رائعة كبديع الزمان فيما نظمه من قصة بشر بن عوانة ، وهى غاية فى تصوير بطولة العاشق ، هذا الشعر لم يلاق من العناية ما هو جدير به ، وما تزال الاعمال التى انجزت فيه اعمالا صغيرة لا نسبة بينها وبين ما لشوقى وحده فى الشعر التمثيلى بله ما قفى به عليه عزيز اباظة وعبد الرحمن الشرقاوى وغيرهما . واكثر القصص الشعرية التى نعرفها لخليل مطران ومعروف الرصافى وبعض الشعراء الآخرين قصص صغيرة وتحمل طابعا ذاتيا . ولعل السبب فى عدم تقدم الشعر القصصى ، قلة اقبال القراء عليه ، فان من المعلوم أن تذوق الشعر ناتج عن تفهمه ، وتفهمه يتطلب ثقافة واسعة ما زال القارىء العربى فى العموم لم يتوفر عليها لا سيما مع ازدواجية اللغة التى تقف حجر عثرة فى طريق انتشار التعليم وتنمية الذوق الادبى . والشعر التمثيلى انما انتشر بفضل المسرح الذى ذلل تلك العقبة وتغلب على الصعوبات التى تعترض قراءه ، فان تشخيص احداث الرواية والالقاء الفصيح واشتراك السمع

والبصر فى تفهم العمل الادبى مما اعان على تذوقه ونجاح تجربته . فالى أن ينتشر التعليم انتشارا كليا وتعم التوعية الادبية اوساط الناس لا سبيل الى نهوض الشعر القصصى فى نظرنا الا بنظمه فى لغة مبسطة وتحبيب قراءته للعموم بوسائل الترغيب المختلفة كشكله وتفسير غامضه وتصوير احداثه ، واهم من ذلك كله انشاده فى المحافل الادبية وتقديمه للجمهور عن طريق الاذاعة المسموعة والمرئية .

وبالرغم مما ذكرناه من قلة الشعر القصصى فى العالم العربى عامة فاننا سنقدم منه نموذجا مخضرما ان صح هذا التعبير موضوعه مستمد من تاريخ الاسلام ، والحلة التى يكتسيها لا يبلغ ان تكون حلة القصة المستكملة الشروط من عقدة وحبكة فنية وحل . ولكنها مما عمل فيها الخيال ومستها ريشة الفن اضفت عليه جو القصة الادبية وابتعدت به عن مجرد القص التاريخى . وهذا النموذج هو قصة كعب بن مالك احد الصحابة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وقاطعهم النبى (ص) والمسلمون حتى نزلت توبتهم فى القرآن ، وهو من نظم علال الفاسى .

يستهل الشاعر القصة بمدخل يخاطب فيه الناشىء الصغير حاثا اياه على التماس القدوة من سيرة اسلافه الامجاد اذ كان المقصود من نظم هذه القصة هو ضرب المثل للناشئة فى الصدق والاخلاص والثبات على المبدا ، ثم يقول متخيلا انه اتى كعبا وتحدث معه على المنوال الآتى :

...نى قد جئت كعبا وهو فى	حلة الشيخ الوقور الطرب
سائلا عما جرى من شانه	فى تبوك حيث لم يصطحب
قلت عهدى بك شهما لاينى	فى استباق الخير عند النوب
كم غزاة كنت فيها اسدا	وكميا من كماة العرب
دافعا عن حرم الله فما	تختشى بيض القنا والقضب
ما الذى اجبنك الامس الى	ان تاخرت فاغضبت النبى
قال ان الصدق منجاة وهل	فزت الا باجتناب الكذب
لم يكن لى اى عذر ، انما	كسل اوقعنى فى العطب
كان لى يسر وعندى قوة	لم انل مثلهما فى حقبى
آه قد غرنى القوم الالى	خدعوا الله وغشوا المسلمين

وبعد ذلك يسأله الشاعر ان يروى قصته فيقدم له قبلها وصايا ونصائح يحذره فيها من الاغترار بالناس ويامره بالاخذ بالحزم فى شؤونه كلها ويستغرق ذلك قسما من عشرة ابيات ثم يبتدىء الحكاية فى قسم تال :

قال هذا وبكى مذكرا ذلك الذنب الذى قد غفرا
ثم سار الشيخ فى قصته راويا متعظا معتبرا
قال رام المصطفى غزوته فى زمان حره قد سعرا
قاصدا سيرا بعيد المنتهى وعدوا جنده قد كثرا
فابان القصد للناس لكى يأخذوا الاهبة فيما أمرا
ولقد كانوا كثارا ما لهم من سجل فيه عد النظرا
فاستعد القوم الا فئة حسبت موقفها لن يظهرا
وانا ما كنت الا مضمرا رفقة القوم لاجنى الظفرا
غير انى كلما رمت قضا حاجتى اخرتها منتظرا
فتماديت الى ان رحلوا واذا بى فى غمار القاعدين

ويستأنف القصة فيذكر خروج النبى (ص) الى تبوك وتقاعده عن الخروج معه ، وما هو الا ان يتدبر فى امره حتى يحيط به الندم ، لا سيما وهو يتجول فى المدينة فلا يرى الا شخصا ضعيفا معذورا او منافقا مشهورا ، ويبلغه ان النبى سأل عنه وان احد الصحابة اجابه بانه شغله برداه والنظر فى عطفيه ، فيزيد ذلك فى المه وان كان صحابى آخر قد اعتذر عنه :

فصل المختار فى موكبه وانا ما زلت ارجى سفرى
ليتنى اتبعته راحلتى واذن يكمل منه وطرى
غير ان الامر موكول الى ما يجليه صنيع القدر
ثم ما رمت حزينا بعده دائم الغم شديد الكدر
لا ارى فى الناس ان سرتسوى ذى نفاق او ضعيف معسر
سال عنى بتبوك المصطفى فأجاب السلمى المجترى
قال برداه وعطفاه هما حبساه عن جهاد خطر
ليته كان لبيبا منصفا كمعاذ فهو بالحمد حرى
اذ اجاب المصطفى معتذرا ما عرفناه سوى الشهم الجرى
ورسول الله اصغى ساكتا وهو ادرى بقلوب المتقين

وتنتهى الغزوة وتاتى الانباء بعودة النبى (ص) والمجاهدين ، فيغتم

كعب ويوبخه ضميره وتنتابه الهواجس ، كيف يلقى النبى ؟ وماذا يقول له ؟ وهل فى استطاعته ان يبرىء نفسه ؟

جـاءت الانبـاء ان المصطفـى	قـد تولى قافـلا فى المـوكب
فريـا حـزنى وافنـى جلـدى	وخـزات فى الضميـر الـذرب
مـا الذى افعل يارب وهـل	ينفـع اليـوم حـديث الكذب
كـم انـاس سيلحـون غـدا	فى اختلاق العذر عنـد الطلب
هل اجـاريهـم فآتـى فنـدا	ام لـزوم الصدق اولى بالابى ؟
وهنـا اشتـد صراع قـائـم	بيـن نفسى وضميـرى الطيب
عامـلان اختلفـا واصطنعا	حجبـا توقـد نـار الشغـب
واخيـرا كـان عزمـى اننـى	الـزم الصـدق ولو أوقع بى
انا ان اكذب على خير الـورى	اعـرض النفس لادهـى عطب
ربمـا يسخط عنـى المصطفى	فأرانـى بيـن قـوم خاسريـن

ويتمادى فى القصة ، فها هو ذا النبى (ص) يعود الى المدينة ، ويأتيه المتخلفون معتذرين فيقبل منهم ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا . اما هو فلا يجد ما يعتذر به ، انه آثر الصدق ولو شاء للفق الاعذار تلفيقا ، فانه كان ذا جـدل . ولكنه ايضا كان ذا ضمير حى ، ويلومه اناس من قومه على انه لم يخرج من ذنبه بعذر يرضى فيستغفر له ، حتى يهم بمراجعة موقفه ، ولكنه حين يعلم ان صحابيين آخرين ممن شهد بدرا كانا على مثل حاله تطمئن نفسه ويزداد ثباتا .

ويقع التعقيد فى القصة ، اذ يأمر النبى (ص) بمقاطعـة كعـب وصاحبيه ، فيتجنبهم الناس ، ويتغيرون لهم ، ويكون الامر اشد وقعا على كعب من صاحبيه اللذين لزما البيت يبكيان فلا يريان احدا ولا يراهما احد ، وهو كان شابا نشيطا يغشى السوق ويأتى المسجد ، ولكنه لا يكلمه احـد ولا يكاد يرد عليه السلام .

ويتأزم الوضع بالنسبة الى كعب حين يضيق به الحال فيذهب الى ابن عم له يحاول ان يجد عنده سلوة فيعرض عنه ، واذ يأتيه رسول من ملك غسان يساومه على اخلاصه ، فلا يزيده ذلك الا ايمانا وتثبيتا .

ضـاق ذرعـى مـن جفاء دائم	وتطلـعـت لان ينكشفـا

فتسورت جدارا لاخ طالما كان صديقى المسعفا
قلت ايه يا ابن عمى هل ترى اننى ممن يحب المصطفى
ثم كررت وعاودت فما قال الا الله ادرى وكفى
وهنا فاضت دموعى حزنا بعد ما قد كدت اقضى اسفا
فدخلت السوق على ان ارى ما يسلى ويقينى التلفا
غير انى لم اجد الا فتى من بلاد الشام يأتى مطرفا
سائلا عنى قومى فاذا هم مشيرون له ان قد وفى
فأتانى بكتاب انه من فتى غسان يحبوك الشفا
فالتحق بالشام تدرك ما تشا واترك الذل فما انت مهين

* * *

ويح نفسى يبلغ الامر الى ان يظن القوم انى اغدر
كيف ادعى لابتياعى ذمتى ان هذا لبلاء اكبر
فتيممت به التنور اذ اذ هو بالتنور منى اجدر

واذ تبلغ مدة المقاطعة خمسين يوما يشتد فيها الامتحان حتى يامر النبى النفر الثلاثة باعتزال نسائهم فيطيعون ويمتثلون ، يأتى الفرج وتنزل توبتهم من السماء وذلك ما تعبر عنه القصة فى هذا القسم .

حبذا اليوم به البشرى وفت من لدن ذى العرش فى الذكر الحكيم
انه اليوم الذى قد سعدت به نفسى بعد ايام الجحيم
حبذا فيه اصطباح انه منزل التوبة من عند الكريم
جاءنى فيه بشير وانا فوق ظهر البيت قد كدت اهيم
بعد ما ضاقت بى الارض بما رحبت من هول ذا الخطب الجسيم
ولقد اعلن عن توبتنا خير خلق الله فى الجمع العظيم
فاعتدا الناس الينا سرعة يبتغون الفوز بالفضل العظيم
واعتلى حمزة سلعا صارخا كعب : ابشر فلك المجد الصميم
واستحث الشهم نحوى فرسا غير ان السبق للصوت الرخيم
انه اسرع فى تهنئتى فهو بالشكران والحمد قمين

نكتفى بما ذكرنا من اقسام هذه القصة ، وهى فى الحقيقة قصة مؤثرة تمثل امتحان الضمير الحى وخروجه من ذلك الامتحان معززا

منصورا ، ولو كان فن الشعر القصصى قد توطدت دعائمه عندنا لاخرج منها رائعة من روائع الادب الانسانى الرفيع ولكنها فى صياغتها الطبيعية التى اختارها لها الشاعر قد احتفظت بقيمتها الواقعية فكانت ابلغ تاثيرا واقوى تمثيلا لروح البطل الذى تدور عليه حوادثها مما يجعلها ادعى لاتخاذ القدوة وتحقيق الغاية التى رمى اليها الشاعر ، وبذلك فهى لم تقصر عن اى هدف نبيل يتوخاه مؤلف قصصى من عمله الادبى .

وننقل الكلمة الى الشعر التمثيلى فنجده اخصب حقلا واكثر انتاجا طبقا للملاحظات التى قدمناها من ان الاقبال عليه كان مشجعا لتداوله والاشتغال به ، ولدينا منه اعمال ناضجة سنقتصر على اعطاء امثلة من بعضها تجعلنا نكون فكرة عن مدى نجاح اصحابها فى ادخال هذا الفن الشعرى الجديد الى ادبنا العربى مساهمة منهم فى المجهود العربى الهام الذى بذل ويبدل من اجل هذه الغاية .

والمثا لالاول الذى سنقدمه بكامله تقريبا لنخلص من النظر فيه براى صحيح عن المحاولة ، هو تمثيلية صغيرة لاحمد البقالى تحمل عنوان مصرع الخلخالى . والخلخالى هذا هو احد حكام مدينة اصيلة بلد الشاعر ، وكان مستبدا فى حكمه استذل اهل هذه المدينة حتى نفذ صبرهم فثاروا عليه وقتلوه .

وهذا نصه :

(يبدو الخلخالى فى بيته امام مرآة كبيرة ، وهو يلقط من لحيته شعرات بيضاء ويترنم) .

غنوا معى ، لانام من لم يمتطى المجد الاثيلا
غنوا معى ، لاعز من لم ينتض السيف الصقيلا
نحن الالى ، فاشرب وغن لذكرنا دهرا طويلا
قوم كآساد الشرى لا يعرفون المستحيلا

(يطرق الباب ويدخل غلامه الخاص قائلا :)

سبيــلا

لم يجن منهم واحد ذنبا فهل الفيت فيهم فاسقا ضليــلا

ماذا اذن صنعوا فحق عليهم منك العذاب اما اتوك فحولا

(يجلس الرجل فيتعطف العبد على سيده هامسا)

العبــد — مولاى كلمهم فان الحقد يبدو فى بريق عيونهم محمولا

الخلخالى — صائحا فى عبده —

— تربت يداك متى تكلمت الملوك باذن عبد لا يبل غليلا

العبــد — مولاى معذرة لقد عودتنى هذا فلم ار عبء ذاك ثقيــلا

الخلخالى — ملتفتا الى رئيس القوم

مهلا لقــد اغلظت ياعم

الرئيس — استمع للنصح يا ابن اخى ودع ذا القيلا

الخلخالى — اسكــت

الرئيس — لتستمعــن

الخلخالى — اسكــت

الرئيس — مــا انــا بالساكت

الخلخالى — اغرب او تخر قتيلا

بعد هذه الثورة من الخلخالى يحاول القوم ان يسكنوا غضبه ويتشفعوا له بكل محرج من وسائل الشفاعة فلا يؤثر فيه شىء من ذلك ويسخر منهم ويهددهم بالسجن والعذاب فيحتدم غيظهم وتهيج حميتهم ويهجمون عليــه محاولين الفتك به فيفر ويصعد الى اعلى بيته المطل على البحر فيلاحقونه ويلجئونه الى ان يقذف بنفسه الى البحر وهذا ما يحكيه من امره بعد ذلك :

الخلخالى — واحيرتاه اارتمى ؟

صــوت — نعم ارم نفسك انتحر مت كالاباة نبيلا

الخلخالى — لا . اختفى

الصــوت — ها هم وراءك يسمعونك للبنادق والسيوف صليلا

الخلخالى — (وهو يلقى بنفسه من اعلى البيت الى البحر)

رب ادرا الاعـــداء عنى واحمنى آه امـــوت مرفنتـــا مثلـــــولا
آه اموت لقد حكمت فلـــم اكن عـــدلا فمت منكبـــا مخـــذولا
مالى اذا لم ترض عنـــى ملجـــأ آوى اليـــه مكـــرمـــا مقبـــولا
ان لم يسعنى عفوك المنشود فى الدنيا فكيف اقابـــل التهويـــلا
هيهـــات ان احيا الهـــى اين اين المـــوت ؟ ادرا عنـــى التضليلا
او هكـــذا يمضى التجبـــر تاركا رمقا على قيـــد الحيـــاة ضئيلا

(تسمع جلبة وضوضاء) .

قد اقبلوا نحوى سراعا ليتهم ضلوا السبيل الى

صـــوت — ادن قليـــلا

الخلخالى — قد اقبلو هيهات ان يترفقوا بى

الصوت — هل سمعت ؟

صوتا آخر — نعم سمعت عويلا

القوم يعثرون على الخلخالى وهو يجود بنفسه

ها الظالم الجبـــار يلفظ نفسه رباه هل سقط العنيـــد قتيـــلا

(ثم يجهزون عليه ويقول الرئيس) :

الرئيس — الله اكبر كبروا

القـــوم — الله اكبر

الرئيس — لا يزال مؤملا مسؤولا

لاهم شكرا دائما شكرا لنعماك التى غمرت ربى وسهولا
لاهم لا نرضى سواك محكما فنيا ولا نبغى سواك بديـــلا
لا العزم توهيه الطغاةولا الحجى توهىالصرامة حبله المفتولا

(يخلو المكان ويسمع صوت هاتف)

ياجثة كانت على عرش من الجبروت تجرى للدماء سيولا
ذوقى عذاب الهون او فتبوئى ظلا على جمر السعير ظليلا
لم يغن عنك من المنية ما جمعت فمت الى سقر تؤم قبيلا

ان قصة الخلخالى على ما يروى اهل المدينة الصغيرة قصة واقعية ،

وقد جرت حوادثها فى تاريخ غير بعيد ، ولكنها انما تناقلتها الرواة ولم تدون فى كتاب ، وقد سمعها الشاعر الشاب من اشياخ مدينته وعجائزها غير ما مرة وبروايات مختلفة منذ كان طفلا صغيرا فوعاها وارتسمت فى ذهنه فما زال يتمخض بها حتى اداها الينا هذا الاداء الجميل فكتب لها البقاء على احسن صورة . وكم من قصص شعبى وروايات يتناقلها الناس على انها احداث تاريخية لو قيض لها من يسجلها بهذه الطريقة او غيرها لاغنت تراثنا الادبى واعانت على تدوين تاريخنا الفكرى والسياسى .

وقد احسن الشاعر فى اختيار القالب التمثيلى لاداء هذه القصة ، لانه يجسم ما تحويه من معانى الثورة على الظلم والاستبداد ومصير الحكام الجائرين والطغاة المتجبرين ، فان العبرة بالتمثيل تكون اقوى مفعولا لتعاون السمع والبصر فيه على احداث الاثر المطلوب . واذا كان العرب يحتفلون بنبوغ الشاعر منهم اكثر من احتفالهم بالفارس الشجاع لانهم يعدونه لسانا يحمى اعراضهم ويخلد مآثرهم ، فحق لاصيلا ان تحتفل بشاعرها الشاب الذى لم يسجل هذه القصة من قصص بطولتها باهون سبيل بل اختار لها وسيلة الشعر التمثيلى ليخلدها على الصعيد الادبى والفنى معا .

ونحن لا نعرف اصل الحكاية التى يرويها بها الاصيليون ، فلذلك لا يمكننا ان نحكم على محتوى التمثيلية ومبلغ ما فيه من تزيد او مطابقة للواقع التاريخى ، ولكننا لا نشك فى ان بعض الالتفاتات الفنية هى من اضافة الشاعر لان طبيعة العمل الادبى يقتضيها كحركة العبد فى اجلاس الوفد وصوت الهاتف الذى يسمع بعد اخماد انفاس الظالم وغير ذلك . على ان فى القسم الذى حذفناه اختصارا . بعض ملامح من الحياة الاجتماعية المحلية لمدينة اصيلا ، وقد صورها الشاعر فاضفى عليها ظلالا من «السريالية» او ما فوق الواقعية ، فكان ذلك من زيادته على اصل الحكاية ، ولكنه ليس من الصدق الفنى المستحسن فى هذا المقام .

واما اسلوب الاداء فان المؤلف بعد ان فضل الشعر على النثر ، زاد فالتزم بحرا واحدا من بحور الشعر الستة عشر كلها ، فضيق على نفسه واسعا . ولو شاء لتنقل بين البحور الشعرية العديدة ، ولا سيما هذه البحور

السريعة الخفيفة المطواع مثل الرمل والخفيف والسريع كما يفعل غيره من الذين وضعوا تمثيليات شعرية . وذلك مما يكسب العمل الشعرى الطويل ترفا فنيا ويجعله اكثر ملاءمة لتنوع المناظر واختلاف المواقف . بل انه التزم فوق ذلك قافية واحدة هى قافية اللام المردوفة فى جميع التمثيلية ، ومن غير شك ان ذلك الجاه الى استعمال بعض الكلمات او العبارات الاضطرارية . وكأنه كان يجرب مقدرته على النظم فى نطاق واسع مع هذه القيود فلم يتساهل فى الأمر حتى اوفى على غايته . والذى جراه على ذلك فيما نرى هو ان التمثيلية قصيرة لا توقع ناظرا او قارئا فى سأم ، فلم يشعر بحاجة الى تنويع صور الاداء ، وهو فى الواقع لم يخل فى التزامه هذا بشىء مما يفرضه عليه العمل الفنى . وذلك نجاح كبير .

واذا كان الشاعر البقالى قد استوحى تمثيلية من تاريخ بلده القديم ، فان شاعرا آخر هو ابو بكر اللمتونى قد استوحى التاريخ المغربى الحديث لنظم تمثيلية رائعة باسم (بقيت وحدى) هى المثال الثانى الذى نقدمه فيما يلى :

ان ثورة الملك والشعب على الاستعمار 1953 التى انتهت كما هو معلوم بتحطيم الدمية التى اجلسوها على العرش وعودة الملك الشرعى واستقلال البلاد ، كانت حدثا عظيما فى تاريخنا القومى الحديث ، وهى تحفل بأمثلة من الوقائع الخالدة والكفاح البطولى من اجل استرجاع السيادة الوطنية والحرية المغصوبة يقل نظيرها ويحق بها الاعتزاز ، ومنها استمد شاعرنا موضوع تمثيليته بقيت وحدى وهو يلخص فى هذا العنوان المعبر حوادث التمثيلية التى عزلت الملك المفروض على الشعب محمد بن عرفة وجعلت الناس يتحامونه حتى المستعمرون واذنابهم الذين غرروا به واوقعوه فى المحظور فصار يندب حظه ويقول بقيت وحدى ولا معين .

والتمثيلية عمل كامل فى اربعة فصول محكمة النسيج متينة الاسلوب اطلق الشاعر لنفسه فيها عنان الخيال فاغناها بالصور والمحاورات المحزنة والمضحكة فيمكن لذلك ان نعدها من قبل الملهاة ولا نرى فى الحكم عليها احسن من تقديم نماذج منها تظهرنا على مدى توفيق الشاعر فى هذا الفن الجديد .

فمن الفصل الاول ، من محاورة بين عرفة وابنته سلمى ، وهى فتاة
فى الخامســـة عشرة :

سلمى — سمعت يا ابى جموعا خلتها رعدا هدر
كأنهم صاعقة ليس لهـا مـن مستقر
قد اقبلوا من الشعاب كالجراد المنتشر
من الجبال والسهول والبوادى والحضر
وهم يصيحون صياح الاسد حين تثئر
المـوت للخائنــة ليس لهم منـا مفـر
المس بابــن يوسف جريمة لا تغتفـر
هو المليك ان نأى وهو المليك ان حضر
سنقطع اليد التــى مدت اليه بالضرر
ثم يقولون . . الهى ، ليت سمعى قد وقر

عرفة — مـــاذا يقولـــون ؟

سلمى —

عرفة — انطقـــى

سلمى — عرفة الى سقر

عرفة — عرفة الى الجنان لا الى جهنم

الى العروش والكنوز والعلى والنعـم
ابوك بويع مليكـا بالكـاع فاندمـى
والتمسى الغفران من والدك المحتـرم
بل من امير المؤمنـين الملك المعظـم

سلمى — ابى لئن غفرت فاغفرت ما بقى من كلمى
بويعت يا ابى على من ؟ استجب تكلم

عرفة — على . . على . . على . . على . .
(مشيرا الى الجبال والهضاب البادية من النافذة)

هذى الربى والقمم

سلمى — ان بكل ربــوة مقتعــدا مــن ضرم
وملء كــل قمــة مرتصد مــن نقم
قد نذر الشعب : ابن يوسف الوفىبالدم

عرفة — الشعب ، لن اسمع هذا اللفظ من ذاك الفم
الشعب ان لم يرضنــى ادوسه بقدمــى

سلمى — اهلا بنيرون الجديــد ومــرحبا بخليفــة الحجــاج والسفاح
ايتاح وطء العــالمين لارجــل وطء الطريق لهن غيــر متاح
تالله ما وطء الرقاب ببــالغ ما يبلــغ الاخــلاص والايثــار

عرفة — لا تستغلــى فلتــة افلتهــا ان اللســان بطبعــه عثار
ساكون يا سلمى مليكا مخلصا يحنو على اوطانــه ويغــار

سلمى — هلا اقلت الشعب من غمراته فرحمتــه وتركته يختــار

عرفة — يختــار غيرى ؟

سلمى — ان ذلك شانــه

عرفة — انى لغيرى عزمى الجبار

ساقيم للاسلام فى هذا الحمى ركنــا يكــاد بنــاؤه ينهــار
سلمى — عجبا يحامى عن حقيقة دينه ملك يــؤيــد ملكــه الكفــار

ان فى هذه المحاورة اكثر من دلالة على القيمة الفنية لعمل اللمتونى فى تمثيلية بقيت وحدى . ان فظاعة الجرم الذى ارتكبه عرفة قد ادركها كل الناس واستنكرتها حتى ابنته المحجبة فى داخل بيته والبراعة التى صور الشاعر بها تلق الابنة على ابيها واشفاقها على مصيره ، لا يوازيها الا براعته فى تصوير عرفة وهو يحلم بالعرش والملك والنعم ، فاذا افاق من حلمه واصطدم بالواقع المر تلجلج لسانه فلم يجد ما يعبر به الا ان يلقى بنظرة اسيفة الى الافق البعيد . ولا نحتاج ان نشير الى منزعه من الشعب ومغزى ذلك . وهذه السخرية المرة التى تعبر عنها ابنته بقولها ايتــاح

وطء العالمين لارجل لا تستطيع وطء الطريق ؟ وقولها عجبا كيف يحمى حقيقة الدين ملك يؤيد ملكه الكفار ؟ ان ذلك كله من الكلم المعبر المشحون بطاقات الفن والشاعرية .

وهذه صورة هجوم عـلال بن عبد الله على ابن عرفة عند بروزه لصلاة الجمعة ، والحديث يجرى بين مطربين سيقوا الى القصر لتسلية الملك المزعوم وهو من الفصل الاول ايضا :

— مـاذا وراءك ؟

— امة محمومـة ودم زكى فى الشوارع يهـدر

وابو المناحس فى طريق رجوعه مثل الجـزور مضرجا يتقطـر

— مـاذا تقـول ؟

— مخـرف ؟

— او ناقل رب امرىء سمع الكلام فقـالا

— بـل شاهـد

— مـاذا شهـدت الا تكـون ممـازحا

— لا تـوسـعـوه خـبـالا

— مـن ايـن جئت ؟

— من المصلى مكـرها حملتنى الاجنـاد منـه غيـالا

زعموا وجود المطربين تجمعـوا كالبعـث حشـدا والمجـرة آلا

متباشرين ببيعـة ميمـونـة كالشمس يغمـر نورها الاجيالا

يترقبـون ليستهلـوا حلفهـم نغمـى الجميل وصوتى الصلالا

— دع عنك هذا واحك ما شاهدته

— اجلـس

— تعـال هنـا

— تعال تعالى

كان المصلى موحشا فحسبته ... قبرا وخلت الحاضرين ثكالى
وظننت قصف القاصفين مناحة ... والدور من احزانها اطلالا
واطل ركب السوء فاهتزت له ... كتل الانام وزلزلت زلزالا
فرايت اكوام الحجارة ترتمى ... وسمعت ايعاد الملا يتوالى
والشعب يبرز للجنود منددا ... رباه . عزل يطلبون نزالا

والجند هل ترك الغضابى حاذرا ... اشعالهم ام زادهم اشعالا
بل كان يغتال البرىء وينثنى ... يطأ القتيل ويرفس المغتالا
كم امهات اثكلوا كم بائسات ... رملوا كم يتموا اطفالا
والعاهل المزعوم كان مروعا ... ام كان يمشى زاهيا مختالا
بل كان يمشى كالسلحفى زاحفا ... وكأنما هو حامل اثقالا
متلفتا يخشى بوادر امة ... ثارت عليه نسوة ورجالا
تحكى حراب الجند حول حصانه ... شباك باب السجن والاقفالا
واذا على بعد المدى سيارة ... شمطاء تنهج كبرة وكلالا
حتى دنت لا تستثير تطلعا ... لبلائها او تستجد سؤالا
واذا العجوز تحث باقى عمرها ... فى كرتين فتستحيل غزالا
تتطاير الاجناد حول مدارها ... مثل الجراد تسابق الآجالا
ثم استطار دخانها عن اغلب ... بذ الرجال شجاعة ونضالا
انساق برقا واستقر قذيفة ... وانقض سهما واستوى رئبالا
ومضى الى الملك المدلس حاملا ... قلبا اشم ومدية تتلالا
فارتاع سلطان الدمى وتخلخلت ... من تحته رجل الحصان فزالا
— هل مات منتصبا واهوى جثة ... ام دق منه سقوطه الاوصالا
— ما مات منتصبا وعاش ممرغا ... فوق التراب يوسد الاوحالا
— وعن الفتى
— دار الجنود على الفتى ... مثل الذباب اذلة انذالا
— خزيا لهم نسر هوى من علوه ... وسط الكلاب فاصبحوا ابطالا
— اسروه ام قتلوه ؟
— بل حشدوا له ... خير الكماة وصاولوه صيالا

وسقوه كأسا للمنيـــة خلتهــا ممـــا انتشى بورودها سلســالا
سقط الشهيـ د ضحية وكانـــه علم تهـــاوى او هـــلال مـــالا
— واسم المفدى ؟ هل تعرفت اسمه
— سمـــاه لـــى اصحابه عـــلالا

انها صورة للمشهد التاريخى وحادثة الفداء الاولى التى قام بها ذلك البطل الخالد ، اثر وقوع كارثة ابعاد الملك الشرعى عن البلاد وتنصيب الدمية الاستعمارية على العرش ، وظن المستعمرين ان الجو قد خلا لهم وانهم قد ضربوا الضربة القاضية على الحركة الوطنية وما كانت تحلم به من بعث الدولة المغربية واحياء مجد البلاد بعد استعادة حريتها واستقلالها . ولئن كان الشاعر قد مهد للصورة بما هو من قبيل الهواجس التى ساورت افكار المواطنين كثيرا منذ تلك الصدمة المؤلمة ، فانه قد توخى الحقيقة الكاملة عند عرضها ولم يتزيد فيها بكلمة ولا حرف ، وبذلك كان واقعيا فى تسجيل هذا الموقف التاريخى وتجلية مناظره للعموم . واى حاجة به الى التزيد والموقف فى روعته وجلاله غنى عن كل تلوين ، بل ان الشاعر مهما اوتى من الفصاحة والبيان لا يبلغ ان يحدث فى النفوس ما يحدثه مطلق وصفه من الاثر العميق . وكانى به قد اخذ بتأثير الحادثة التى كانت بردا وسلاما على القلوب ، فاندفع فى وصفها متدفق الخاطر فلم يشعر بالحاجة الى تبديل الوزن ولا حرف الروى الذى نظم عليه وان طال ذلك النظم واوشك ان يوقعه فى الاغراب .

ونموذج آخر من الفصل الثانى نختم به ، هو منظر لاجتماع بين المقيم الفرنسى وابن عرفـــة .

المقيم — ملك الملوك لقد وجدنا حيلة فيها نجاتك من رصاص الرامى
نضع الجنود ظهروهم لظهورهم وتكـــون اوجههم الى الاقـــوام
فتمر من بين الظهور محصنا وتعـــود غيـــر مكســر اودام
عرفة — مسيو المواسى حيلتى الا ارى لـــى حيلـــة الا لزوم مقامـــى
المقيم — والشعب ؟
عرفة — اقبـــل شـــوقـــه وولاءه عنـــى وبلغـــه جميـــل سلامى

او لم يثر اشفاق قلبك اننى　　غادرت كــل مدينــة بوســام
لم يبق لى قلب يطير وعورت　　عينــى ودكت اضلعى وعظامى

المقيم ـــ دع عنك اقوال العجائز انما　　تبنى العلا بالصبــر والاقــدام
انا سنعلــى بيعة بويعتهــا　　ونــرد سهم عــدونــا بسهام

عرفة ـــ كيف السبيل الى تلافى فتنة　　عصفــت طلائعــا بكل نظــام
او كيف يرضى المسلمون ببيعة　　جعلوا عداوتهــا مــن الاسلام
غررتمو بى وانتهزتم كبرتى　　فجفــوت اخوانى وخنت ذمامى
افرطت فى الاحلام حتى ساعنى　　الا يشاركنــى الورى احلامــى

المقيم ـــ لا تصدق مقالة الاوغــاد　　انهــم يأفكــون فى كــل نــاد

عرفة ـــ امن الافك اشنل صرعتنى　　فرايــت النجــوم عنــد الزوال
لم يزل ظفرهــا يزلــزل احــلامــى وتــزآرهــا بــروع بالــى
انا لو كنت فى مكانك مــا كابــرت فى الواضحــات ياجنــرالى

المقيم ـــ　　يا مالكا لقيك مــا　　لقيت مــن بيعته
ولم ازل مثابــرا　　اكثــر من شيعته
المرء لا يجيز بالجحد　　علــى نصــرته
ولا يثبط الــذى　　يجــد فى خدمتــه

عرفة ـــ　　يا بادعا لقيت مــا　　لقيــت من بيعته
المرء لا يكذب المر　　ئــى من رؤيتــه
الشعب قد سخطنى　　والويل من سخطه
امعــن فى اضرابه　　ولــج فى ثورتــه
وليس من مذبذب　　خرج عن وحدتــه
غير ضعيف خائف　　خاف على كسرته
فطعم الهلاك قبــــل مفتــدى لقمته
فهــل نقــول كـــــذب الميت فى ميتته
وكم امــام لم يقـــه باسمى فى خطبته
حتى اتاه وافد الهـــلاك فــى جمعتــه
وكــم معمر حكى　　قارون فى ثــورته

حصده المـوت مـــع الحصيدفى ضيعته
هم جنـــة الله فــــلا تمـــار فى قدرته

المقيم — آمنت بالله وبالفتيـــة مـــن جنتـــه
لكننـــى المقيــــم لا يـــرجـــع فى كلمته
قد خاب ما آملـــه فاصبر على خيبته
وخلـــه يلتمـــس المخرج من ورطته
لست اقل رافـــة بالشعب من جلدته

عرفة — ان كان يعنيك نجـــاة الشعب من فتنته
فهاك وصفة طبـــــيب صاب فى وصفته

المقيم — قلها فلست بالذى يشك فـــى نيتـــه

عرفة — عالجه بابن يوسف يبـــل مـــن علته

المقيم — وانت ؟

عرفة — دع عـــرفـــة يخبط فى ظلمتـــه
فلست اول امرىء اصيب مـــن نهمته
وقـــد يحلل الالــــــه العبـــد من زلته
ان عظم الذنب فلا اعظم من رحمتـــه
استغفرالشعب ولا اطمـــع فى ردتـــه
لكننى اعوذ بالـــر حـــم مـــن نقمته
استغفر ابن العم مـــــا جنيت فى دولتـــه
ان خنته فقد كشـــفت عن شذا سمعته
وعن سخاء شعبه بالروح فى فديتـــه
دعنى دع عرفـــة يهيـــم فى غربتـــه
دعه يهاجر الى المجهـــول مـــن هجرتـــه
كالطائر الذى مشى بالخلف فى اسرته
فديس مأواه وغولـــب علـــى ايكتـــه
أنا ابن آدم ابـــى اخـــرج مـــن جنتـــه

الاختصار لهذا القسم يذهب رونقه فلذلك اوردناه بطوله ، وبعد ان

اعطينا مثالا مما اجراه الشاعر من محادثة بين الملك المصنوع وابنته ، ومثالا من حوادث الثورة والفداء التى قابل بها الشعب الجريمة السياسية النكراء، لم نر بدا من ان نعطى مثالا للعلاقة بين ابن عرفة والفرنسيين وكيف صورها الشاعر ، لنستوفى بذلك التقديم الذى يسوغ معه الحكم على التمثيلية ووضعها فى المقام اللائق بها بين الاعمال الادبية التى من هذا القبيل .

والمثال كما نرى يزخر بالمعانى والاخيلة الشعرية الجميلة وبالنكت والعبارات الساخرة فضلا عن انسجامه وجمال اسلوبه . وقارن ان شئت بين حيلة المقيم التى دبرها لحماية الدمية من هجوم الشعب بسبب حرصه على بروزها وشهود الاحتفالات الرسمية مع مخاطبته لها بملك الملوك للتغرير والخداع وبين الحيلة التى دبرتها الدمية ولم تبغ بها بديلا للنجاة بنفسها من انتقام الشعب مع مخاطبتها للمقيم بمسيو المواسى . فان ذلك كله من الباس الواقع حلة البيان الرائع والخيال المبدع مع تطريزها بالنكت الهزلية التى تزيدها حلاوة وقبولا ، وقول ابن عرفة للمقيم لما ذكره بالشعب : اقبل ولاءه وشوقه نيابة عنى وبلغه ازكى سلامى هو من صور السخرية التى لا كفاء لها فى الحسن . والحديث كله مما عرض عرضا لبقا وذكيا فلم يدع فكرة سياسية الا لمح اليها ولا عقيدة وطنية لم يحسب لها حسابها ، فبينما نرى المقيم يناور ويداور ليوقع الصيد فى الشبكة نرى الضحية بدافع ويعارض بما هو اقوى حجة واقوم سبيلا ، فاذا قال له المقيم اننا سنؤيد بيعتك ونعلى شانها اجابه بقوله : كيف يرضى المسلمون ببيعة يرون نبذها من تمام اسلامهم واذا قال له عاتبا وقد راى تصميمه على عدم الاستمرار فى التجربة الفاشلة :

المـرء لا يجيـز بالجحـد علـى نصرتـه

قال له مبادها بحقيقة الواقع :

المـرء لا يكـذب المـرئـى مـن رؤيتـه

الى آخر ما فى ذلك الحوار من حقائق وآراء صائبة مع ما يلبسها اياه احيانا من لباس الهزء والسخرية كقوله على لسان ابن عرفة فى الفدائيين :

هـم جنـة اللـه فـلا تمـار فى قـدرتـه

ومـــا اجابـــه المقيـــم :

لكننـــى المقيـــم لا يـــرجـــع فى كلمتـــــه

وقوله فيما عرضه ابن عرفة لعلاج الموقف من ارجاح ابن يوسف الى عرشه واجفال المقيم من ذلك . واما قول ابن عرفة :

استغفـــر الشـعـــب ولا اطمـــع فى ردتـــه

فهو من عيون الابيات فى هذا الحوار . وكذا قوله :

انـــا ابـــن آدم . . ابـــى اخرج من جنتـــه

فهو ايضا من الروائع التى بلغت الغاية فى تسلية النفس والاعتذار عن الخطا الذى ارتكبه هذا الرجل الذى هو ليس اول الخاطئين ولا آخرهم .

* * *

فهرس

الشعـــر القصصى والتمثيلـــى

صدر عن دار الثقافة

- الخوارج في بلاد المغرب — د. محمود اسماعيل
- التراجيديا كنموذج — د. حسن المنيعي
- الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية — د. ابراهيم السولامي
- الامير الشاعر ابو الربيع سليمان الموحدي — د. عباس الجراري
- من ادب الدعوة الاسلامية — د. عباس الجراري
- الروايات التاريخية في تاسيس سجلماسة وغانة — تعريب الاستاذ محمد الحمداوي
- دفنا الماضي : — الاستاذ عبد الكريم غلاب
- روضة التعريف بالحب الشريف مجلدان — الاستاذ محمد الكتاني
- الحضارة المغربية عبر التاريخ — الاستاذ حسن السائح
- مناهج البحث في اللغة — د. تمام حسان
- العصبية والدولة — د. محمد عابد الجابري
- في الشعر السياسي — د. عباس الجراري
- الثقافة والفكر في مواجهة التحدي — الاستاذ عبد الكريم غلاب
- رفقة السلاح والقمر (الجائزة الاولى للمجمع اللغوي . القاهرة 1975) — الاستاذ مبارك ربيع
- صفحات دراسية من القديم والحديث — د. عباس الجراري
- وحدة المغرب المذهبية ، خلال التاريخ — د. عباس الجراري
- في ظلال العقيدة — د. عبد الهادي التازي
- التنظيم الجماعي الجديد — د. أنور احمد رسلان
- قراءات في ادب الصباغ — الاستاذ عبد العلي الودغيري
- النضال في الشعر العربي بالمغرب — د. عباس الجراري

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

الايداع القانوني رقم 1984/546